المجلس الأعلى للثقافة

شهر العسل

(وقصص أخرى)

ترجمة وتقديم : على المنوفى

مختارات من القصة القصيرة فى إسبانيا

المشروع القومى للترجمة



332

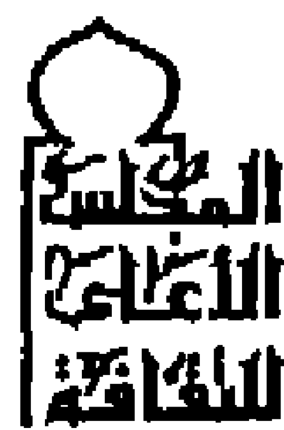
المشروع القومى للترجمة

رحلة شهر العسل

(وقصص أخرى)

مختارات من القصة القصيرة فى إسبانيا

ترجمة وتقديم : على إبراهيم على منوفى



٢٠٠٢

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد :٣٣٢
- رحلة شهر العسل (وقصص أخرى)
- مختارات من القصة القصيرة فى إسبانيا
- على إبراهيم على منوفى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

هذه ترجمة لمجموعة من القصص القصيرة :

المصدر :	Cuento español
إعداد :	Medardo Fraile
الناشر :	Catedra - 1990
	Cuento español Contemporáneo
إعداد :	Angeles Encinar
و	Anthony Percival
الناشر	Catedra - 1994

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084 E. Mail : asfour @ onebox. com

تقديم

- ١ -

يشير فيكتور جارثيا دى لاكونشا إلى أن النقد الإسبانى يصر على العيش فى إطار من القصور والمنهجية السهلة بتمسكه بمفهوم نظرية الأجيال (...) ويخرج علينا بسيل من الكلاشيهات التصنيفية، كما أن النظرية نادرًا ما استُخدمت استخدامًا منهجيًا سليمًا ؛ وأدى هذا الخلل إلى الإضرار بالكثير من الجهود النقدية المبذولة وأشاع الخلط بدلاً من الإيضاح (١).

ولو تم تطبيق نظرية الأجيال تطبيقًا منهجيًا وبالدقة المطلوبة، فهى لا تعدو أكثر من محاولة فى الطريق لمحاولة فهم الجدلية القائمة لأدب أمة ما، فى لحظة زمنية معينة يمكن أن تكون بمثابة صور فوتوغرافية جمعت أفرادًا معينين توافدت فيهم المشارب الثقافية المشتركة، ولفتهم ظروف وطنية معينة، جعلتهم يتبنون مواقف وأيديولوجيات متقاربة أو متماثلة ، أضف إلى ذلك التقارب السنى بين الأفراد الذين هم فى الصورة، لكن أما نظر الواحد منا إلى صورة تذكارية معينة فى ألبومه الخاص تضمه هو ومجموعة من أصدقائه؟ ألم يتأملها بعد مرور مرحلة زمنية معينة ويضاهيها بالواقع المعاش بعد فترة ، وما آل إليه حال كل فرد فيها؟ هى صورة تتسم باللحظية والثبات ، فإذا ما عكست لنا المجموعة أو الجيل

فلا يدوم ذلك كثيراً اللهم إلا بضعة أيام أو إن شئنا شهوراً، هذه اللحظية تجعل الصورة غير صالحة لأن تكون قالباً مستديماً نجد أنفسنا مجبرين على ترديده عندما نتحدث عن مجموعة ما من البشر.

وإذا ما كان هذا هو حال صورة الأصدقاء فما بالنا بصورة تجمع رموزاً أدبية وفنية لعصر ما تتسم بتفردها، إنها تستعصى على القولبة، وإن فعلنا ذلك فإننا بدلاً من الإيضاح والتفسير ومحاولة الفهم نُحدث الخلط ونتوه فى دروب الغموض ولا نكاد نرى خيوط جدلية الإبداع الأدبى فى لحظة زمنية معينة ؛ "فمن يستطيع أن يضع للحقل باباً؟" يتساءل جارثيا دى لاكونشا، إنه لأمر غاية فى الصعوبة، ومع هذا " نجد أنفسنا مضطرين إلى وضع حدود ومسميات اصطلاحية" ، " كما أننا على وعى بأن الحدود التى يضعها تاريخ الأدب ما هى إلا حدود مصطنعة فى معظمها".

ربما لا يتعلق الأمر فقط بنظرية الأجيال وحدها ونقاط الضعف فيها أو التطبيق غير المنهجى لها وإنما يذهب إلى أبعد من هذا بكثير، أى يرتبط بالأسس التى قام عليها عصر النهضة، ومنها خلق اتجاه يشجع على التفكير العلمى الذى يستند إلى المنطق من ناحية والتجريف من ناحية أخرى ، وإذا ما أخذنا فى الاعتبار مفهوم "التجريب" من ناحية أخرى، وإذا ما أخذنا فى الاعتبار مفهوم "التجريب" لا من منطلق العلوم البحتة، بل من مفهوم محاولة فهم الواقع الأدبى لأمة ما فى لحظة زمنية معينة، لوجب علينا أن ندرك السبب فى وجود كل هذه النظريات الأدبية والنقدية التى تحاول تفسير ما يحدث على الساحة وإدخاله فى دائرة الترتيب المنطقى الذى تقبله العقلية الغربية ، ومن الأمور المسلم

بها أن لا شيء يتسم بالثبات في هذا المضمار، وبالتالى قد يقف هذا التجريب وذلك المنطق حائرين أمام رصد إحدى الظواهر الأدبية في إقليم معين ، إننا نقصد بالتجديد التيار الجديد في الإنتاج الروائي في أمريكا اللاتينية ألا وهو "الواقعية السحرية" ، فالواقع في نظر روائي مثل خوليو كورتاثار ليس فقط ذلك الذي تعلمه في المدرسة وعلمته إياه أمه " أي ذلك الذي يمكنني أن أتأكد منه بحاستي اللمس والشم .... بل هناك تداخلات لعناصر لا صلة لها بتلك الأشياء (****) وهذه التداخلات تقف بنا أمام شرخ في جدار الواقع، نرى من خلاله واقعًا جديداً، ونظامًا مختلفا للأشياء وقوانين جديدة ليست أقل دقة من تلك التي تحكم ما نطلق عليه عالم الواقع" [٤] إذن ليس بالضرورة أن ينجح التجريب والمنطق في رصد تلك الجدلية، وربما استطاع في المستقبل أن يكتشف تلك القوانين المختلفة والجديدة التي تساعده علي الرصد من المنظور الصحيح، وتفصح بالتالي عن قواعد جديدة توضح أسس العمل الإبداعي .

لكن هل نقف هكذا في انتظار "الفرج" أم نواصل العمل باستخدام الأدوات المتوافرة لدينا؟ المنطق والعقل يقولان بمواصلة العمل بما توفر لدينا شريطة أن نكون علي وعي بنسبيتها وبمثالبها وأن نحاول سبر أغوار جديدة لأنماط أخرى من التجريب في ميدان النقد الأدبي، نكرر بأن ذلك يجب ألا يكون على حساب جدلية الحياة الثقافية وما تتسم به من تعقيدات، واستعصائها، إجمالاً، على الانضواء تحت أنماط وقواعد مفروضة". [٥]

هذه النقاط يجب أن يضعها القارئ في الاعتبار عند تصفح هذه العجالة البسيطة عن القصة القصيرة في إسبانيا خلال نصف قرن من

الزمان، وعند الاطلاع على المختارات التى كان الهدف منها استعراض فترة زمنية معينة عاشها ذلك الجنس الأدبى،دون أن ندخل كثيراً فى الكشف عن دقائق الخريطة الأدبية والمراحل المختلفة التى عاشها أحد الكتاب .

– ٢ –

يحار المرء كثيراً عندما تخرج عليه الكثير من المصطلحات والمسميات التى تتعلق بذلك الجنس من السرد القصصى الموجز Narra-cian Breve وسوف يجد هذا الكم من المصطلحات الذى يخضع إما إلى استخدامات تتعلق بفترة تاريخية معينة أو إلى تصور خاص لدى بعض الأدباء والكتاب لهذا الجنس الأدبى، وفصله عن غيره وخاصة"الرواية"، مع ما فى ذلك من صعوبات ومخاطر تتعلق بتعدد تلك الأجناس وكسرها لتلك القوالب التقليدية الموروثة عن التقسيمات والتصنيفات الكلاسيكية اليونانية ، ومن هذه المصطلحات نجد **Fabula** (بمعنى أقصوصة تكتب شعراً أو نثراً وتستخرج منها عبرة أو عظة، أما شخصياتها فعادة ما تكون من الحيوانات أو النباتات) ؛ **Apologo** (قصة ذات أحداث خيالية يقصد بها وقائع محددة) ، **Enxiemplo** (أقاصيص تساق للتدليل على صحة مبدأ معين) ، **Proverbio** (بمعنى الحكمة، والإيجاز هو أبرز ملامحها) ، وفى العصر الحديث نجد مصطلحات أخرى متداولة منها **Relato Corto** (قصة قصيرة) ، **Novela Corto** (بنفس المعنى تقريباً) أو **Relato brevo** .

ومن المصطلحات الشائعة الاستخدام أيضًا هناك لفظة Cuento ، وفى كثير من الأحيان نجد هذه اللفظة وقد أضيف إليها مصطلح آخر لإدخال المزيد من التصنيف، وإن أردنا القول ، المزيد من الخلط والبلبلة، فهناك Cuento Infantil (قصص الأطفال) وهناك Cuento Literario (القصص الأدبى الموجز) وهناك Cuento Popular (القصة الشعبية) ومنها أيضًا ذلك الجنس القصصى المكتوب شعرًا، فأى هذه المصطلحات نختار ليكون ترجمة أمينة للمسمى العربى "القصة القصيرة" وهو مترجم بدوره فى اللغات الأخرى؟ وللإجابة على هذا السؤال ننوه باختيارنا لمصطلح Cuento دون أية إضافات أخرى ليكون معادلاً لمفهومنا للتسمية العربية "القصة القصيرة" كما أنه شائع الاستخدام فى الوقت الراهن بهذا المفهوم ، ولكن ما هى جذور ذلك المصطلح الإسبانى؟

يشير البروفيسور/ ماريانو باكيرو جويانس M.B. Goyanes إلى أن لفظة Cuento مشتقة من اللفظة اللاتينية Computum (بمعنى العد والإحصاء)، وانتقل المفهوم من عد وإحصاء الأشياء إلى ذكر الأحداث وسردها [٦] ، كما أن البروفيسور إنريكى أندرسن أمبرت يسير فى هذا الاتجاه ويعرض للمصطلح وكيف أنه أخذ يلقى قبولاً أثناء عصر النهضة مع أنه كثيرًا ما كان مقرونًا بالرواية Novela وكذلك بمصطلحات أخرى. [٧]

ورغم انتصار هذا المصطلح "Cuento فإنه انتصار حديث إذ يلاحظ البروفيسورM.B. Goyanes أنه خلال القرن التاسع عشر كانت بعض القصص القصيرة تكتب شعرًا. [٨]

يلاحظ أيضًا أن نقطة الالتقاء بين هذا المصطلح وغيره مثل Relato Breve, Relato Corto ... الخ هى الإيجاز، رغم أن الإيجاز إذا ما دققنا

النظر فيه، لا يعتبر مقياساً بنائيًا يدخل كعلامة فاصلة بين جنس أدبى وآخر، وإن قبلناه كأساس فإننا لا نتفق على عدد الصفحات التى يجب ألا تزيد عنها القصة القصيرة، كما لا نلتقى حول الحد الأدنى منها.

يقول ميداردو فرايلى فى مقدمته لـ مختارات من القصة القصيرة فى إسبانيا خلال فترة ما بعد الحرب الأهلية (Edit, Catedra ١٩٨٦) "إنه بناء على رغبة دار النشر فى ألا يتجاوز هذا الكتاب الثلاثمائة صفحة من القطع الصغير فإن الأمر مهيأ لاختيار القصص الأكثر إيجازًا فى دائرة القصة القصيرة".(٩)

- ٣ -

يجد دارس القصة القصيرة فى إسبانيا خلال فترة ما بعد الحرب الأهلية مصاعب جمة عند محاولة الحصول على مادة علمية يسترشد بها فى محاولته رصد التطورات التى طرأت على هذا الجنس الأدبى، وهى مصاعب تتعلق بدور النشر وبمزاجية القارئ والتحولات التى تطرأ فجأة على توجهات بعض الكتاب.

يرى إدواردو تيخيراس E. Tigeras (١٠) أن دور النشر فى إسبانيا ترفض نشر المجموعات القصصية باستثناء بعض المحاولات البطولية التى يكون مصدرها الفشل ، ورغم ذلك فإن "كافة الكتاب الإسبان يكتبون القصة القصيرة، ويتميز إنتاج عدد كبير منهم فى هذا المضمار بالجودة العالية والمحاولة الجادة لإضافة الجديد سواء من الناحية التقنية أو اختيار الموضوعات.

وتسوق بعض دور النشر – في تلك الفترة – حجة مفادها أن القارئ العادى لا يقبل على مثل هذا النوع من الإبداع الأدبى، وبالتالى يكون من غير المنطقى إنفاق الأموال سدى.

المخرج الذى لا مناص منه أمام بعض الكتاب حتى ترى أعمالهم النور هو النشر على نفقتهم الخاصة ويخرج الكتاب – المجموعة القصصية فى حالتنا هذه – فى طبعات قليلة العدد ، ولا يتجاوز انتشاره دائرة الأصدقاء وبعض النقاد ، وإذا كان ذلك الذى قام بالنشر على نفقته الخاصة قد نجا من النسيان الكامل فإن البعض الآخر يحجم عن مثل هذه الخطوة فيتم وأد العمل قبل أن يرى النور.

هذه الآثار السلبية أخذت تنزاح بعض الشيء حيث بدأت بعض الدور تروج لهذا الإبداع الفنى من خلال قبول أعمال الكتاب البارزين، وإنشاء بعض الجوائز الأدبية، وتكثيف الاتصال بالآداب الأجنبية، وخاصة الأوروبية، والإنتاج القصصى فى أمريكا اللاتينية.

من الملاحظ أيضًا قلة اهتمام النقاد بهذا الجنس الأدبى، فإذا ما تصفح الدارس أى مؤلف حديث أو قديم بعض الشيء عن تاريخ تطور الأدب الإسبانى خلال هذه الفترة فسوف يلمس على الفور أن معظم هذه الدراسات لم تعالج القصة القصيرة إلا باعتبارها من فروع "الجنس الأكبر" ألا وهو الرواية (١١) ، كما أن المعالجة تتسم بالإيجاز مقارنة بالأجناس الأخرى، وتعتمد على الربط بين الرواية والقصة القصيرة، فما يحدث لهذه نراه فى تلك ، وربما كان تبرير ذلك هو أن الإبداع الأدبى والفنى فى مجتمع ما وفى مرحلة بعينها كثيرًا ما تكون هناك روابط مشتركة بين ظواهره المختلفة، مثلما هو الحال فى المدارس الطليعية

التى نجدها فى الرسم والشعر والنحت والموسيقى والسينما ... ألخ أو المدارس الواقعية.

الكثير من القصص القصيرة التى تنشر لا تحمل تاريخ كتابتها أو حتى تاريخ نشرها لأول مرة، رغم أن تلك هى من المعطيات الأساسية لمتابعة مراحل تطور كاتب بعينه.

- ٤ -

سبق أن أشرنا فى بداية هذه المقدمة إلى أن نظرية الأجيال لا تساعد كثيراً فى محاولة قراءة ما يجرى على الساحة الأدبية الإسبانية، لكن يستعين بها الكثيرون حتى وقت قصير فى محاولة لفهم ما يجرى ، فها هو العلامة خوسيه ماريا مارتينيث كاتشيرو يتحدث عن فترة الأربعينيات من القرن العشرين مطبقًا نظرية الأجيال مشيراً إلى أن الساحة الأدبية كان بها - بالإضافة إلى رموز أجيال سابقة - أجيال جديدة : أحدها جيل ولد أفراده ما بين عامى ١٨٩٠ و ١٩٠٥م وهو : ليديسما Ledesma وميراندا Miranda وثونثونيجى Zunzunegui وأركونادا Arconada و باريا Barea وسندر Sender. ، أما الجيل الآخر فقد ولد أفراده ما بين عامى ١٩٠٥ و ١٩٢٠م ومن أبرز أفراده : ديليبس Delibes وإيلينا كيروجا Elena Quiroga ، جارثيا سيرانو Garcia Serrano، فرانشيسكو جارثيا بابون F.G. Pavon . (١٢)

ومن جانبه ينقل ميداردو فرايلى Medardo Fraile عن إنريكى أندرسن إمبرت E.A. Imbert (القصة القصيرة فى إسبانيا) Columba

بوينس إيرس ١٩٥٩ ، أنه كان قد دخل الساحة الأدبية الإسبانية جيلان من كتاب القصة القصيرة، وأخذا يعملان مع بداية الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦) ، هذان الجيلان هما: جيل ولد أفراده ما بين عام ١٩٠٠ وحتى عام ١٩١٥ وجيل ولد أفراده ، مابين عام ١٩١٥ وحتى عام ١٩٣٠ ، ثم يؤكد ميداردو فرايلى قبوله لهذا التقسيم، من باب التبسيط، ويضيف إلى الجيلين السابقين جيلاً ثالثًا أتى أفراده إلى الدنيا خلال الفترة ما بين عامى ١٩٣٠ و ١٩٤٥م [١٣] هذا الجيل الأخير يتوافق بشكل أو بآخر مع أفراد الجيل الذى أطلق عليهم سانتوس سانث بيانوبيا جيل الـ ١٩٦٨م حيث نجد أن أكبر المشار إليهم عمراً هو خوسيه ماريا بوث دل سوتو J. M. Voz del Soto (١٩٣٨) وأصغرهم هو كل من Javier Marias خابيير مارياس (١٩٥١) وخوان كروث J. Cruz (١٩٥٢). [١٤] ، أما كتاب "القصة القصيرة الإسبانية المعاصرة" فيضم بين دفتيه أكثر من عشرين مبدعًا فى هذا الفن القصصى، ولد أحدهم عام ١٩٢٣، وهو أنطونيو بيريرا Antonio Pereira ، أما أصغرهم عمراً فهو أغسطين ثيريثليس Agustin Cerezales (١٩٥٧) ويلاحظ أن معظم المذكورين فى هذه المختارات قد ولدوا خلال عقد الأربعينيات من القرن العشرين، والنصف الأول من عقد الخمسينيات ، غير أن مقدمى المختارات المذكورة يستدركان قائلين بأنه من غير العدل ومن غير المناسب العمل بنظرية الأجيال فى محاولة لرصد حال القصة القصيرة فى إسبانيا خلال الفترة الراهنة (يعنيان بذلك الفترة التى أعقبت رحيل الجنرال فرانكو فى منتصف السبعينيات وحتى بداية التسعينيات) وحجتهما فى هذا المقام أنه يتعايش على الساحة الأدبية الإسبانية خلال الفترة المشار إليها أكثر من دفعة "Promocion" ويعقبان بأن الترتيب الخاص بالأجيال أخذ يفقد فاعليته. [١٥] .

إذن وضح أن السير فى هذه النظرية دون الأخذ فى الاعتبار الكثير من المحاذير والاستثناءات يساعد قليلاً فى رصد جدلية الإبداع الأدبى خلال حقبة زمنية معينة.

- ٥ -

اتسم عقد الأربعينيات بعدم الثبات على إيقاع واحد، وعدم وضوح الرؤية أمام الكثير من الكتاب سواء كانوا شعراء أو مسرحيين أو قصاصين ، وهذا أمر طبيعي فالحرب الأهلية الإسبانية استمرت ثلاثة أعوام (١٩٣٦ - ١٩٣٩) أسفرت عن هجرة الكثيرين من المبدعين - خاصة من الموالين للنظام الجمهورى - وموت البعض الآخر، وعزلة إسبانيا عن العالم المحيط بها... كما أن النظام الجديد أخذ يبحث لنفسه عن أسس أيديولوجية يستقر عليها ، وقلت مساحة حرية التعبير وأصبحت قوانين الرقابة أكثر صرامة.

غير أنه يجدر التنويه إلى أنه رغم أن الإبداع الفنى قد تأثر بالحرب الأهلية، إلا أن ملامح التغيير والتحول من تيار المدارس الطليعية إلى تيار "أدب الالتزام" كانت متوافرة وواضحة للعيان قبل الحرب الأهلية ، ولأدب الالتزام جذوره التى تمتد إلى زمن ليس بالقصير وإن كانت قد أخذت ترتسم ملامحه بقوة "منذ انتهاء دكتاتورية الجنرال بريمو دى ريفيرا وإعلان الجمهورية الثانية فى إسبانيا (خلال الثلاثينيات من القرن العشرين) واستمرت آثار ذلك الاتجاه إلى ما بعد الحرب الأهلية" (١٦).

لم تكن الأمور سهلة أمام الكتاب الذين قرروا البقاء فى إسبانيا، سواء كانوا من الشباب الذين أخذت أعمالهم ترى النور قبل الحرب

الأهلية الإسبانية بقليل (سواء انضم أحدهم إلى هذا المعسكر أو ذاك من المتناحرين)، كما بقى فى إسبانيا أيضًا المخضرمون ممن ينسبون إلى "جيل الـ ٢٧" وإلى "جيل الـ ٩٨" فها هو أثورين يعود من منفاه عام ١٩٣٩ ويواصل إبداعه وتنشر كتبه الواحد تلو الآخر ومنها عدد من القصص تضاربت آراء النقاد حول قيمتها الفنية ، وهو ها باروخا الروائى الإسبانى ، الذى كان تأثيره على الأجيال الإسبانية الجديدة أكثر من أثورين ، فكان كعبة يقصدها الكثيرون من شباب المبدعين إذ أخذ يبث على مسامعهم أفكاره عن السرد الروائى وينشرها فى كتب .

كانت الواقعية تعود من جديد إلى الأدب الإسبانى "فما زلت أعتقد أن الرواية هى مرآة الواقع سواء كان جميلاً أو قذراً" هذا ما يراه كاميلو خوسيه وهو أحد أبرز الروائيين الإسبان خلال فترة ما بعد الحرب الأهلية الإسبانية (١٧).

وفى إطار الواقعية يلاحظ أيوجينيودى نورا Eugenio de Nora وجود أكثر من اتجاه: أحدها يقوم على إحداث تحديد شكلى على الواقعية وطرح إشكالية ثقافية أو أخلاقية تسيطر على العمل القصصى. أما ثانيها فهو ما يمكن أن يطلق عليه "القصة المحضة" أى ذلك الذى يعتمد على الواقعية التقليدية فى كتابة الأعمال السردية.

فى هذا الإطار يمكن أن نلمح أحد روافد الواقعية فيما أطلق عليه النقاد آنذاك مقولة Tremendismo وهو كلاشيه يعنى التركيز على الواقع، وخاصة الجانب العنيف منه، أو الإصرار على تقديم الجانب المنفر والمرير على الساحة الإسبانية خلال الأربعينيات ، كان رفائيل باثكيث ثامورا Rafae Vazquez Zamora هو الذى أطلق ذلك المصطلح ؛

غير أنه لم يكن الوحيد ، فقد استخدم النقاد مصطلحات أخرى مثل الطبيعية (تأثراً بإميل زولا) و "الواقعية الجديدة" (١٨).

وأول من ألقى بحجر فى البركة الراكدة – ليحرك الماء فيها – كان كاميلو خوسيه ثيلا ، فرغم أنه ابن النظام الجديد إلا أن قصته الشهيرة " عائلة باسكوال دوراتى" (١٩٤٢) مُنعت من النشر فى إسبانيا ، فقد رأت بعض الاتجاهات النقدية المحافظة أن الرواية تمثل هذا الرافد الجديد من الواقعية وليس ذلك إلا تعبيراً عن وجود أعداء للدين وللنظام الجديد.

وعلى أية حال فرغم الغرابة فى تسجيل هذا الجانب من الواقع، وخاصة لدى شعب عانى من ويلات حرب أهلية استمرت ثلاثة أعوام وعانى الجوع ونقص الأموال والثمرات خلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها – بسبب موقف النظام الجديد من المتناحرين فيها – فإنه يعتبر إرهاصة على ضرورة إحداث تحول فى النظام القائم وفتح الباب أمام المزيد من مساحات الحرية.

وتعتبر رواية Nada (لا شيء) لكارمن لافوريت التى نشرت عام ١٩٤٥ علامة تحول أخرى للخروج من الركود، والتوجه نحو نقد سلبيات المجتمع الجديد، أى أن الظاهرة البارزة فى الإنتاج السردى (الرواية أو القصة القصيرة) تتمثل فى الابتعاد عن الإشارة المباشرة للحرب الأهلية أو بمعنى أصح البعد عن المعالجة السياسية والأيديولوجية وتسليط الأضواء بطريقة غير مباشرة على آثارها التى عانت منها كافة فئات المجتمع وخاصة فئة المطحونين.

هناك رافد آخر من روافد الواقعية يطلق عليه كلاشيه الواقع Anecdotico بمعنى الطريف أو رافد الهروب وكأنه محاولة

لنسيان ما حدث فالحب هو البطل الرئيسى فى معظم الأحداث فيه، وهو حب من نوع خاص، يتمسك بالقيم والأخلاق المسيحية.

إنها مسميات وكلاشيهات أطلقت فى عالم الرواية والقصة القصيرة وهى تشبه إلى حد كبير مصطلحات مثل Poesia arraigada الشعر الذى يضرب بجذوره فى الأرض بمعنى أنه عند وقوع كارثة الحرب الأهلية كان موقف بعض الشعراء هو التسليم بقضاء الله وقدره وأن هناك حكمة إلهية وراء ذلك؛ هذا الفريق هو الذى أطلق عليه المصطلح المشار إليه ، أما الفريق الثانى الذى كانت تساؤلاته الوجودية صريحة وقوية فقد أطلق عليه . Poesia desarraigada

- ٦ -

خلال النصف الثانى من عقد الأربعينيات نشهد على الساحة الأدبية (الرواية والقصة القصيرة) ظهور مجموعة من المبدعين الجدد نذكر منهم : كارمن مارتن جايتى C.M. Gaite (١٩٢٥) ولاورو أولمو L. Olomo (١٩٢١) وخيوس فرنانديث سانتوس J. F. Santos (١٩٢٦) وألفونسو ساسترى A. Sastre (١٩٢٦) ورفائيل سانشيث فيرلوسيو R.S. Ferlosio (١٩٢٨) وأنا ماريا ماتوتى A.M. Matute (١٩٢٦) ... الخ أطلق النقاد على هؤلاء الكتاب تعبير أطفال الحرب، بمعنى أنهم كانوا صبية صغارا عندما اشتعل أوار الحرب الأهلية الإسبانية ، لم يشاركوا فيها بل عاشوا مآسيها والمتاعب التى تمخضت عنها من فقدان للأهل والترحال من مكان لآخر، وشهدوا الدمار الذى انتشر فى أنحاء البلاد،

وعاشوا الحرمان والجوع ولمسوا قلة الحريات وضعف الاتصال بالعالم الخارجى، على كافة المستويات وخاصة الاقتصادية والسياسية. .. هناك نوع من المعايشة لظروف متشابهة، فهم جميعًا يواجهون مشكلة شعبهم وبالتالى تركزت موضوعات الإنتاج القصصى للبعض منهم على معالجة الرتابة اليومية والبحث عن الجذور العميقة لها، ومنهم من جعل نصب عينيه الدفاع عن المطحونين بتصوير أوضاعهم سواء من منظور أيديولوجى – وهذا على استحياء – أو من منظور اجتماعى ، ومنهم من تناول الإشكاليات الاجتماعية المطروحة من منظور فردى .

وقد ظل مصطلح "الواقعية" خلال الخمسينيات هو المسيطر على الساحة النقدية ترافقه عدة كلاشيهات أخرى هى "الواقعية النقدية" (١٩) أو "الواقعية الجديدة" بمعنى استخدام الأطر والقوالب التقليدية للواقعية الموروثة، كمدرسة أدبية، وملء هذا القالب بمضمون جديد يتناول مشاكل الإسبانى وهمومه الآنية سواء المتعلقة بمحيطه الاجتماعى الكبير أم الصغير، فليس ذلك زمان سرد الطرائف بل الاقتراب من الواقع القائم والمعاش الذى يلمسه المواطن العادى ، كما أن على الكاتب ألا يمكث فى برجه العاجى بعيداً عما يدور حوله.

وفى إطار الواقعية يلاحظ أن أغلب أحداث تلك الروايات تتسم بالسلبية، فالشخصيات لا تفعل شيئًا أكثر من الحركة، وقد لا تحدث هذه الأخيرة، وعندئذ يقتصر الموقف على مواصلة الوجود فى مكان العمل ولاشىء أكثر. يلاحظ أيضًا الفكرة الجماعية مثل مكان التقاء شخصيات الرواية أو القصة القصيرة، أو أن البطولة ليست فردية بل تتقاسمها شخصيات مختلفة ... الخ .

تلقى الكثير من الكتاب الجدد عدة تأثيرات من الخارج منها فكرة الالتزام عن طريق سارترو والنزعة الانتقادية التى عليها "الجيل الملعون" فى الولايات المتحدة الأمريكية، وتأثيرات الواقعية الجديدة فى إيطاليا وخاصة من خلال الأدباء والأفلام السينمائية ، أما فى فرنسا فقد أخذ البعض يكتب مستخدماً تقنية الموضوعية الفرنسية... (٢٠).

لم تكن القصة القصيرة بمعزل عن التيارات الفكرية والتطورات التى تطرأ على الرواية ومساحات الحرية التى يقتنصها المبدعون فى صراعهم الدائب والمستمر مع قوانين الرقابة ، كما أن الكثير من الكتاب اعتبرها أنسب الأجناس الأدبية لاقتناص اللحظة الآنية وتسجيلها وتكثيف الأضواء عليها ، كما أن التطور جعل القارئ – المفترض – يشعر بضيق الوقت لقراءة الرواية وبالتالى من الأنسب له اللجوء إلى القصة القصيرة .

كثرت الجوائز الأدبية ومنها جائزة ثربانتس (منذ عام ١٩٤٩) التى تعتبر اليوم أرفع الجوائز الأدبية فى إسبانيا ، وهناك جوائز أخرى أقل شهرة منها جائزة **Nadal** ، وجائزة دار النشر الإسبانية **Planeta** (اعتباراً من عام ١٩٥٢) والجائزة المسمّاة "جائزة المكتبة الوجيزة" **Bibli-oteca Breve** (١٩٥٨) التابعة لدار النشر **Seix Barral** .. وهناك جوائز أخرى منها جائزة دون كيشوت (١٩٥١) وجائزة المؤسسة الثقافية "خوان مارس" **J. March** (١٩٥٥) وجائزة سيسامو **Sesamo** ، وجائزة ليوبولدو ألاس ... الخ .

نشرت العديد من المجلات مثل **Estafeta Literaria** ، و **Indice** ، و**Cuadernos Hispanoamericano** و **Insula**... الكثير من الدراسات

النقدية التى تتعلق بالقصة القصيرة، كما كان هذا الجنس أحد الموضوعات الهامة المدرجة على جدول أعمال المؤتمر الجامعى للكتاب الشبان الذى عقد عام ١٩٥٦م .

كما نشر العديد من المجموعات القصصية التى تعكس عناوينها (غير خاف على المتخصصين أهمية العنوان، إلى غيره من العناصر فى بنية القصة القصيرة) ومحتواها الإدانة الاجتماعية، والتصوير المر للواقع الذى عليه معشر الإسبان ، فعلى سبيل المثال نجد ذلك فى مجموعتى "الرجل والآخرون" (١٩٥٣)، و"الزمن الذى مضى" (١٩٥٦) لـ J. Campos خ. كامبوس. ومجموعة "حكاية من منطقة المناجم" (١٩٥٣) لمانويل بيلاريس M. Pilares ، و"حكايات مع شىء من الحب" (١٩٥٤) لميدارد و فرايل M. Fraile ، و"انتظار الدرجة الثالثة" (١٩٥٥) لإيجناثيوا ألديكوا ، و"الرأس الحليق" (١٩٥٨) لخيوس لوبث باتشيكو J. Lopez Pacheco ، وبعض مؤلفات خيوس فرنانديث سانتوس [٢١] .

– ٧ –

كان الاتجاه الذى سارت عليه القصة القصيرة خلال عقد الخمسينيات، وكاد يستغرق عقد الستينيات كله هو الذى أطلق عليه النقاد الواقعية الاجتماعية Realismo Social وأطلق عليه البعض الآخر "الواقعية الاشتراكية .Realismo Socialista" ، ومن الطبيعى أن الفارق بين المصطلحين يرجع فى الأساس إلى الرؤية النقدية لبعض الأعمال الإبداعية ، فتلك التى ترصد الواقع فى لحظة معينة، هى الآن، وفى مكان معين، هو إسبانيا بقراها ومدنها وطوائفها الاجتماعية، من منطلق النقد

الاجتماعي الذى لا تستكن خلفه أية أيديولوجية سياسية يعتمدها الكاتب فى قراءته لذلك الواقع، فالمصطلح الأول "الواقعية الاجتماعية" هو من نصيبها، أما غير ذلك فـ "الواقعية الاشتراكية"، وعلى أية حال فإن الجامع المشترك هو التركيز - نقدياً - على الواقع الاجتماعى وجوانبه الثقافية والاقتصادية وأحقية المرء وجدارته فى العثور على عمل .

غير أن الوصف المباشر للظروف الاجتماعية والاقتصادية فى البلاد أدى إلى انزواء الخيال الإبداعى وبالتالى قلة الثراء الفنى والإبداعى الأمر الذى كان بمثابة نذير للأزمة التى بدأ يدخلها هذا التوجه فى السرد القصصى، رغم ما كان له من أهداف نبيلة ، فى نظرهم، منها الوصول إلى البسطاء من العمال والفلاحين وخلق رأى عام للوقوف ضد نظام الجنرال فرانكو ؛ لم تتحقق تلك الأهداف لأمور كثيرة منها صعوبة وصول هذا الإنتاج إلى أيدى هؤلاء، والتحسن التدريجى الذى طرأ على أوضاعهم الاقتصادية .

هناك عناصر أخرى للتدليل على الأزمة التى يعيشها الأدب فى إسبانيا خلال نهاية عقد الستينيات ، ألا وهو دخول الإنتاج القصصى لكتاب أمريكا اللاتينية إلى الساحة الأدبية مع ما يحمله ذلك من معطيات وتقنيات جديدة، وخيال فنى جامح ، وقد وضح ذلك فى حصول الروائى ماريو بارجاس يوما على جائزة قصصية هامة هى جائزة "المكتبة الوجيزة" لدار النشر **Seix Barral** الأمر الذى يدل على ظهور جمالية جديدة تختلف عن القيم الجمالية السائدة فى إسبانيا، غير أن بوادر تلك الأزمة أو إن شئنا القول إن إرهاصات ضرورة التغيير ظهرت فى بداية الستينيات مع رواية "زمن الصمت" (١٩٦٢) للكاتب لويس مارتين سانتوس ؛ إذ استخدم لغة تتسم بالرقى ووظفها لخدمة حكاية متخيلة

لا تهدف إلى أن تكون وثيقة جزئية وفورية لرصد الواقع، بل كان الغرض منها القيام بشرح واف لشخصية إسبانيا. (٢٢) .

- ٨ -

شهدت نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات دخول أسماء جديدة إلى الساحة الأدبية نذكر منها Aquilino Duque (١٩٣١) أكيلينو دوكى ، ودانييل سويرو Danial Sueiro (١٩٣١) ، وفرانشيسكو أومبرال F. Umbral (١٩٣٥) واسحق مونتيرو Isac Montero (١٩٣٦) ، وريكاردو دومنيتش Ricardo Dmoenech (١٩٣٥) ، وهم أفراد من الجيل الثالث الذى انخرط فى العمل على الساحة الأدبية الإسبانية إلى جانب الجيلين السابقين. (٢٣).

وفى نهاية الستينيات يرصد سانتوس سانث بيانوبيا مجموعة أخرى من الأسماء أطلق عليها جيل عام ١٩٦٨ وتضم القائمة عدداً كبيراً من الروائيين وكتاب القصة القصيرة ، والملاحظ أن الأعمار تتراوح بين عام ١٩٣٨ – تاريخ ميلاد خوسيه ماريا باث دل سوتو J.M.V. del Sato وعام ١٩٥٢ حيث ولد خوان كروث ، ومن بين الأسماء التى تضمها القائمة ما يلى: خوسيه ماريا جيلبنثو (١٩٤٤) ، ولويس ماتيو دييث L.M. Diez (١٩٤٢) وخابيير مارياس J. Marias (١٩٥١) وإدواردو ميندوثا E. Mendoza (١٩٤٣) وألباروبومبو A. Pombo ... الخ. كما أن الكثير منها ورد فى "القصة القصيرة الإسبانية المعاصرة" El Cuento espanol contemporameo (٢٤) وبمجرد التأمل فى فهرست المختارات هذه يتضح لنا إضافة أسماء جديدة مثل أغسطين ثيريثاليس

A. Cerazales (١٩٥٧) وخـابيـر جـارثيـا سـانشـيث J. G. Sanchez. (١٩٩٥)

"لا يشـعـر مـعظم هـؤلاء الكتـاب الجـدد بأنهم ورثة المواجـهـات الأيديولوجـيـة التى كـان عليـهـا الآباء (وهذا عكس مـا حـدث مع جـيل منتصف القرن) وإذا ما كان لنا أن نتحدث عن موقفهم السياسى فإنهم يرفضون العهد الفرنكوى، ويضعون فارقًا بين ما يسمى بالالتزام المدنى والموقف الأدبى" [٢٥] إن مفهوم الالتزام طرأ عليه تغير، فهو ملتزم مدنيًا بالدفاع عن قضايا المظلومين والمحرومين والمهمشين، وهو أيضًا ملتزم نحـو إبداعـه الفنى التـزامًا يدفع به إلى البـحث عن الجديد سـواء فى الموضوعات أو التقنيات أو البعد الأسلوبى ، ويتوافق إنتاج هؤلاء الأدباء – كـمـا سلف القـول – مع ازدهار الدراسـات البنائيـة وشـهـرة بعض المنظرين الفرنسـيين الذين كـانت لهم إسـهامـاتهم فى مـجلة Tel Quel، والازدهار الذى أخـذت تعيشـه الاتجاهات الأدبيـة (السـردية على وجـه الخصـوص) الجديدة فى أمـريكا اللاتينيـة ، كمـا كان ظهورهم مـواكبًا لشىء من الانفراجة مع قانون الصحافة الجديد الشهير "بقانون فراجا" (حيث صدر وقت أن كان فراجا وزيرًا للإعلام) ، واكب ذلك أيضًا المزيد من الانفـتـا ح على العـالم الخـارجى والتـحـسن الواضـح فى الأحـوال المعيشية والاقتصادية فى إسبانيا، كما أخذت ملامح الشيخوخة تعبر عن قوتها فى ملامح النظام الفرنكوى .

كـان هـم هؤلاء الأدباء الاطلاع على آخـر المنجـزات وتحـديث معلومـاتهم والمشاركة فى التوجهات والتيارات العالمية وإعطاء الأولوية لما هو جديد وغريب ورحب الأفق فيمـا يتعلق بمسـاحات الحرية المتاحة والمأمولة من خلال الصراع مع القواعد والقوانين السائدة ، التجريب هو

العنصر المحورى لدى الكثيرين منهم ومن خلاله ندرك السر فى التنوع الشديد، لدرجة التباين فى اتجاهات هؤلاء الأدباء الشبان .

هناك إذن آفاق لتوجهات الرواية والقصة القصيرة، أولها التباعد عن المفاهيم القديمة للسرد القصصى وخاصة فيما يتعلق بالقصة الاجتماعية والواقعية النقدية ، لكن ليس معنى هذا أن الجميع فى هذا الموقف يسيرون على وتيرة واحدة ، فهناك من يقوم بسبر أغوار الذات والشئون الشخصية، وهناك من يتأمل الإبداع الروائى (سواء الرواية أو القصة القصيرة) فى حد ذاته أو ما أطلق عليه مضاد الرواية antinove-la أو Metanovela بمعنى تأمل الإبداع الروائى وإشكالياته ومدى صلته بالواقع المعاش ، نجد أيضًا الاتجاه الواقعى مع إدخال الكثير من التجديدات عليه سواء فيما يتعلق بالقوالب الموروثة أو المحتوى، ومعنى هذا أننا نجد دخول توجهات جديدة منها القصة البوليسية ذات الطبيعة الأدبية ، وقد كان لهذا الرافد صداه خلال الفترة التالية لعهد فرانكو (أى بعد عام ١٩٧٥) وفى دائرته نجد توجهين أساسيين هما : الروايات التى تدخل بكل تفاصيلها فى إطار السرد البوليسى، أما الآخر فهو ذلك الذى يستخدم بعض تقنيات القصة البوليسية. (٢٦).

وفى إطار التوجهات الجديدة للسرد القصصى فى إسبانيا يمكن أن نلاحظ وجود القصة التاريخية سواء كانت الفترة التاريخية التى تتناولها هى الخاصة بالعهد الفرنكوى أو ما قبل ذلك .

وفيما يتعلق بتقنيات السرد ينبغى الإشارة – أولاً – إلى العدد رقم ٤٦٤ من مجلة "إنسولا" Insula (١٩٨٥) حيث نُشر استطلاع هام بين الأدباء حول السرد ، الروائى وفحواه أن معظم الإجابات تشير إلى

وجود روايات جديدة وليست هناك "رواية جديدة" ... الخ [٢٧] لكن إذا لم تكن هناك رواية جديدة فهل هناك تقنيات جديدة؟ الإجابة قد تكون معممة وفيها احتمال للإصابة واحتمال آخر للخطأ وذلك نتيجة قرب الفترة التاريخية التى نحن بصددها، وبالتالى هناك قصر المنظور البانورامى والرؤية الفاحصة التى تغوص فى أعماق لحظة تاريخية بعينها من تطور السرد القصصى ، وعلى أى الأحوال فالحيوية هى أحد المظاهر العامة للسرد الروائى فى إسبانيا خلال فترة الثمانينيات إذ نجدها كثيرة فى عدد المبدعين وكثرة عدد الأعمال الإبداعية ، "كما نعتقد أننا قد توصلنا إلى براهين واضحة لنؤكد أن التقنية القصصية تعتمد أساساً على استعادة التقنيات التقليدية ، وهذه الفترة تعتبر استمراراً وتأكيداً للتقنيات السردية التى أصبحت – من الناحية التاريخية – تتسم بالنمطية" ، [٢٨]. ومن تلك التقنيات : هناك المنظور السردى ووجهة النظر، كما أن القارئ نفسه يتساءل بشأن الراوى : من يروى الحديث؟ وما هى درجة المعلومات المتوفرة له؟ وأين هو؟ وما هو موقع القارئ؟ وأين دور هذا الأخير ، أما العنصر الآخر فى التقنية القصصية فهو الحوار الداخلى "وتيار الوعى" وهذا المسمى الأخير هو الذى يطلقه النقاد اليوم على ذلك النوع من الحوار الداخلى الذى أخذنا نعهده ابتداء من إسهامات جيمس جويس، أى التحليل الذاتى (قيام الشخصية بذلك) من خلال الولوج إلى اللاشعور والاستطرادات الأتوماتيكية والتى لا تخضع لأية رقابة ، وهناك العناية بالأسلوب واللجوء إلى المحسنات واكتساب اللغة عافيتها بعد أن كادت تفقدها مع التوجه السائد خلال الستينيات، ومن التقنيات الموروثة التى لجأت إليها الرواية خلال الثمانينيات نجد "التّناص" **Intertextualidad** أى اللجوء إلى الموروث

الأدبى القريب أو البعيد من خلال الطرائق المعهودة ولكن بشىء من الاعتدال وعدم اللجوء إلى التعقيدات.. الخ.

— ٩ —

وبعد فهذه المختارات تضم أكثر من ثمان وعشرين قصة قصيرة لنفس العدد من المبدعين ، وإذا ما شئنا النظر إليهم من خلال منظور نظرية الأجيال فقد قمنا بترتيبهم على أساس تاريخ الميلاد لكل منهم وبالتالى نجد أمامنا أربعة أو خمسة أجيال : جيل ما قبل الحرب أو جيل الحرب الأهلية (١٩٠٠ – ١٩١٥) ، وجيل الخمسينيات (١٩١٥ – ١٩٣٠) ثم جيل الستينيات (١٩٣٠ – ١٩٤٥)، أو ما يسمى بجيل عام ١٩٦٨ ثم جيل الأدباء الجدد وهم الذين ولدوا من عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٦٠ .. وأخذوا يدخلون إلى الساحة الأدبية اعتباراً من منتصف السبعينيات .

لكن لا يعنى ذلك أننا نعكس الجدلية القائمة فهناك تعايش – كما هو طبيعى – بين أكثر من جيل على الساحة الأدبية ، كما يجب أن نحذر من أنه ليس من الضرورى أن يكون الجيل الجديد هو الذى يضرب المعول الأول لفتح باب التجديد فى فن السرد القصصى، وخير مثال على ذلك هو رواية كاميلو خوسيه مثلاً "عائلة باسكوال دوراتى" (١٩٤٢) وهو كاتب ينسب إلى جيل عام ١٩٣٦! وكان هو أيضًا الذى فتح الباب أمام الواقعية النقدية فى الخمسينيات بروايته "خلية النحل" ثم كانت رواية "زمن الصمت" (١٩٦٢) للويث باتشيكو هى الإرهاصة الأولى لما ستكون

عليه الرواية والقصة القصيرة مع مجموعة الأدباء الذين أطلق عليهم جيل الـ ١٩٦٨ .. إلى غير ذلك من الظواهر والبراهين .

ومن أراد أن ينظر إليها من خلال سيطرة اتجاه معين سواء الواقعية أو الواقعية النقدية أو الواقعية الاجتماعية أو تعدد التوجهات فى الرواية والقصة القصيرة خلال فترة زمنية معينة سواء الأربعينيات أو الخمسينيات أو الستينيات ... الخ ، فسوف يجد مبتغاه، كما قمنا بتقسيم هذه المختارات إلى قسمين: يتناول الأول الفترة التى أطلق عليها فترة ما بعد الحرب الأهلية الإسبانية وحتى رحيل الجنرال فرانكو (١٩٧٥) أما الجزء الثانى فهو يبدأ – نسبيًا – بعد هذه الفترة وينتهى عند بداية العقد الأخير فى القرن العشرين .

الهوامش

(1) Garcia de la Concha, Victor, la poesia espanola (de 1935 a 1975I) I (de la preguerra a los onos ascurras (1935 - 1944) - pag 13(segunda edicion - cotedre Madria 1992 .

(2) Ibid pag 9 .

(3) Sanz Villanueva, Santos ".Historia y Crititica de la literatura" Los nuevas nombres (1975 - 1990) pag 249 editorial critica - Barcelona 1992 .

(4) Cortazar Julio

(5) Garcia de la concha -Ibid pag 9 .

(6) "Que es el cuento" Editioral Columba 83 - Coleccion esquemas - Buenos Aires 1967 - pag:9

(7) Teoria y tecnica del cuento - Ariel - 19 .

(8) Antologia del cuento espanol contemporaneo - edit labor - Barcelona 1964 pags. 19 - 34 .

(9) pag : 13 .

(10) Ultimos Rumbos del cuento espanol - Columba - Buenes Aires 1959 - pag : 9 .

(11) Sanz Villanueva santos. H.de la literatura espanola Ariel -pag : 144 .

(12) Cachero. J.M., H. de la novela espanola pag : 73 .

(13) Cuento espanol de posguerra - Catedra - Madrid 1988 - pags (13 - 14) .

(14) Historia y Ctitica. ob. Cit. pag . 253 .

(15) Angeles Encinan y Antony Percival ·cuento espanol Contemporaneo - Catedra - Madrid 1994 pag: 38 .

(16) S. Villenueva Santos do. cit. pag: 51 .

(17) Cachero J.M. ob. cit. pag: 37 .

(18) Cachero J.M. ob. cit. pag: 37 .

(19) Cachero J.M. ob. cit. pag: 154 .

(20) Sanz Villanueva santos .H. de la literatura ... do cit - pag : 106 .

(21) Fraile M. ob. Cit. pag: 26 .

(22) Sanz, Villanueva, Santos. H. de la novela :ob. cit. pat: 160 .

(23) Fraile Medardo ob. cit .pag: 140 .

(24) do. cit. page 7.8 .

(25) Sanz Villanueva Santos H. critica. ds. cit. pag: 253 .

(26 Sanz Villanueva Santos H. critica. ds. cit. pag: 259 .

(27) De Castro, Isabel y Mentejo, Lucia -Tendencias y procedimientos de la novela espanola actual (1975 - 1988 - Universidad nacianal de educacion a distancia -aula abierta -Madrid 1990 pag: 14 .

(28) Ibid -pag 65 .

***

الجزء الأول

SAMUEL ROS

ساموويل روس

ولد في فلنسية عام ١٩٠٤ – وتوفى فى مدريد عام ١٩٤٤ من بين أعماله : "مختارات" (١٩٢٣ – ١٩٤٤) مدريد ,١٩٤٨ بازار (١٩٢٨) السير للخلف (١٩٣١) حكايات ساخرة (١٩٤٠) مختارات قصصية (١٩٢٨ – ١٩٤٢) .

عمل بالصحافة وكتب القصة والقصة القصيرة وبعض الأعمال المسرحية ، ومن بين رواياته "الأحياء والموتى" عام ١٩٣٧ .

***

باتلس إخوان " شركة محدودة الأسهم "

أنا واحد من الذين يمكنهم التأكيد على أنهم تلقوا رسالة هامة مرة واحدة فى حياتهم على الأقل ، لكن ليس من الممكن أن يتوفر لدى المرء الصبر الكافى للتعليق على هذا الموضوع فى صيغة أدبية جيدة كما يستحقها الموقف .

عندما يبتكر الكاتب موضوعاته يكون سهلاً عليه، وأقول ربما لزامًا عليه، أن يتسلى فى تكوين الشكل ويكمله كصيغة فنية دون إهمال أية تفاصيل ، وعكس هذا يحدث عندما يشعر الكاتب أنه مشدود للأحداث والواقع، فكل شيء يلح عليه، وبالتالى لا يكاد يسرد هذا الذى حدث بشيء من التناسق ، إذن فما يتعلق بجانب الأسلوب لا يكون إلا عبارة عن قناع جميل عندما لا يكون هناك شيء يقوله المرء، أو يخترع أكذوبة حتى يمكن من خلالها قول شيء . وعندما تحدث أمور مثل التى سأحكيها فلا مناص من عدم الالتزام بالأسلوبية .

الرسالة التى تلقيتها كان نصها التالى :

" سيدى المحترم / علمنا نبأ المصيبة التى حلت بكم، وإنه ليشرفنا أن نتوجه لسيادتكم بعرض نحن على ثقة فى أنه سيحوز رضاكم .

بعد الاطلاع على ملفاتنا، يطيب لنا أن نحيطكم علمًا بأنه بإمكاننا أن نقدم لكم، فى ظل أفضل الشروط، فتاة مماثلة لتلك التى فقدتها سيادتك قبل الزفاف بليلة واحدة .

وإذا ما حاز اقتراحنا اهتمامك فإننا سوف نرسل لك، بناء على تعليماتك، أحد مندوبينا لتوضيح المزيد من التفاصيل، أو يمكن لسيادتك، إذا ما رغبت، التفضل بزيارتنا فى مقرنا حيث ستجد كافة الضمانات وقائمة كاملة بأسماء عملائنا الذين يمكن أن يؤكدوا لكم أهليتنا التجارية كشركة.

وإذ نحن فى انتظار الرد، نؤكد لكم أننا رهن إشارتكم ، وتلقوا أطيب تحيات الأصدقاء الذين يشدون على يديكم".

باتلس إخوان : شركة محدودة الأسهم

وكما يمكن الافتراض فإننى ذهبت فوراً إلى العنوان الكائن على طرف الرسالة وقلبى يدق من الفضول، وأى امرئ قد مر بظروف فقدان إنسان عزيز عليه سوف يدرك جيداً السر فى أننى لم أتوقف متأملاً فى إمكانية عرض شركة باتلس إخوان - ش.م. فرغبتى الوحيدة هى أن أعود لأعيش الساعات السعيدة لفترة خطوبتى حتى النهاية التى لا مناص منها.

شركة باتلس إخوان كان مقرها فى أحد الأبنية الكائنة بميدان القديس بمدينة برشلونة بجوار محلات متخصصة فى بيع العديد من المنتجات.

لاحظت منذ أول وهلة أن المبنى المكون من طابق أرضى ينقسم إلى شقتين كان مخصصاً بأكمله لنفس الهدف العجيب الذى حملنى إلى هناك ، ترى العين فى كل مكان خزائن فهارس قديمة وحديثة وعدداً هائلاً من قصاصات الصحف.

وفى النهاية ، وبعد طول انتظار، ذهبوا بى إلى مكتب الإخوة باتلس: المكتب عبارة عن صالون واسع غير متناسق، هناك زوج من المكاتب المتماثلة وصورتان مكبّرتان فوق كل واحد، يوجد كرسيان من الكراسى الهزازة ذات القاعدة الخيزرانية وهذا دلالة على أقصى درجات الراحة فى الإقليم الشرقى المطل على البحر الأبيض، بالإضافة إلى الفهارس الكبيرة والقديمة التى تكاد تنفجر من كثرة ما بها ، وكذا عدد هائل من قصاصات الصحف.

الصور المكبرة كانت عبارة عن رجلين متشابهين إلى حد كبير، كل منهما له، لحية لكنهما مختلفتا الأطوال .

قدمت نفسى بتقديم الرسالة التى بعثوا بها إلى، وبعد أن دعونى إلى الجلوس على أحد الكراسى الهزازة أخذ الأخ الأصغر سنًا يعرض مقترحاته، بينما الآخر يقوم بالتأكيد على كل ما يقوله أخوه بإيماءة برأسه :

أسس هذا البيت ، يا سيدى ، جدنا – أشار إلى الصورة المعلقة فوق مكتب الآخر – الذى كان له شرف اكتشاف العلاج الفعال لأشد الآلام الإنسانية : وهو الألم الناجم عن موت عزيز على الإنسان ، إنها أجمل الأفكار الإنسانية يا سيد ! أعتذر لك يا سيدى عن هذا الإطناب الذى لا يهدف إلا إلى أن يبين لك بوضوح شديد أن مصيبتك لها علاج، وذلك العلاج موجود بالتحديد فى أيدينا .

طلبت ذلك منه وأنا منفعل – واصل يا سيدى من فضلك – أعرف أننى جئت إلى هنا ينتابنى شىء من خيبة الأمل .

رد علىَّ الأخ الأكبر : هذا طبيعى ، وهذا ما يحدث للجميع .

سألنى الأخ الأكثر شبابًا : لكنك بدأت يا سيدى فى الثقة بنا أليس كذلك؟ نعم أكدت الردّ بثقة ، لا تدخر جهداً فى الإفصاح عن كل تفاصيل هدف هذه الدار.

كما قلت مسبقًا فإن جدنا، الذى تتأمل سيادتك صورته هناك – عاد للإشارة إلى الصورة من جديد – كان ذات يوم فى كازينو مانريسا – وهو من مواليد هذه القرية – وقام بمراهنة صديق له مراهنة غريبة، وهو الذى كان شريكًا أيضًا فى هذا الكازينو ... لا تستغرب ولا تفقد صبرك...! فسرعان ما تكتشف أننى أتحدث عن أصل مؤسستنا ... لم يعش الناس دومًا فى حالة اللامبالاة الحالية، والواقع أن جدنا لأسباب

ليس لها علاقة بموضوعنا كما أنها تستغرق وقتًا طويلاً... أقول إن جدنا راهن كما قلت لك صديقه بأنه قادر على أن يجد أنفين متماثلين تمامًا في هذا العالم وأنه ملزم بأن يقدم الأنف المماثلة لأى أنف يحدده الصديق ، وتم الاتفاق على أن الأنف الذى اختاره هو أنف رئيس الملهى فى قرية مانريسا.

سألت بلهفة : هل فاز جدك بالرهان؟

– تمامًا يا سيدى ، لقد فاز جدى بعد مرور أربع سنوات وقبل أن تنقضى المهلة المحددة بعام كامل ، وفاز بالرهان بعد إجراء كافة الاختبارات المتعلقة بالطول والاتساع وكان آخرها هو القالب، ذلك البرهان الذى لا يدحض... ذلك الرهان جعل هذا الرجل العظيم يبدع نظريته عن وجود مثيل للمرء... الصعوبة كانت ببساطة فى التنظيم التجارى للاستفادة الاقتصادية، أى فى فهرسة كافة البشر والبحث عن توأم لكل. وهذه مهمة بدأها كما قلت لك جدنا وسار عليها والدنا وأخيراً تتوجت بالنجاح فى عهدنا.

– هل كان العمل شاقًا؟ لاحظت ذلك.

– نعم، لكن لا شىء يصعب أمام الإرادة، هذا هو شعارنا التجارى ، بالإضافة إلى ذلك الآخر الذى يقول " كل شىء أسهل مما يبدو" ذلك أنه فى ذلك الرهان السعيد الذى كان نقطة البداية فى هذه الشركة حدث شىء هام يفسره.

– وكان؟

– كان أن جدنا بعد أن طاف بنصف الدنيا فى رحلة البحث عن الأنف المماثل لأنف السيد الرئيس عثر عليه فى نفس الدار التى بها ذلك الرجل ولم يكن أنفًا آخر غير أنف زوجته.

– قلت متعجبًا : هذا غير معقول .

– هذا صحيح يا سيدى ، إذ قام جدنا ببيع أنوال النسيج التى اشتراها من مانشستر وأسس بثمنها، وبما فاز به فى الرهان، هذه الشركة التى نديرها حاليًا.

– فى جوهر الأمر – سمحت لنفسى بالكلام – هذا شىء شبيه بالممثل القرين، وهى التقنية التى يستخدمها الأمريكان فى السينما.

– لكنها أكثر كمالا يا سيدى . فهذه الدار لا تعنى فقط بالشبه الجسدى بل تتجاوزه إلى الشبه الأخلاقى بين البشر، إذا ما كان ذلك ممكنًا، ومن جهة أخرى فإننا أصحاب الفكرة من الناحية التاريخية، وإذا ما كان من الممكن الحصول على براءات الاختراع فى بعض الأمور فإن شركتنا هى الأجدر بأن تقدم خدماتها لأمريكا.

وفجأة فتح الأخ الأكبر أحد أدراج مكتبه والتقط منه صورة وقذف بها إلى مصحوبة بسؤال كأنه طلقة مسدس :

– من هذه ... قل !

– إنها إليسا ... عزيزتى إليسا ... خطيبتى التى فقدتها ... المرأة الطيبة.

– ها ! ... هذه الفتاة ليست إليسا، لكن يمكن أن تكون كذلك إذا ما أردت سيادتك .

– فقلت ملحًا : أتقول إنها ليست إليسا ؟ ... أليست هى ؟!

– لا ليست هى، ها أنت يا سيدى تكتشف عظمة عملنا وجلال فكرة جدنا التى شجعته على أن يؤسس هذه الدار... هذه الفتاة التى يمكن أن تراها، والتى هي صورة طبق الأصل من إليسا، تعيش فى كندا، وفوق هذا فإن طبعها أكثر شبهًا من الوجه الذى يماثل تلك التى عشقتها سيادتك... هذه الفتاة يمكن أن تكون زوجتك إذا ما رغبت وأمكننا التوصل إلى اتفاق .

– طلبت بجفاء ، كم؟

– تكلفك حتى ميناء برشلونة – بكافة التكاليف – حوالى ستة وثمانين ألف بزيتة .

– فجرؤت على إثارة الأمر ، لكن ... ومشكلة اللغة؟

– تكلفة اللغة تختلف يا سيدى رغم أنه يمكننا أن نتولى تعليمها التحدث بالإسبانية بطلاقة وذلك مقابل مبلغ إضافى نتفق عليه فيما بعد ، وإذا ما كانت السيدة إليسا الحقيقية قد توفيت فإن السعر سوف يرتفع كثيرًا ، وتخصص هذه الدار هو تحقيق المستحيل .

وقعت شيكًا فى الحال وأخذت نسخة من صورة إليسا الجديدة التى قدمّاها لى ، ومما قصَصتُ فإننى تزوجت منذ عشر سنوات وعندى ثلاثة أبناء كلهم حيوية: صبى وفتاتان ، ورغم أننى قد لا أعرف كيف ستكون إليسا الحقيقية اليوم ، فإننى متأكد أن زوجتى مثلها ، وقد أظهرت لى السنون أن الأمر ليس بالصعوبة التى تصورتها فيما يتعلق بالتشابه بين امرأتين ، والأكثر من هذا صعوبة ربما كان ما واجهه الإخوة باتلس فى العثور على أنف مماثل لأنف رئيس النادى الثقافى

والترفيهى بقرية مانريسا، والذى انتهى بأن وجد الأنف المماثل لأنف السيد الرئيس .

أما فيما يتعلق بالمبلغ الذى دفعته مقابل زوجتى ، فإننى غير نادم ، ولزامًا علّى الاعتراف ، دحضًا لأية تحفظات، بأننى أعتبر ذلك أفضل عملية تجارية فى حياتى ، وإذا ما تم التدبر فى أن يبقى حمواى المجهولان فى كندا ذلك البلد البعيد، فإننى أرى أن هذه العملية لن تكون مثار انتقاد أى إنسان .

***

لم أكن لأتذكر هذه الواقعة من حياتى التى قصصتها عليكم لولا الزيارة غير المنتظرة التى كانت هذا المساء ، وبالطبع فكما توقعتم حضراتكم كانت الزيارة من قبل الآخرين باتلس ش.م. ... وهما اللذان لم أرهما منذ تلك الفترة الطويلة التى تاهت فى الذاكرة ، فبينما كنا، كأسرة ، نتناول وجبة خفيفة بعد وجبة الغداء جاء الخادم وأعلن عن وصولهما ، وانتابتنى الحيرة للحظة، من هما هذان؟ دخلت الصالون الذى ينتظراننى فيه واستمعت إليهما فى صمت ، الإخوة باتلس (آه)! فقدا الرمز الخاص بالشركة ش. م. والذى كان مثار فخرهما وشهرة لقبهما ، مساكين لقد أفلسا تمامًا وقد اعترفا بذلك بكل صراحة منذ بداية الحوار طالبين منى أن أقرضهما مبلغًا كبيرًا من المال ليبدآ عملاً جديداً، وبكل اهتمام سألتهما عن أسباب إفلاسهما التى أعجز عن فهمها؛ واعترفا لى بالأسباب بصراحة ووضوح، والاعتراف يصدر دومًا عن الأخ الأصغر.

– فى البداية ، أخذ يقول : نجحنا نجاحًا كبيرًا وحالة سيادتك تؤكد ذلك، لكن بمرور الوقت اتضح لنا أن جدنا المسكين لم يكن أبدًا على حق، بل كان حالمًا... كان مخطئًا فى تقديره للأسف ، فالمبدأ كان غير حقيقى وهو كيفية طرح المشكلة الإنسانية التى أراد إيجاد حل لها.

– أسأل : كيف ذلك؟ أين كان موضع الخطأ فى هذه الفكرة الجميلة؟

– الخطأ يا سيدى هو فى الاعتقاد أن البشرية تريد أن تباعد عن نفسها آلام الفقدان ، لا يمكن للبشرية أن تستغنى عن إحدى صفاتها وهى تلك المتمثلة فى البكاء على فقدان الأعزاء ، خاصة إذا كان فقدانًا لا يعوض ، وهذه هى أكثر الصفات التى يعشقها الإنسان – إلا أننا – أقول معترضًا : لسنا جميعًا سواء، لا يمكننى القول بأننى استثناء دون الناس جميعًا ... وحضراتكم اعترفتم بالنجاح .

– نعم، لكن هذا النجاح استمر لوقت قصير، فلم نلبث أن اكتشفنا بعض الأمور غير المفهومة ظاهريًا ، فعلى سبيل المثال عرفنا أن بعض الرجال الذين فقدوا زوجاتهم رفضوا أن يدفعوا لنا مبلغ خمسمائة بيزتة مقابل نساء مماثلات تمامًا لزوجاتهم اللائى توفين.

كانوا شديدى الإحساس بالتعاسة وبأهمية قيامهم بوضع الزهور علي قبور زوجاتهم...! وفوق هذا بدأت تنهال ضدنا البلاغات ، ذلك أنه لم يجِد لأى من زبائننا أن ما "أرسلنا" له به مماثلاً للشخص الذى فقده ، ولم يجِد احتجاجنا عندما أخذنا نؤكد لهم أن الزمن يغير الناس، وأن من فقدوهم ليس من الممكن أن يظلوا على نفس الصورة التى ثبتت فى الذاكرة... ويمكن أن أؤكد لسيادتك أن أحد الأزواج وصل به الأمر إلى

رفع دعوى قضائية ضدنا أمام المحاكم يطالب فيها بتعويض ضخم عما لحق به من أذى وأضرار.

- ماذا يمكن أن يكون قد حدث لذلك الرجل حتى يتخذ موقفًا كهذا؟

- ما هو طبيعى ... لكنه لم يشأ أن يفهم ذلك... هذا الرجل خانته زوجته التى "أرسلناها" له ، أما هو فكان يجزم بأنه لو كانت الأخرى التى فقدها لما خانته على الإطلاق.. ورغم أن ما أقول يبدو أكذوبة فلم تُجدِ أى وسيلة إنسانية لإقناعه بعكس ذلك وكان علينا أن ندفع التعويض... كيف يتأتى لأى إنسان ، وهو حى ، أن يكون بمنأى عن ارتكاب هذا الذى يسميه الناس سيِّئة ، وكثيراً ما يتضح أنها ليست كذلك ، أحاول مواساتهما معربًا لهما بأننى سعيد ، وأعترف أمامهما أن ما بى من سعادة يرجع إلى شركتهم ، وفى البداية والنهاية يمكن لجدهم المسكين أن يكون راضيًا عما فعل، فرغم كل شىء فهناك كسب وذلك بفضل فكرته الجميلة فى إيجاد علاج لتعاسة إنسان ، تعاستى .

ولما كنت دومًا لا أفعل شيئًا إلا بعد استشارة زوجتى ، فإننى تركت الإخوة باتلس جالسين فى الصالون للحظة لأطلعها على طلبهما بغية أن يبدأ حياتهما من جديد .

رسمت لإليسا الكارثة التى حلت بالأخوين وأذكرها بصوت فيه شجن بما نحن فيه وما نحن مدينون لهما بسعادتنا الحالية وأبنائنا ، لكن ... امرأتى متشبثة برأيها ولها أفكارها الخاصة بإدارة المنزل والتى لا يمكن أن أغيرها .

ذهبت كل حججى سدى ، وليس هذا فحسب بل كانت مثار تأنيبها لى - حسب العادة - ولطبعى ، وحسب رأى إليسا فأنا لست إلا مبذراً، ورجلاً غير قادر على مواجهة الحياة وعلى استعداد أن أدفع مبلغ مائة مقابل شيء يدفع فيه الآخرون واحداً فقط ، المسكينة طيبة معى وتحبنى بشدة، وتعتقد أن قلبى ضعيف يحركه أى إنسان قليل الحياء وأن مهمتها فى الحياة هى حمايتى .

أعود مهزوماً إلى جوار الإخوة باتلس ، وأعتذر لهما بكل ما أمكننى ، كانت حالتهما مثيرة للشفقة لدرجة أننى لم أجد مغبة فى أن أعطيهما كل ما فى حافظة نقودى ، ولأعوضهما بعض الشيء عن عونى المادى الضعيف ، أخذت أسألهما عن العمل الجديد الذى يعتزمان القيام به .

بدا أنهما لم يتأثرا كثيراً برفض الإسهام بشيء فى رأسمال الشركة الجديدة ، وكان هذا عكس ما توقعت ، وعرفت أنهما تحدثا فيما بينهما أثناء غيبتى لاستشارة زوجتى عن الأمل فى أن تضاف الأحرف ش.م إلى اسم الشركة فهذا كان قمة أملهما كأنهما طفلان .

وعندما سألتهما عن طبيعة العمل الجديد الذى يفكران فى عرضه علّى ، نظر كل منهما للآخر وقد شعرا بالرضا وأجابا علّى فى وقت واحد بصوت واثق ومقتنع .

- " مواكب جنائزية" يا سيدى .

GAMILO JOSE GELA

كاميلو خوسيه ثيلا

ولد عام ١٩١٦ وهو أحد أشهر القصاصين الإسبان المعاصرين ، تأكدت شهرته وازدادت انتشاراً بحصوله مؤخراً على جائزة نوبل فى الآداب ، ويعتبر بالفعل أحد أبرز الكتاب الإسبان المعاصرين فى رسم طريق الإنتاج القصصى فى إسبانيا خلال الأربعينيات والخمسينيات ، وما ترجمناه له هو إحدى قصصه القصيرة .

له العديد من الروايات الشهيرة مثل "عائلة باسكوال دوراتى"، "خلية النحل"، "رحلة إلى القرية" ... ألخ .

أما أهم مجموعاته القصصية فهى :

١ – الجليقى وفريقه وبعض الملاحظات المدونة عن بينونيا

Ricardo Aguilera - Madrid 1949 - Mesa Redonda.

٢ – "هذه السحب التى تمضى" (١٩٤٥) .

٣ – "جريمة الشرطى الجميلة وابتكارات أخرى" (١٩٤٧) .

٤ – "البرتقال فاكهة الشتاء" (١٩٥١) .

٥ – "صفحاتى المفضلة" (١٩٥٦) .

٦ – "حكايات من إسبانيا" (١٩٥٧) .

٧ – القديسة بالبينا ٣٧ غاز فى كل منزل (١٩٥٢) .

٨ – "طواحين الهواء وقصص قصيرة أخرى" (١٩٥٦) .

٩ - "عجلة التسالى" (١٩٦٢) .

١٠ - "أسرة البطل" (١٩٦٥) .

١١ - "سرب الحمام" (١٩٧٠) .

١٢ - "لا مانشأ فى القلب والعين وقصص أخرى" (١٩٧١) .

١٣ - "مقهى الفنانين وحكايات أخرى" (١٩٦٩) .

١٤ - "قصص قصيرة وحكايات" (١٩٧٥) ... الخ .

***

الجليقى وفريقه

فى محافظة طليطلة ، وفى شهر أغسطس يمكن للمرء أن يقوم بشواء شرائح اللحم على الأحجار المتناثرة فى الحقول أو فوق الكتل الحجرية الكائنة فى أرض شوارع القرى .

يقع الميدان فى منحدر، وفى وسطه هناك شجرة وواجهة! تسد السيارات أحد جوانب الميدان ، أما الجانب الآخر فتسده حواجز ، الجو حار والناس تنزوى منه ما أمكنها، وعلى جنود الشرطة أن يقوموا بإنزال الفتيان من على الأشجار ومن فوق الواجهة، إنها الخامسة والنصف مساء وسوف تبدأ فوراً مباراة مصارعة الثيران وسوف يقوم الجليقى بقتل الثور الشاب [١] بطعنة واحدة [٢] بسن سيفه وسيكون الثور من مزرعة السيد لويس جونثاليث من مدينة ثيودار ريال .

لون الجليقى أبيض مثل الجير، وسيخرج إلى حلبة المصارعة من خلال باب صغير مجاور لباب حظيرة الثيران المتاخمة للحلبة ، نظر مساعدوه الثلاثة إلى الأرض فى صمت ، يصل العمدة إلى الشرفة المخصصة للبلدية ، وعندما يراه قائد الحرس يقترب من مصارعى الثيران .

– عليكم بالخروج .

لا توجد موسيقى فى ساحة مصارعة الثيران ، والمصارعون الذين لا يرتدون حلتهم الحريرية المخصصة للمصارعة سيخلعون سُتراتهم

(١) الثور الشاب يطلقون عليه Navillo وهو ثور مدرّب يبلغ من العمر ثلاث سنوات .

(٢) بمعنى أن يقوم المصارع بغرس السيف فى صدر الثور.

ويخرجون إلى الحلبة ، يتقدم صف المصارعين ثلاثة: الجليقى والشيتشا، وكاسكرو ، وخلفهم ظهر خيسوس مارتين من مدينة شيقوبيا.

وبعد الجولة الاستعراضية فى الحلبة يطلب الجليقى الإذن من العمدة ويخلع سُترته، إذ يستطيع أن يصارع بشكل أفضل وهو مرتدياً القميص فقط، رغم أن القميص قد يكون مخططاً (أزرق وأبيض) كأنه قميص بحّار.

أما المصارع الملقب بالشيتشا فاسمه أدولفو الرب ، ويسمونه أيضاً أدولف، يقول مظهره إنه يبلغ من العمر أربعين عاماً، به بعض الحَوَل وبعض السمنة لكنه ليس فارع الطول ، أمضى سنوات عديدة ينتقل من حلبة إلى أخرى بين عدة قرى ، وذات مرة، قبل الحرب، ضربه الثور بقرنه فى قرية كويادو ميديانو، لكنها كانت معجزة أن أحشاءه لم تخرج من بطنه بسبب هذه الضربة ، ومنذ ذلك الحين يتوخّى الحذر.

المصارع كاسكرو هو من أبناء قرية شابينيريا من أعمال محافظة مدريد واسمه / فالنتين ثيبوبيدا ، ظل فترة فى سجن مدينة سبتة بسبب أمور حدثت، وخرج من السجن يضع على صدره وشماً عبارة عن صورة آنسة تحتل مساحة صدره، وهى تقوم بتصفيف شعرها الطويل، وتحت الصورة عبارة تقول: لوليتا جارثيا أجمل امرأة فى المغرب - تحيا إسبانيا.

كاسكرو رجل صغير الحجم، صلب وعلى معرفة دقيقة بهذه المهنة ، وعندمايقوم الثور الماكر (٣) بالمضايقات واستخدام قوته أكثر مما ينبغى

(٣) هو نوع من ثيران المصارعة يتسم بالمكر والدهاء والعنف .

يتبعه ويقوم دومًا بخداعه ، مغيرًا موقعه حتى يستطيع فى النهاية أن يخدع الثور ويجعله يصطدم بحائط الحلبة أو الساتر الخشبى أو بأى شىء آخر.

– كان يقول : بهذه الطريقة يتم تطويعه.

خيسوس مارتين، هو من شيقوبيا، مصارع مهمته الإجهاز فى النهاية على الثور (٤) طويل القامة ونحيف البدن، وجهه دميم، به ندبة تمتد بطول وجهه وعندما يتكلم يُلاحظ عليه بعض التلعثم .

التشيتشا وكاسكرو وخيسوس مارتين هم دومًا برفقة بعضهم وعندما يصلهم نبأ حصول الجليقى على مباراة، يذهبون ويقدمون أنفسهم له ، الجليقى اسمه كاميلو، وهو اسم شائع بعض الشىء فى موطنه ، وعندما ذهب أعضاء فرقته لرؤيته قالوا له :

– لا تقلق سيادتك يا سيد كاميلو نحن دومًا على استعداد لتلبية ما تأمر به .

التشيتشا وكاسكرو وخيسوس مارتين كانوا يعاملون المصارع باحترام ، ولم يغيروا من عبارتهم "حضرتك" التى يوجهونها له دومًا ، يرتدى الجليقى دومًا رابطة العنق، وعندما كان شابًا، درس فى كلية الصيدلة بضع سنوات .

عندما انتهى المصارعون من استعراضهم، نظر العمدة إلى قائد الحرس ، وهذا نظر بدوره إلى الحراس القائمين على باب حظيرة الثيران وقال :

(٤) يطلقون عليه فى عالم المصارعة Puntillero

– افتح له .

كان من الممكن سماع صوت عصفور يطير، صمت الناس، ومن باب الحظيرة خرج ثور ملون(٥) عجوز، انسيابى الجسم، قرناه طويلان وشبه مستقيمين ، وعندما ظهر الثور فى الحلبة عاد الناس لجلبتهم ، خرج الثور ببطء وهو يشم الأرض كأنه يعاف المصارعة ، أثار فالنتين حماسه من بعيد، فدار الثور دورتين فى الحلبة وهو يجرى كحمار صغير.

قام الجليقى بفك العباءة الحمراء واستخدمها كيفما تمكن فى ثلاثة أو أربعة لقاءات، ارتفع صوت من تحت المظلات قائلاً :

– عليك بالاقتراب من الثور أكثر أيها التعس !

عندئذ اقترب التشيتشا من الجليقى وقال له :

– لا تلق بالاً لذلك يا سيد كاميلو ، وإذا ما أراد فليقترب والده ، ماذا يعرفون هم ؟ هذه هى طريقة المصارعة قديماً ، وهى الفيصل .

ذهب الثور إلى الستار وأخذ يشرب ، نادى رئيس الحرس على الجليقى وعلى أحد مساعديه وقال له :

– حان وقت رشق الثور بالسهام الملونة .

(٥) اللون الأشقر هو الذى يحمل هذه التسمية.

قام التشيتشا وكاسكرو بالمهمة وقد كلفهما ذلك جهداً مضنياً ، قام كل واحد منهما بغرس زوجين من السهام ، كان الثور يقفز فى البداية ثم بعد ذلك يسكن كأن شيئًا لم يكن ، ذهب الجليقى للعمدة وقال له :

– سيدى العمدة مازال الثور به الكثير من القوة ، هل يمكن أن نغرس فيه زوجين آخرين من السهام؟

رأى العمدة عدم موافقة من كانوا يرافقونه فى الشرفة بإيماءة من رؤوسهم .

– اترك الثور هكذا ، حان وقت استخدام السيف واقترب من الثور فلهذا أدفع لك أجرك .

سكت الجليقى ، ذلك أنه يجب أن يتسم المرء بالتواضع الشديد والاحترام إذا ما كان يعمل وسط الجمهور ، أخذ متعلقاته الخاصة بالمصارعة وأعلن تقديم هذه المباراة على شرف العمدة وترك قبعة ذات حوافّ على الأرض بجوار الساتر الخشبى .

تقدم نحو الثور وهو يحمل العباءة فى يده اليسرى ملوحًا بها، لكن الثور لم يتحرك ، وضع العباءة فى يده الأخرى عندئذ تحرك الثور قبل الأوان ، طار الجليقى فى الهواء وقبل أن يتمكنوا من الابتعاد به عاد الثور من جديد وضربه بقرنه فى رقبته ، نهض الجليقى على قدميه وأراد مواصلة المصارعة ، قام بمواجهة الثور ثلاث مرات أخرى، لكن لما كان ينزف دمًا كثيراً قال له قائد الحرس :

– عليك أن تخرج .

قال العمدة ذلك لقائد الحرس، وهذا بعد أن أبلغ الطبيب العمدة ، وعندما عالجه الطبيب قال له الجليقى :

– من أخذ السيف بعدى ؟

– إنه كاسكرو .

– هل قتل الثور؟

– لا، ليس بعد.

وبعد هنيهة قال الطبيب للجليقى :

– أنت محظوظ، كنت ستقضى نحبك لو كانت الضربة نافذة أكثر من ذلك بسنتيمتر واحد ، لم يجب الجليقى ، فى الخارج تسمع جلبة عالية ، على ما يبدو ، لم يكن كاسكروّ محظوظاً .

– هل قتله؟

– ليس بعد.

مرّ وقت طويل والجليقى مضمد العنق ، أطل قليلاً من الشبكة فرأى الثور وهو يقعى على مؤخرته بجوار الساتر الخشبى بلا حراك ، وقد خرج لسانه من فمه وغرست وراء كتفيه ثلاثة سيوف حتى إن مقدمة أحد هذه السيوف قد نفذت قليلاً من الجانب السفلى بين رجليه الأماميتين ، بينما كان يردد أحد أفراد الجمهور أن هذا ليس عدلاً، وهذا ممنوع ، كان وجه كاسكروّ قد علاه الاحمرار ويود لو يزيد من الطعنات الموجهة للثور ، كان هناك ستة من الجنود بالقرب من المدرجات لمنع الناس من النزول إلى الحلبة .

RAFAEL GARCIA SERRANO

رفائيل جارثيا سيرانو

ولد عام ١٩١٧ فى مدينة بمبولونة ، شغل منصب رئيس تحرير جريدة Arriba من بين قصصه "إيوخينيو أو إعلان الربيع" "مشاة الجيش الأمناء"، "عندما ولد الآلهة فى إكستر يمادورا"، "ميدان القلعة"، "الأعين المفقودة" أما مجموعاته القصصية فنبرز منها "ثيران إيبريا" " مساء الأحد".

***

مجــد قــديم

قال صاحب جهاز التسجيل (الماجنيتفون) إن كل شيء جاهز، وعندما سمع خوان دومينجيث عبارة "بالنسبة لى ، تمام" ابتلع بعضًا من لعابه ، وعلى الآلة الكاتبة الموضوعة فى مكتبه - وهو مقر صغير كان يدير منه، منذ زمن، الورشة والمحل - كان أحد زواره يكتب بغير خبرة ، كما أن المسئول عن الآلة الكاتبة أبلغ بأن "ذلك جاهز" ووضع أمام أنف المذيع، الملاحظات التى كتبها بسرعة .

تنحنح خوان دومينجيث بخفة ورأى كيف أن هناك بعض الأولاد يميلون برؤوسهم على زجاج فترينة المحل الكبيرة، والأطفال دومًا هم أفضل من يشم رائحة شيء هام سوف يحدث ، لم يزر صحفيّو مدريد خوان دومينجيث منذ المباراة النهائية للكأس التى تمت قبل الحرب ،

نعم كان يزوره صحفيو المحافظات المتاخمة لمحافظته حيث كانوا يذهبون من حين لآخر ليسألوه : "ما هو رأيك ، فى الفرق بين لاعب الأمس ولاعب اليوم" - "فى نظرك، من هو لاعب كل العصور؟ " و "ما هو أسعد حدث في حياتك الرياضية؟" وكان خوان دومينجيث يجيب وهو شبه نائم : "المزيد من التكنيك، والقليل من الجرأة، المزيد من اللعب الجماعى ، والقليل من الفردية" ، ثامورا ، هو ريكاردوا ثامورال بلا جدال و"ليس فائلة الفريق القومى" بعد ذلك كان يشترى الصحيفة ويقرأها بعناية ثم يقص نص المقابلة الصحفية ليلصقها فى ألبوم ذكرياته، تحولت حياته هناك إلى هواية جمع الفراشات الجافة، بعضها مكسور الأجنحة وبعضها الآخر متآكل، وإلى تلك الرائحة العفنة والهرَم، كل ذلك كان رائحة حياته نفسها .

إنها رائحة متدّينة عجوز أو ربما رائحة الجندية أيام مأساة حرب المغرب ، تَصفَح الألبوم يثير فيه نوعًا من الحزن، فعناوين الصحف المحلية فى البداية وكذا سطورها كانت تتحدث عن "الصاعد الواعد فى منطقتنا" وبعد ذلك أبرزت الصحف المحلية بشكل مثير "دومنجيث الذى يصعد نجمه بقوة" وفجأة فجرت الصحافة الإسبانية كلها ينبوع صفات من التقريظ والمديح تشريفًا لدومنجيث "أس من الفَورَان"، كان الألبوم يحوى قصاصات من بوينس أيرس وفلورنسا ودوبلين وباريس وفيينا وبودابست ومنتيفديو ولشبونة وروما وهامبورج ، بعد ذلك الصمت الطويل بسبب الحرب ، ثم الوصف المرح لتلك المباراة التى لعبها أصدقاؤه، بشكل غير كامل الجدية، وذلك بمناسبة افتتاحه لمحل الأدوات الرياضية، والإعلان الضخم الذى نشره فى الصحف المحلية والذى يظهر

فيه كل من ثامورا، وثيرياكو، وكينكوثيس، ويالاروفا، وجوبيرو، وروبيو، ولاثكانو، وساميتيير، وبيرجارا، وميكيو، وأوسيس، وأوريجا وآخرين غيرهم وهم يوقعون على أتوجرافات لأول زبائن المحل ، كان الأمر مسلياً وكثير الجدوى ، بعد ذلك يضم الألبوم حوالى دستة من الأحاديث الصحفية، حيث يطلب منه فيها رأى "التاجر خوان دومينجيث، المَجْدُ القديم لكرة القدم الإسبانية فى عدد من الموضوعات .

سمع خوان دومنجيث أشياء كثيرة طوال حياته كرياضى، على سبيل المثال فإن رينزى قارنه بالسيد [١]، أما خاثينتو بيكلارينا فكان يطلق عليه"قنصل باراكالدو" وكان هناك صحفى غير مهذب يكتب فى صحيفة من صحف العاصمة مدريد فى موضوعات خاصة بتجارة الرقيق الأبيض، هذا الصحفى عندما كان يشير إليه يقول عنه "القسيس البدائى" "ولاعب منطقة ألتاميرا"، ذلك لأنه عندما تبدأ المباراة فإن خوان دومينجيث يشير بيده بعلامة الصليب على صدره ، وفى أحد الأيام قام أحد أصدقاء اللاعب من شديدى التدين بانتظار ذلك الصحفى ووجه له عدة ضربات كأنها علامة الصليب بعصا، إذ وجه له ضربة فى الجبهة وأخرى فى الفم والثالثة على صدره، ويبدو أنه أتحفه بعد ذلك بعدة ضربات كأنها صلبان دون أن يتوقف لقراءة أسماء القديسين ، ومن المدرجات تأتى الهتافات لخوان دومنجيث ، أو يهتفون باسم آبائه وشجرة العائلة ، كل ذلك بالطبع كان مرتبطاً بمدى رجحان كفة ميزانه ، وفى الحقيقة أن كل الهتافات لم تنفذ إلى أعماق خوان دومنجيث .

(١) عنوان الملحمة الشهيرة واسم بطلها .

– سأل المذيع : جاهزون؟

أعطى دومنجيث إشارة الموافقة، صدرت أصوات عن جهاز التسجيل كأنها أزيز ، رفع المذيع إحدى يديه، فقام من كان يكتب على الآلة الكاتبة بتحريك ذراع التسجيل بمهارة ودقة ، سمعت رنة جرس صغير ، وهي الرنة التي كانت تسعد أيام خوان دومنجيث عندما كان أعزب ، وبدأ المذيع يتحدث بسرعة شديدة كما لو كان ينقل الأحداث التي تسبق مباشرة تسجيل أحد الأهداف :

هذا الذي استمعتم إليه أعزائي المستمعين هو صورة صوتية لمحل الأدوات الرياضية الجميل الذي يملكه خوان دومنجيث المقدام، لاعب خط الهجوم خلال العديد والعديد من الأمسيات المجيدة لكرة القدم الإسبانية ، هذا المحل هو في جامبو تلك المدينة الصناعية المزدهرة واللطيفة، حيث نحن الآن ننقل لكم المباراة التي ستقام هذا المساء بين النادي المحلي ، الذي بدأ فيه خوان دومينجيث أولى مراحل شهرته، وبين نادي ريال مدريد، وهو في الحقيقة النادي الذي قضى فيه خوان دومنيجيث آخر مراحل حياته الكروية الزاهرة ، أيها السادة: في صباح الأحد، وأي أحد ، إنها الساعة السماوية لتناول المشهيات ، مشهيات تشينا، لاتنسوا، مشهيات "تشينا " جئنا لندردش مع خوان دومنجيث في محله المتخصص في الأدوات الرياضية، أي أننا الآن نتحدث معه وهو في جوّه المعتاد، حتى تتمكنوا أيها السادة من الاستماع والاستمتاع بتصريحاته حول مسلسل "الأمجاد القديمة تعيش بيننا" في تسجيل مذاع، أثناء فترة الراحة بين الشوطين، وهذا تقدمه شركة "تشينا" للمشهيات ، لا تنسوا ، مشهيات تشينا ، هي المشهيات التي يتناولها عمالقة الرياضة .

نظر المذيع نحو الصحفى، ثم بعد ذلك نحو الفنى والمضيفين، ثم غمز بعين لدومنجيث، صدرت عن الصحفى إشـــارة صغـيرة تعـنى " ولا حتى الراحلة ماريا جيرّيرو تلك الممثلة الدرامية تستطيع أن تقرأ جيداً نثرى "، أما صاحب جهاز التسجيل "الماجنيتفون" فلأسباب مهنية وأسباب أخرى تتعلق بالمنافسة، كان هاوياً للأفلام الأمريكية وبالتالى صدرت عنه إشارة "أوكى O.K فابتسم دومنجيث بوجه فيه بلاهة ، وأقبل المذيع بأسلوبه الخطابى قائلا :

– محل الأدوات الرياضية الذى يملكه خوان دومينجيث هو محل كبير فى وسطه هناك صندوق زجاجى رائع مضاء، موضوعة فيه الكئوس ، والنياشين التى فاز بها أمس "الغضب الإسبانى" طوال معاركه فى ملاعب كرة القدم فى كافة أنحاء العالم ، يقع المحل فى مكان هام فى وسط المدينة، مكان معروف مثله مثل مشهيّات تشينا ، لا تنسوا مشهيات تشينا ، المشهيات التى يتناولها عمالقة الرياضة ، خوان دومنجيث زاد وزنه بعض الشىء عما كان عليه ، هل تذكرون أيها السادة، أيها المحنكون؟ ، لكنه لا يزال محتفظاً بكل عزمه وإقدامه مثل تلك الأيام البطولية. لم يعش – إلا قليلاً – تلك الأيام الخوالى التى كان اللاعبون فيها يحملون على الأكتاف ويحمل الجمهور الخشبات الثلاث للمرمى، لكنه عاش الأيام التى كانوا يقولون فيها "الضربة الركنية = نصف هدف" والضربات الركنية التى عادة ما تتحول إلى هدف يحققه هذا الرجل بغضبه، والذى يبيع الآن الكرات ومضارب كرة تنس الطاولة، وأجهزة التزحلق على الجليد، والعصى التى تستخدم فى الجبال وغيرها ، لنرى يا خوان دومنجيث ، نود أن تردّ سيادتكم على بعض الأسئلة التى

يتوجه بها إليك هُواة مشهيات تشينا، المشهيات التى يتناولها عمالقة الرياضة وسيادتك تحتل بينهم مركز الشرف؟

- نعم، نعم ...

- ارفع صوتك يا خوان دومنجيث فالميكروفون لا يعض، هه ..

يضحك الجميع كثيراً، يضحك المذيع والصحفى وفنى التسجيل والمستمعون هذا المساء سوف يضحكون أيضاً.

- قال خوان دومنجيث الذى كان قد ضحك أيضًا - نعم سوف أرفع صوتى لكنى غير معتاد على رفع الصوت، أتعرف؟ ...

- لنر ، نسأل خوان دومنجيث : متى بدأت لعب الكرة ؟

- كان ذلك أيام المدرسة ...

(كان خوان دومنجيث يراه جيداً، يرى فناء المدرسة كما لو كان يعيش الآن تلك اللحظة وهو يشوط الكرة المطاطية فى اتجاه صف المراحيض ، كان يعرف أى الأبواب يمكن أن يقاوم ارتطام الكرة وتكمن مهارته بالتحديد فى هذا، أى فى مهارته - أكثر من لعب كرة القدم - فى إصابة الأهداف الخشبية فى الفناء ، كان يخاف من خشونة زملائه وهذا القطيع من اللاعبين الخشنين، وكان يتخلص بسهولة من الكرة، لكنه كان يحب اللعب ، يحب اللعب أكثر من أى شىء آخر، يحبه أكثر من حبه حفظ قائمة الملوك القوط المقررة عليهم فى المدرسة وأكثر من المعادلات والتفاعلات الكيماوية المعقدة والمنطق وعدد الأبناء غير الشرعيين للكاتب المسرحى لوبى دى بيجا ، ولما كان يعشق اللعب أكثر من أى شىء وأكثر أيضًا من البحث عن المغامرات ومحاولة معاكسة

بنات مدرسة "القلب المقدس"، أو قصائد الغزل، كان يشوط الكرة بشكل يجعلها تعود إليه من جديد رغم أنه كان بعيداً على الجانب الآخر، دون أن يضايقه أحد، وكان الزملاء، بما في ذلك الفرق الدراسية الأعلى من فرقته، والبوابون والمدرسون وحتى الناظر الذى كان رياضياً فى إقليم الباسك، كلهم يقولون "يا لمهارة دومينجيث الذى لا تبتعد الكرة عن قدميه" .

– يقول خوان دومنجيث إن البداية كانت فى المدرسة، واصل، واصل، نحن متلهفون لسماع حكايته.

لم يدرك خوان دومنجيث أن فترة صمته كانت طويلة، لكنها كانت كذلك ، أخذ يرمق الصندوق الزجاجي الذى يحوى النياشين ويفكر فى أن الكئوس الجميلة كانت خاوية، وأنها لم "يصبّ" فيها النبيذ أبداً، ربما حدث ذلك ذات مرة بأن "صُبّت" فيها الشمبانيا ، ولا كلمة أخرى ، كانت حياته الخاصة حياة جميلة أيضاً ظاهرياً ، لكنها تعسة وفارغة وقاحلة وباردة وبلا حياة وعفنة من الداخل ، لدرجة أنه يمكن القول إن حياته كانت تحتوى أيضاً على شيء من الفضلات المهملة والعفن، وشيء من الطحالب وبقايا تراب، تماماً كما هو الحال بالنسبة لبعض الكئوس كان يتحدث دون أن يعرف حتى ماهية ما يتحدث عنه ، لكن الأمور لا تسير سيراً سيئاً وهذا ما استشفه من الابتسامة المشجعة والواضحة لكل من الثلاثة الذين يعملون فى الإذاعة.

–... أنا لم أكن أريد الدراسة، فبدلاً من الدراسة كنت ألعب فى ثلاثة فرق فى وقت واحد: أحدها فريق المدرسة، والآخر فريق الشارع الذى أعيش فيه والثالث فريق القرية المجاورة ، كنا صبية تتراوح

أعمارنا بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة ، كانت الفرق يلاعب بعضها البعض من خلال الجرنال : "مجموعة الأسود تلاعب مجموعة ديفر الجيزويت" وذلك على ملاعب ألاميدا يوم الأحد القادم فى الحادية عشرة صباحًا ، تتم المراهنة على أحد عشر ريالاً ، فى حالة الموافقة ترجى الإجابة على ذلك من خلال نفس الصحيفة ، بعد ذلك ازدهرت أحوالى ، كنت ألعب مع فرق، وكان الرهان على إحدى عشرة بيزتة، أو إحدى عشرة وجبة وأحيانًا يكون على أحد عشر سندوتشًا وأحد عشر لترًا من النبيذ ، كان عالمًا مثيرًا للفضول، يمتص المرء ويستهلك كل وقته ، وعندما تكون لدّى فسحة من الوقت ولو ساعة كنت أذهب إلى الملعب لألعب كرة المضرب .

– حسن، حسن، حسن، تستمعون أيها السادة لما يقوله "آس" الغضب، عملاقنا خوان دومنجيث ، إنه يقص عليكم شيئًا من طفولته ويفاعته الرياضية وذلك بفضل ظرف شركة مشهيات تشينا ، المشهيات الخالية من الكحول التى يفضلها الرياضيون ، قل يا خوان دومنجيث، قل لنا من فضلك، ما هو أول فريق قوى لعبت معه؟

– حسن، الجميع يعرفون ..

– ابتسم بتواضع رائع ليصحح ما قال.

– معذرة، كانوا يعرفون ، فأنا الآن عجوز.

– هل حضرتك عجوز؟

– نعم، عجوز. كان أول فريق قوى لعبت معه هو فريق جامبو لكرة القدم ، هو فريق محافظتى ...

(كان يتذكر – وهو يقول عبارات لا معنى لهـا، عبـارات خـاوية لا تقول شيئًا، إذ تحكى مـا سبق قوله مرات ومرات – كان يتذكر أن والده ، فى البداية، قد اقتصر على وصفه بأنه "فظ" ثم تذكر كيف قطع عنه المصروف الهزيل الذى كان يعطيه له يوم الأحد من كل أسبوع، أما إدارة المدرسة فلم تصدر قرارًا بطرده ، ذلك أنه تحول إلى إنسان مُجدٍ وأصبح يجلب شهرة للمدرسة لدرجة أن الصبية كانوا يفضلون الالتحاق بالمدرسة التى فيها دومنجيث وليس بتلك المدارس التى تفتقر إلى لاعبين ممتازين فى خط الهجوم ، كان المعهد الذى هو فيه ينافس بشدة المدارس الأخرى حتى لا تأخذه إدارة المدرسة التى على الجانب الآخر من الشارع ، وبالتالى فإن الآباء القساوسة الذين يقومون بالتدريس ساعدوه كثيرًا، وبفضل توجيهاتهم حصل دومنجيث على الثانوية بسهولة ويسر، لكن كان هناك مدرس عنيد معه، يرتدى عباءة حرية التفكير، لم يُردْ حتى أن يستمع لنصائح القساوسة الطيبين فى جامبو – هذا إذا ما استثنينا الآباء الأغسطيّين الذين كان يشعر نحوهم بعظيم التقدير منذ أيام المصلح الكنسى مارتن لوثر – لكن شاءت الظروف أن يكون هذا الأستاذ، الذى يتسم بحرية التفكير، نباتيًا، ومؤيدًا للأفكار "الفوضوية" ومن أشد أنصار نادى جامبو لكرة القدم، وهكذا فقد أعطى دومنجيث درجة النجاح فى مادته ، وذلك بفضل مهارة اللاعب فى تسجيل الأهداف.

ما زال يسيطر عليه خوف شديد، ويواصل أيضًا التخلص من الكرة بكل ما استطاع وكثيرًا ما كان يصوب على المرمى متعجلاً الموقف، وإذا ما كانت هناك لعبة من اللعب تتطلب استنفاد كافة الوسائل لأدائها بمهارة وجرأة، فإن الخوف كان يواتيه، فلا يستمر فيها : "ذلك

هو أفضل الأمور؛ وهو أن تستطيع أن تشوط الكرة من مختلف الزوايا وفي أى وضع أنت فيه".

كان الناس يرددون هذه العبارة، وفى اليوم الذى قال فيه معلق رياضى – له خبرة بالعلوم الإنسانية لكونه قسيساً سابقًا – إن مدفعية خوان دومنجيث يمكن أن نطلق عليها مقولة أونامونو "أن تشوط أولاً ثم تصوب بعد ذلك" رآها الناس عبارة تنطبق تماماً ، كما أنه كان محظوظاً وسجل العديد من الأهداف ، اشتهر برباطة الجأش وقارنه النقاد بلاعبى إمبوبيس وباللاعب يرمو ، كانت هذه الشهرة مثار شعوره بالرضا وأنها ممتعة وطيبة طوال أيام الأسبوع، فقد وصل به الأمر إلى الاعتقاد بأنه شجاع جداً لكنه يوم الأحد يتصبب عرقًا ، ورغم ذلك كان الحظ حليفه دائمًا ، لم يشأ الالتحاق بالجامعة ووصل الأمر إلى أن والده كان على وشك طرده من المنزل، لكن حال دونه تدخل الأم، وما قام به أعضاء النادى من البحث عن عمل صغير له يدر عليه راتبًا شهريًا قدره ٢٥٠ بيزتة وبالتالى تمكن من البقاء فى المنزل، رغم كل ذلك فإن والده لم يكن يبادله الحديث إلا نادراً ، ثم رويداً رويداً تكونت عنده عقدة منه حتى إنه عندما رأى شهرة ابنه الكبيرة كان يقول: "رغم طبيعتك البلهاء، فأنت إنسان محظوظ جداً".

اللعب هو أفضل ما يروق لخوان دومنجيث ، كان يجد نفسه فى المساحات الخضراء، وعندما يفلت من مراقبة اثنين من المدافعين فى تمريرة الموت يشعر وكأن السماء قد أصبحت مستطيلة ومغطاة بالحشائش، يحوطها خط جيرى ومحاطة بملائكة يصيحون وهم يأكلون "أبو فروة" المشوى وحبَّ العزيز والبرتقال المستدير الحمضى ، كان أسرع اللاعبين، فهو أشدهم خوفًا، وإذا ما أصيب أحد لاعبى الفريق

المضاد بأية كدمات كان يهب لمساعدته ويقضى الوقت وهو يقوم بتدليك ظهر خصومه وكان يصافحهم ويهدئ من مشاعر الغضب ولذلك أخذ الصحفيون يطلقون عليه "مقدام جامبو" وأخذت تتكون من حوله أسطورة الفروسية التى أسهمت فى الدفاع عن أخطائه الصغيرة، كما وصل الأمر إلى تصوير الهجوم على خوان دومينجيث بأنه طعنة توجه إلى القديس فرانشيسكو دى أسس، أو كأنه عرقلة الراهبة الدومينكانية الشهيرة إيميلدا ، أو كأنه اغتصاب كابيروثيتا روفا ، ارتفع صيته بشكل كبير، فدفع له النادى المزيد من المال وبحث له عن وظيفة محترمة، كما أخذت الأندية الكبرى تهتم بأمره، وعامله علية القوم فى المدينة بمزيد من الاحترام وساعدوه فى بعض الصفقات التجارية ووضعوه على أكفّهم، ولأعوام طويلة لم يعرف حتى معنى أن يضع يده فى جيبه ليدفع حساب وجبة تناولها أو فنجان قهوة، أو أشياء أخرى كثيرة ، لكن والده كان يقول له أنت أبله ذو حظ عظيم، وهذا ما كان يؤلمه.

عظيم يا صديقى خوان دومينجيث، حقًا إنه هام وعظيم كل هذا الذى تقصه علينا ، لكن الوقت يمضى بسرعة، حسن يا عزيزى دومينجيث، لتعذرنى ، بنفس سرعة لاعب خط الهجوم المجيد الذى فاز عن جدارة بلقب "مقدام جامبو" فإننا نريد أن نسأله سؤالاً هامًا.. لماذا اعتزلت يا سيدى ؟

– يجب أن يعرف المرء كيف ينسحب فى الوقت المناسب ، فأنا، كما تعرف، لم أكن كبيراً فى السن عندما اعتزلت، لكنها كانت السنوات الثلاث للحرب ... ، ما علينا، كانت ثلاثة مواسم ضائعة، وكان على المرء أن يعيد تنظيم حياته ...

(كان من السهل أن يحكى ما اعتاد قوله دائماً، ورغم أنه قد نسى هذه العادة إلا أنه ما زال من السهل قول ما اعتاد سرده ، إذْ كان الكذب يبدو عنده سهلاً ويسيطاً، لكن خوان يعرف السبب الحقيقى لاعتزاله، فهو لم يشعر لحظة واحدة أنه قد تقدمت به السن ، كان يؤمن بأنه ولد ليلعب حتى آخر أيام حياته، وربما بهذا لا يجافى الحقيقة كثيراً، فالحرب هى المتهم الأول فى اعتزاله. إنها الحرب التى قلبت حياة الجميع، إنها الحرب التى أفصحت للناس عن مخاطر أكبر بكثير من تمريرة الموت، أو الإصابة في الملعب، هى الحرب التى جعلت تدليك ظهر اللاعب غير ضرورى ، هى الحرب التى جعلت سجل حياته قديماً، هى الحرب التى ملأت علاقات البشر بالصرامة فبين براثنها يرى الجميع الحقائق واضحة جلية وأن اللعب قد صغر حجمه وأصبح الحجم النبيل: ألا وهو التسلية الشخصية، والتباهى بالتسلية بما فى ذلك ذكر المعارك التى كان الموت فيها هو الحكم) .

وفى الشهور الأخيرة للحرب تم تجنيده، واشترك فى المعارك وكان فى مقدمة الكتائب المهاجمة لإقليم قطالونيا ، وتنتشر الكتيبة فى شكل حرب عصابات، كل ذلك كان يذكره بالساعات التى كان يلعبها فى الملاعب، وأحياناً ما كانت المجموعة المتقدمة مكونة من ثلاثة: الجناحان ولاعب وسط الهجوم، أما لاعبا خط الوسط فيبقيان فى المؤخرة بعض الشيء، عموماً كانوا جميعاً يلعبون جيداً دون أن يأخذ الموضوع اهتماماً زائداً عن الحد ، وعندما أخذه أحد قادته إلى المعسكر تنفس الصعداء، لكنه فقد الفرصة فى معرفة أن الشجعان يخافون أيضاً ، لا، لن يعود إلى اللعب فكل شيء سيكون مختلفاً عما سبق ، ولأن رياضته سوف تظل تشد اهتمام الناس، ولكن بطريقة مختلفة، وبدون الربح

السابق فلا أحد بقادر على أن يأخذ ذلك التمويه مأخذ الجد، وعندما أراد أن يتراجع - عندما أدرك أن الحياة هى نفسها دومًا - كان الوقت متأخرًا، إذْ فقد ليس فقط سنوات الحرب الثلاث بل عدة شهور من السلام ، كان ذلك عندما افتتح محله واكتشف أن حياته كانت خطأ جميلاً وعظيمًا ورهيبًا ومثيرًا للشجن .

-عظيم يا خوان دومينجيث، نتقدم بالشكر الجزيل باسم المستمعين لخوان دومينجيث لكلماته الهامة، ونخص بالذكر مشهيات تشينا ، المشهيات الخالية من الكحول، مشهيات أفضل الرياضيين وهى المشهيات التى ترعى هذه الحلقة التى سجلناها لكم فى برنامج "الأمجاد القديمة تعيش بيننا" وهو البرنامج الذى تقدمه مشهيات تشينا كل أحد ، لا تنسوا أنها مشهيات عمالقة الرياضة ، والميكروفون الآن مع لويس ريبرا الذى سيسرد عليكم أهم أحداث الشوط الأول حتى يخرج اللاعبون مرة أخرى إلى أرض الملعب ، أمسية سعيدة وأن يفوز الأفضل ، ومن هو الفريق الأفضل؟ الأفضل هو مشهيات تشينا ، مشهيات بدون كحول، مشهيات عمالقة الرياضة.

توقف أزيز جهاز التسجيل.

- كل شىء تمام؟

- نعم كل شىء تمام.

- أنت يا سيد دومينجيث كنت ممتازًا، من غير الشائع أن يكون هناك رياضيون يجيبون بسلاسة، وخاصة الملاكمين ، كما أنى لم أقل إلا طيبًا، وما يقال دومًا، وما يريد الناس أن يسمعوه.

- أحقًا ذلك؟

- الغضب، فانلة الفريق القومي ، والنادى الذى تعشقه، وهو حوش المدرسة ، والولاء للمشجعين ، الكلام المعمم الجميل ، إنه الأسطوانة يا سيدى ، الأسطوانة الجيدة.

- حقًا، أعتقد أننى قلت ما يريد الناس أن يسمعوه، يبدو لى ذلك، أننى قلت ما يريد الناس أن يسمعوه. الناس يريدون نفس الشيء دومًا ، أليس كذلك.

- هذا ما كنت أقوله أنا منذ لحظة.

- أخرج زجاجة نبيذ.

- سنتناول كأسًا ..

- وهو كذلك يا دومينجيث، شريطة ألا تكون المشهيات هى تشينا ، فنحن على استعداد لنشرب كثيراً، انظر يا دومينجيث إذا أردت أن تعيش عمراً مديداً فخذ بنصيحتى ولا تقرب هذه الماركة القذرة ، فمشهيات تشينا هى منتج يقف فى خط وسط بين المنتجات السامة ومنتجات زيت كبد الحوت ، إنها منتجات عفنة - توجه المذيع بالكلام للفنى قائلاً : هيا أعد علينا ما سجلناه.

أعاد جهاز التسجيل ترديد صوت الجرس والتردد الأوّلى فى الصوت، أخذ جهاز التسجيل يكرر ما قاله خوان دومينجيث، أى ما يريد أن يسمعه الناس، صوت خوان دومينجيث بدا فى نظر خوان دومينجيث أنه صوت خوان دومينجيث آخر لا يكاد يعرفه ، التسجيل ممتاز ، وبينما

يستمع ، فتح زجاجة النبيذ، وصب منها فى الكئوس ، تبادلوا النخب، وشرب الجميع : سواء المذيع الذى قام بالتقديم أو فنى التسجيل، وشرب خوان دومينجيث أيضًا ، كان ينظر للنياشين الموضوعة فى الفاترينة الزجاجية ، وجاءه الحزن من الكئوس كأنه نبيذ مر ومريح ، ثم قال بعد ذلك: "إذا لم تكن لديكم أية التزامات أخرى فإنى أدعوكم لتناول الغداء" ووافق الآخرون وهم سعداء بالدعوة ، فكر خوان دومينجيث فى أن يشرب أكثر، ثم يعود بعد ذلك للمحل وحده وأن يأخذ زجاجة إلى مكتبه الصغير وأن يخرج الكئوس من الفاترينة ويشرب فى كأس منها ، الأولاد ، زالوا هناك على الجانب الآخر من الفاترينة وأنوفهم ملتصقة بالزجاج وقد ملأهم الفضول ، وفى المساء عندما يلعب فريق جامبو مباراته مع ريال مدريد، فإن خوان دومينجيث سيشرب حتى الثمالة ، هيا – قال لهما – أعرف مكانًا سوف يسعدكما.

***

FRANCISCO GARCIA PAVON

فرانشيسكو جارثيا بابون

ولد فى إحدى القرى التابعة لمدينة "ثيُوداد ريال" عام ١٩١٩ – عمل أستاذًا فى كلية الآداب والفلسفة – جامعة مدريد، عمل أستاذًا للأدب فى المدرسة الملكية العليا لفن الدراما بالعاصمة مدريد، نشر أكثر من خمسين مؤلفًا، وهو أحد من أبدعوا فن القصة البوليسية على الطريقة الإسبانية وأحد أفضل مؤلفى القصة القصيرة الإسبان ، ومن بين الجوائز التى حصل عليها ما يلى : جائزة النقد (١٩٦٧) جائزة نادال (١٩٦٩) الحصالة الذهبية (١٩٧٥) المخصصة للقصة القصيرة .

من بين مجموعاته القصصية : حكايات ماما (١٩٩٢) حكايات جمهورية (١٩٦١) الليبراليون (١٩٦٥) حرب الألفى عام (١٩٦٧) حديقة أغطية الرأس (١٩٨٠) – الأعمال القصصية الكاملة (القصة القصيرة) (١٩٨١) .

أما القصص التى نشرها فبرز منها "بالقرب من مدينة أوبييدو (١٩٤٦) العربات الخالية (١٩٦٥) أسبوع ممطر (١٩٧١) السبت الأخير (١٩٧٤) الأحد مرة أخرى (١٩٧٨) مستشفى النائمين (١٩٨١) ، ترجمت بعض أعماله إلى الرومانية والدنمركية والروسية والفرنسية والإيطالية والبولندية ،

***

باولينا وجومر سيندو

كانت واجهة المنزل عبارة عن حائط صغير تكسوه طبقة من الجير وتتوسطه بوابة واسعة ليس إلا ، خلف البوابة هناك فناء كبير به أشجار التين والعنب، هذا بالإضافة إلى بئر وأصص ، والغريب أن به كومة نبتت عليها الحشائش يتباهى فوقها الدجاج ، تشير باولينا إلى هذه الكومة قائلة: "عندما أقاموا المنزل والكهف منذ عشرات السنين بقيت هذه الكومة من التراب ، ولما نمت فيها الحشائش والزهور قال والدى "فلنتركها"، وهكذا يكون عندنا جبل فى المنزل ".

فى الفناء أقيم بناء ضئيل الارتفاع هو عبارة عن المطبخ ومخدع الزوجية والإصطبل الذى به "تانكريدو" وحظيرة صغيرة للخنزير.

فى بعض الأمسيات، بل وفى الكثير منها، نذهب مع أمى أو الجدة لزيارة الأخت باولينا ، وإذا ما كان الوقت صيفًا نجدها جالسة بين الأصص بجانب البئر وهى تقرأ عدداً من أعداد الصحف لأيام سبقت وهى الأعداد التى تجلبها لها الجارات، أو نجدها وهى تقوم بالحياكة .

عندما ترانا قادمين تخلع نظارتها الفضية وتترك ما فى يدها وتقول لنا بابتسامة مشرقة :

– كيف حال الأسرة الكبيرة ؟

دائمًا تبدأ بى ، بالتربيت على ساقى وتضم وجهها لوجهى .

هناك ذكرى لتلك المعانقات الصدرية: شعرها الناصع البياض، قرطها الذهبى الكبير والزائدة الجلدية الكبيرة والوردية اللون على جبهتها...

تفوح منها رائحة السفرجل أو زيت الزيتون أو مشهد حالم وتنظر إلى بابتسامتها ، أكثر منها بعينيها الواضحتين المتعبتين التين تحيط بهما التجاعيد الوردية.

فى الوقت الذى نلعب فيه معشر الأطفال فى الفناء أو نقوم بالتزحلق على الجبل الصغير تتحدث هى مع أمى ، يطيب لهما تذكر الأحداث القديمة لهؤلاء الذين ماتوا، والشوارع التى كانت من طراز آخر ، والكرمة التى استؤصلت والجبال التى كانت تزرع بالكروم والمهرجانات الشعبية احتفالاً بالقديسات العذراوات، والتى لم تعد تعقد اليوم ، وعندما تتحدث ترفع عادة أحد حاجبيها أو ذراعها كأنها تشير لأشياء تختلف عن هذا الزمان، وعندما تضحك تغطى فمها بيدها وتطأطئ رأسها (آه لتلك الأمور التى مضت يا ابنتى) ، وإذا ما كانت تقص أموراً محزنة ترفع إصبعها السبابة وتحملق فى عين أمى ، (ذلك كان من الضرورى أن يكون هكذا، من الضرورى أن يموت مثلما سنموت نحن .

أما فى الشتاء فكانت تستقبلنا فى مطبخها بجوار المدخنة وهى تراقب طهى الطعام الذى وضعته فى الأوانى ، وإذا ما كانت وحدها، فإن ضوء اللهب – مصدر الضوء الوحيد فى الحجرة – ينعكس على الأكواب الكبيرة الموجودة فى أرفف الخزانة، وعلى المرآة الوحيدة المتآكلة الموضوعة فى إطار نحاسى ، ووسط الصمت تسمع دقات المنبه التى ترتفع حتى تغطى كل شىء ، وتصمت إذا ما تكلم الجميع، "إذا توقف المنبه عن العمل فإنى أنزعج رغم أنى قد أكون فى الطرف الآخر للفناء

أو فى منزل إحدى الجارات" ، هكذا كانت تقول الأخت باولينا ، وفى ليالى البرد الشديدة تغطى المنبه بقطعة قماش "عندما يتغيب جومر سندو فالمنبه هو رفيقى الوحيد، وعندما يخاصمنى النوم أسمعه فأشعر بالطمأنينة".

فى الجو البارد كنا نلعب فى المطبخ على مائدة مغطاة بمفرش خشن ذى لون أحمر، أو كنا نذهب إلى اصطبل تانكريدو.

عندما تنتهى من إحدى حكاياتها تظل صامتة هنيهة وهى تحملق فى النار المشتعلة ويداها ممتدتان تتلمسان الدفء.. ، لكنها تبتسم بعد ذلك لتوارى بعض الذكريات الأخرى وتهز رأسها، ثم تنظر لأمى وتبدأ حكاية أخرى ، فإذا ما كانت الحكاية طريفة ومسلية تقول لنا "اقتربى أيتها الأسرة واسمعى هذه الحكاية" ، وتمسك بخصورنا وتبدأ فى السرد وهى تنظر تارة لهذا وتارة لذاك وثالثة لأمى .. ، وإذا كانت الحكاية تتعلق بمن مات من أهلها تنتهى بصوت يصحبه سكون شديد، تمسك الدموع فى مآقيها وتزفر زفرة عميقة – "آه يا ربى" ! – وتظل بضع ثوان تنظر ليديها المعقودتين على الجونلة .. ، فتقول لها أمى "أتتذكرين يا سيدة باولينا...؟" فتبتسم وتهز رأسها وتغوص بكلماتها الحانية فى الزرقة العميقة للذكريات .

ولما كان الحديث يدور كثيراً فى تلك الأيام عن النظام الجمهورى ، قصت علينا فى إحدى الأمسيات كيف كان حال الجمهورية الأولى، عندما كان الجد بيثنتى بوبيلاس يشغل منصب العمدة، إذ عقد اجتماعاً مع أعضاء المجلس البلدى ليتقلد المنصب، وأول ما فعله الأعضاء هو

أداء صلاة الشكر على ما حدث ، "أؤكد لك أنها إذا عادت الآن فلن يؤدى أحد صلاة الشكر" ، وعندما خرجوا من الكنيسة ألقى الجد بيثنتى خطبة من شرفة المبنى القديم للبلدية وقبل العلم ودعا الناس إلى تناول مشروب مثلج.

حكت لنا أيضًا حكاية "ثورة الاستهلاك" من نوافذ منزل بانادريا "أطلقوا النار على الشعب الأعزل" الذى قام بعد ذلك بمهاجمة المكاتب، وبعثرة الأوراق والمستندات ، قتلوا ثلاثة، وأتت القوات ليلاً من منطقة مانثا ناريس وقامت بإشعال النيران للتدفئة فى شارع المهرجانات، أما أعضاء المجلس البلدى والاستهلاكيون فقد هربوا وتجمعوا فى مقر "بنك التسليف الجديد".

وأحيانًا أخرى تقص أحداث وباء الكوليرا : "كانوا يحملون الموتى فى عربات كأنهم أشجار جافة" أو عندما قتلوا "تاخا" أو السيد "فرانشيسكو مارتنيث" والد الأختين لاورا ، أو تتحدث عن عام الجوع عندما كان "الناس المساكين يأكلون لحوم الكلاب والقطط".

عندما تحين ساعة رحيلنا تفتح خزانة الطعام وتقول وهى تبحث فيها:

- والآن حان موعد تقديم هدية الأخت باولينا.

فتقول أمى :

- لكن يا باولينا ...

- اسكتى يا شابة.

وحسب فصول السنة تخرج إما طبقًا من العنب أو البندق أو الترمس ، أو الكعك الصغير بطعم الينسون، أو ما هو أفضل من كل ما سبق: "قطوف" لقمة لذيذة تسميها وريدات ، أحيانًا أخرى العيش "المحمص" وهو من القمح المقلى والملح ، أو اللب ، وعندما نشعر بالعطش صيفًا تقدم لنا مرطبات الخل اللذيذة، وعندما تنظر إلينا ونحن نتناول ما تقدمه تقول مبتسمة :

– أليست طيبة المذاق؟ أليس كذلك أيتها الأسرة؟

طوال سنوات عديدة شهد الأجداد ونحن بعدهم نفس الأحداث صباح كل يوم اثنين ، فمنذ الصباح الباكر، وبصبر وأناة، يقوم جوميرسندو بإعداد التجهيزات، فعلى ناصية الشارع هناك "تانكريدو" وهو مربوط فى العربة، إنه حمار جمع بين اللونين: البنى والأسود، له أذنان أفقيتان وعينان مخضبتان بالدموع، تغطى بطنه طبقة من الشعر القديم الرمادى ، أما على "الكَفَل" نجد دومًا اسمه مكتوبًا بالمقصّ، وبالخط العريض "تانكريدو" ، وأول شىء يضعه جوميرسندو على صندوق العربة الكارّو هو الأكياس المعبأة، وقربة النبيذ وإبريق المياه المصنوع من الفخار وأجولة العلف والبطاطين، فى كل مرة تساعده باولينا فى حملها ، أما هو ففى صمت ودقة يضع كل شىء فى مكانه المحدد له ، وفى النهاية يقوم بربط المحراث فى المؤخرة ويتأكد من وجود لمبة الإضاءة الخلفية ويبقى شارد الذهن.

– هل أخذت معك الخل؟

– نعم يا باولينا.

– والبيكربونات؟

– نعم يا باولينا.

– والمسامير الجديدة؟

– نعم أيتها الطيبة.

– والألواح الخشبية.

– نعم يا عصفورتى .

عندما يكتمل كل شىء ينظر جوميرسندو فى ساعته ويضع على رأسه الطاقية التى صنعها من الحشائش ثم يأخذ زوجته ويقول لها كزوج عاشق.

– لا تنسى إغلاق الباب بالمزلاج أثناء الليل حتى لا يفكر أحد المجانين فى استغلال وجودك وحيدة ،

فكانت تقول له مبتسمة : اطمئن، فبستانك فى مأمن.

ثم يقترب منها جوميرسندو ويقبّلها قبلتين طويلتين بصوت مسموع ، ثم يركب العربة الكارو وهو عصبى وغير قادر على أن يرمقها بنظرة .

– هيا يا تانكريدو!

كان الحمار يبدأ فى جر العربة ببطء شديد فى شارع مارتوس، أما باولينا فتتبعه سيراً على الرصيف.

– كفى يا باولينا.. ، كان يقول لها ذلك مديراً رأسه، بينما الأخت باولينا تمضى مبتسمة.

– عودى يا باولينا.

لكن باولينا تواصل السير حتى شارع الاستقلال، وتظل هناك لبعض الوقت حتى تتلاشى عبارته "عودى يا باولينا" فى أذنيها.

تظل باولينا تنتظر عودة زوجها طوال الأسبوع حتى يعود مساء السبت ، كانت تنتظر وتتهيأ لعودة جوميرسندو ، تنتظر وتستقبل صديقاتها.

أما جوميرسندو فيظل وحيداً فى مزرعة العنب الصغيرة التى تبعد عن القرية حوالى عشرة "فراسخ" ينتظر أيضًا لكن دون أصدقاء يستقبلهم "هناك وحيداً يصارع الأرض، يا له من مسكين".

عندما تتلبد السماء بالغيوم تتجول باولينا بنظراتها القلقة وهى على باب المطبخ، – "يا إلهى" – وفى أيام العواصف تظل بجانب مصدر الضوء تردد صلوات وأدعية قديمة تعود الكاثوليك على ترديدها.

لم تتصور أبداً أن لجوميرسندو أعداء إلا تقلبات الطقس ، وعند الحديث عن رياح الشمال ونزول الجليد والصقيع وهبوب العواصف أو المطر الثلجى ، تتحوّل كل هذه الظواهر إلى مخلوقات ضخمة ذات سحنة مخيفة ، فالشعاع مثلاً هو فى نظرها أمير الملائكة المتمردين الذين يهيمون على وجوههم فى الحقول ، "أيتها القديسة باربارا، أرسلى بنورك إلى كل مكان – أيتها القديسة باربارا حرريه من كل شرّ – أبعدى الشعاع عن الحظيرة وعن السنابل، أرسليه إلى غير المؤمنين" ، أو أن تتلو الدعاء التالى الذى يقف فى طريق وسط بين التقليدية وخيالها: "أيها القديس إيسيدرو : ارع زوجى جوميرسندو – وأن يروى الماء الأرض – ولا يتحول إلى طوفان – وألا يسقط الثلج أيام الآحاد – وأن يكون سقوط الثلوج يوم الإثنين – بعد مطلع الصباح بقليل – فلتجعل

أيها القديس إيسيدرو – حبات المطر الثلجية الغليظة خفيفة رقيقة".

يظهر جوميرسندو يوم السبت حوالى السادسة بعد الظهر، وهو يقود تانكريدو بيده اليمنى ، ويسير فى شارع الاستقلال ، أما باولينا، فقبل السادسة بكثير، كانت تقف على الناصية وعيناها على الميدان.

– ماذا يا باولينا؟ أتنتظرين زوجك ؟

– بلى! تجيب وفى نبرتها شيء من الخجل .

– انظروا، باولينا تنتظر فارسها.

– نعم !

عندما تلمح العربة الكارو، لا ترد على التحايا فعيناها الصافيتان اللتان هدّتهما السنون والانتظار كل يوم سبت والوداع كل يوم اثنين، تنظران إلى من تعرفه هى جيداً دون أن ترفع عينيها عنه.

تبدأ قامة جومير سندو فى الظهور بين الغبار الذى تثيره عربات الكارو الكثيرة إنها قامة نحيفة يابسة تقود تانكريدو من الناحية اليمنى ، يعرف الحمار طريقه جيداً إذ يمشى بخفة وانتباه تدل عليه أذناه المنتصبتان إلى الأمام، وكأن هناك ابتسامة ترتسم فى مآقيه المبللة .

قبل أن تصل العربة إلى ناصية شارع مارتوس تتقدم باولينا نحو وسط الشارع ثم تقترب من جوميرسندو وتأخذ وجهه بين يديها وتقبله كطفل .

فكان يقول بخجل :

– هيا يا باولينا هيا، ماذا يقول الناس؟ ويدفعها برقة (كانت تنبعث منه إما رائحة هواء الخريف والشمس الواهنة، أو رائحة عصير العنب وأغصان الكروم إذا ما كان زمان قطف العنب) ، بعد ذلك يضرب الحمار عدة ضربات بيده قائلاً "هيا يا عجوز!".

كانا يُشاهدان فى الشارع وهما يسيران متشابكى الأيدى – كما تقول هى – يتبعهما تانكريدو وهو واثق من مقصده ، دائمًا كان يأتى لها ببشائر ما يزرع وما قد يجده مثل أول عناقيد عنب تنضج أو شقائق النعمان التى تفتحت قبل موعدها، أو عصفور أو سنابل القمح التى جفت ، لتحميصها أو عش عصافير ، وذات مرة أتى لها بطائر الحبارى – دائمًا ما كانت تذكر ذلك – إذ استطاع جوميرسندو أن يصيده بطلقة واحدة .

يَحلّ تانكريدو من العربة ويضعه فى الإصطبل، تأتى باولينا لزوجها بالطشت والصابون والملابس النظيفة وبالماء البارد الذى تخرجه من البئر لينظف نفسه بالطريقة التى اعتادها بينما تنتظره هى حاملة الفوطة ثم تأخذ الملابس المتسخة ، ثم يجلسان بعد ذلك على المائدة الموضوعة تحت العُريشة إذا ما كان الجو طيبًا ويتناولان الأطعمة التى أخذت تفكر فيها طوال الأسبوع ، يأكلان فى ظل الحب والرفقة ، ويبدآن السّمر الذى يستمر طوال يومين اثنين ، يقص عليها بالتفصيل كل ما يفعله وما يصادفه وفى أى مكان فى الحقل قام بعمله، وكيف سيكون حال المحصول، ومن طافوا به هناك ، وما إذا زاد أو قل شىء مما يحمل من الزاد، إذا كان الجو باردًا أو حارًا أو رطبًا، ما إذا كانت الليالى شديدة الظلمة أم لا، وماذا قالوا له وما هى إجاباته.

يخصص جزءًا مهمًا من حديثه عن تانكريدو فيما إذا كان جيدًا في أدائه أو تعرض لشيء سيئ مثل أعشاش الزنابير أو ذبابة الحيوانات ، وفيما إذا اندمل الجرح الذى حدث له الأسبوع الماضى ، وفيما إذا كان قد قام بتشحيم مقص تقليم الأشجار أم لا ، وما إذا كان النبيذ قد كفاه حتى العودة أم لا ...

بعد ذلك يأتى الدور على باولينا التى تقص عليه الأحداث الجديدة فى القرية، ومَنْ الذين زاروها وما تحدثوا معها فيه، واستعراض الأمراض الشائعة والمواليد والوفيات بين الجيران والمعارف ، والخوف الذى عاشته يوم الخميس، عندما تلبّدت السماء بالغيوم وكان الرعد تجاه "الحمراء" أو الاهتمام بتخزين القليل أو الكثير من شحم الخنزير أو ما إذا كان النبيذ قد تفاعل مع نواتجه أم لا.

وأثناء الأيام التى يقضيها جوميرسندو فى القرية لا يقرب أى منا منزل باولينا "كيف حال جوميرسندو ..." يُرى الزوجان وحدهما جالسين عند الباب فى الصيف وهما منهمكان فى السمر ، أما فى الشتاء فيجلسان فى المطبخ بجانب المدفأة، ويتحدثان وهما ينظران إلى اللهب، ومعظم حكايات باولينا وجوميرسندو تدور حول ما حدث خلال سنوات خلت، وعمّن ماتوا وأحداث لا يكاد يذكرها المسنّون ، أو حكايات طريفة قصيرة ، وطرائف ومواقف عابرة ، وأحيانًا يتحدثان عن نظرة أو إشارة أو فكرة كانت فى الخفاء ولم تر النور ، ونظرًا لأن باولينا تكثر وتطنب فى سردها فإنها تعطى الأمور أبعادًا غير متوقعة ، (والآن أدرك كيف أنه كان يتخلل كل حكاياتها وسمرها مكرًا مستترًا بالإضافة إلى قصد رفيق لم أكن أعرف سره آنذاك، وبعد ذلك بأعوام ، وعندما ذكرتنى أمى بباولينا وقعت فى العمق الفريد لسمَرها).

لم يفصل بين موت جوميرسندو وباولينا إلا بضعة أسابيع ، لم يكن ممكنًا إلى هكذا ، ففى أحد أيام السبت رأت باولينا فى شارع مارتوس عربة الكارو وهى تسير فى شارع الاستقلال كعادتها ، لكنها استغربت شيئًا ما ، إذ لم يكن جوميرسندو قادمًا سيرًا على قدميه يقود تانكريدو طبقًا لما اعتاد عليه طوال خمسين عامًا، فاتجهت نحو العربة نافدة الصبر والتقت بالعربة عند منزل آل فلورس ، أوقفت تانكريدو، كان جوميرسندو ملفوفًا بالبطاطين وشبه مستلق وقد أخرج يده ليمسك اللجام، أصفر الوجه، أثرت عليه الحمى تأثيرًا شديداً وعيناه شبه مغمضتين .

– ماذا بك؟

– لقد أصابنى الداء الأليم يا باولينا .. ، لقد مرضت كليتى من "ريح الشمال" التى هبت أمس ، فغطّته هى بشكل أفضل وأخذت تقود تانكريدو وسارت وعيناها الصافيتان ثابتتان بلا حراك.

سألها الجيران :

– ماذا حدث يا باولينا؟

تسير هى دون جواب وهى تنظر إلى بعيد ممسكة جيدًا بتانكريدو.

لم تسمح باولينا بأن يمسّ زوجها أحد، فهى التى غسّلته وكفّنته وهى التى وضعته فى التابوت بمساعدة نساء أخريات ، وهى التى ألقت عليه النظرة الأخيرة دون أن تدمع عيناها الصافيتان حتى أغلقوا التابوت ، وتمت إجراءات الجنازة دون نواح أو كلام ، كنا نحن معشر الجيران ننتظر فى الفناء، ونحن ننظر إلى البئر والعُريّشة وشجرة التين والجبل المغطى بالحشائش والعربة الكارو فى جانب.

عندما حملوا التابوت إلى سيارة دفن الموتى التى كانت تنتظر فى الشارع بدأت باولينا - وسط دهشة الجميع - تسير خلف التابوت، وينظر القساوسة إليها وقد فقدوا القدرة على التصرف، وظلوا يتلون الصلوات ، سارت وحدها فى مقدمة الجنازة وذراعاها متشابكتان وقد غطت رأسها بمنديل أسود من الحرير وقد تسمرت عيناها على مشهد الموت ، وهكذا وصلت حتى تقاطع شارع مارتوس مع شارع الاستقلال، وعندما اتجهت السيارة إلى الميدان توقفت هى على الناصية ورفعت ذراعها مودعة كعادتها.

بقيت أمى وبعض الجارات إلى جوار الأخت باولينا التى ظلت تحرك ذراعها حتى دخلت الجنازة الميدان ، عندئذ عادت والجارات يحملنها على أذرعهن، وهى تشعر بالفراق الكامل وتبكى بأنين لا ينقطع، أنين مكتوم ليس له مخرج انتهى بموتها بعد ذلك بعدة أيام.

لست أعرف ماهية المشاكل بين الورثة والتى جعلت منزل باولينا مهجوراً هكذا ، أحياناً ما ألقيت نظرة من خلال فتحة المفتاح ورأيت الفناء وقد ملأته الحشائش الضارة والأشواك ، ومهما حاولت أن أتذكر وأعود بذاكرتى إلا أننى لا أستطيع استرجاع الحياة العذبة لباولينا، بل أتذكر فقط الأنين المكتوم الذى لا ينقطع - كأنين الحيوان الجريح - والذى استمر فى هذا المنزل حتى الحشرجة الأخيرة للحياة العذبة.

***

MEGUEL DELIBES

ميجيل دليبس

ولد فى مدينة بلد الوليد عام ١٩٢٠ ، درس القانون والتجارة ، عمل كأستاذ للقانون التجارى فى مدرسة التجارة ، من أشهر الكتاب الإسبان وتم تحويل العديد من رواياته إلى أفلام.

من بين أشهر قصصه **La Sombra del cipres es alargada** (١٩٤٧) لم يمض النهار بعد – الطريق – يوميات صياد قناص – يوميات مهاجر – الورقة الحمراء – الفئران – الأعمال الكاملة (١٩٦٤) حرب أجدادنا (١٩٧٥) .

أما عن مجموعاته القصصية نذكر منها "الرحيل" (١٩٥٤) القيلولة فى ظل رياح الجنوب (١٩٥٧) . ، ألخ.

حصل على عدة جوائز منها : **Nedal** (١٩٤٧)

***

الأرنـــــب

وكل مرة يرى فيها خوان الحدّاد يقول له:

– متى ستعطينى الأرنب يا بونى؟

وكان بونى ، الحدّاد يرد عليه سائلاً:

– هل تستطيع العناية به؟

وكان خوان ، الطفل، يرد عليه:

– طبعًا.

لكن أدولفو، الطفل الأصغر يكمل، وهو ينظر نحوه بعينيه الزرقاوين والصافيتين :

– ماذا يفعل الأرنب؟

فيحدد خوان بتؤدة :

– هو يأكل وينام ويلعب ...

– مثلي؟ استفسر أدولفو.

أما الحدَّاد، فأضاف دون أن يتوقف عن طرق الحدوة

– ويلد زيادة على هذا.

كان خوان يمسك الصغير من يده:

– الأرنب الذي سيعطينا إياه بوني سيلد أرانب صغيرة، وعندما يكون لدينا كثير منها سوف تعطيني واحداً منها لـ (فيكو).

– قال أدولفو : نعم.

ورغم أن الحداد بوني كان ينظر للطفلين فإن دقاته كانت تنزل فوق المكان المطلوب.

– هل حقًا تريد الأرانب؟

– أجاب خوان : طبعًا.

– وهل تستطيعان العناية به؟

– قال الطفلان بصوت واحد : نعم.

أضاف الحداد : إذن غداً عند الظهيرة سوف أنتظركما فى المنزل – وعندما اتجه الطفلان نحو الطريق يمسك كل منهما بيد الآخر قال لهما صائحًا:

– وإذا ما اعتنيتما به جيداً سوف أعطيكما أحد الأفراخ.

وسأل أدولفو خوان :

– أحد الأفراخ ؟ ما معنى ذلك ؟

– أجاب خوان : حمامة صغيرة.

– قال أدولفو : وتطير؟

– قال خوان: كل الحمام يطير.

وعندما مرا بالميدان رأيا مجموعات من الناس ورأيا سباستيان، وروبين ومعهما الشموع وامرأة تبكى بدون صوت ، وقال إيفيليو صاحب المطعم :

– حدث لها ذلك منذ فترة، وإن لم تكن قد قالت شيئًا للطبيب فإنها لم تشأ أن تكشف له عن صدرها.

"هرش" استبيان – تبّاع الطاحونة – قفاه :

– الأمر مفهوم فى حالة امرأة عازبة.

تجول خوان وأدولفو وكل منهما يمسك بيد الآخر بين مجموعات

الناس دون أن يلفتا انتباه أحد حتى أتى القسيس ونَظَم سلسلة عبارات غير مفهومة، فقامت النسوة بالإشارة بعلامة الصليب على صدورهن، ونزع الرجال قبعاتهم، وأخذوا يديرونها بين أصابعهم دون أن يتركوها ، ترك خوان يد أخيه، ونزع غطاء رأسه، وأخذ يدير قبعته مثلما يفعل الرجال تمامًا ، وعندما رآهم يخرجون ذلك الشىء من المنزل قال لأدولفو هامسًا:

– إنه ميت.

– قال أدولفو بصوت واضح: أين هو الميت؟

وقال الرجال :

– اصمت يا غلام!

وفتح أدولفو عينيه الزرقاوين أكثر وخفض صوته وقال لخوان:

– أين هو الميت يا خوان؟

وأجاب خوان:

– موضوع فى ذلك النعش.

ونظر أدولفو أولاً للصندوق الأبيض، وبعد ذلك لأخيه، وبعد ذلك إلى الصندوق الأبيض مرة أخرى ، وأخيراً مد يده الصغيرة ليمسك بيد أخيه، وأخذ كلاهما فى السير خلف الجنازة، بينما واصل القس تلاوة جمل غير مفهومة ، وعند المرور بمحل الحدادة التزم بونى الحدّاد الصمت، وتوقف عن العمل ووضع طاقيته بين أصابعه وهو يرى مرور الموكب الجنائزى ، وعندما رأى خوان فى نهاية الموكب غمز له بعين وقال له:

– إلى أين تذهبان؟

– قال خوان: للدفن ، إنه ميت.

– والأرنب؟

– قال الطفل: غداً.

وضع الحداد طاقيته من جديد على رأسه وثبّت القمّاطة للحصان، وأخذ القادوم وقال لخوان، وهو بين أرجل الحصان مشيراً إليه بإيماءة برأسه المنحنى الذى اتجهت إليه الجنازة:

– لنر فيما إذا غطينا عينيه به وألا يحدث له مثلما حدث لـ "إيولاليا"

رفع أدولفو عيناه الزرقاوين :

– هل كانت إيولاليا تستطيع الطيران؟ سأل.

– "اصمت"! أجاب خوان وانضما للموكب ، توقف الموكب الوقفة الأولى واستقر النعش، وأخذ القسيس يغمغم بعبارات غريبة وبنبرة تنم عن صوت رصين جداً ، وأخذ الرجال يتقدمون الواحد تلو الآخر ويضعون نقوداً فى الصينية التى أمسك بها ميلتشورين، ومزيدا من النقود ، وكانت العملات المعدنية تُحدث فرقعة عند اصطدامها بالصينية، أما أدولفو فتزداد حدقتا عينيه اتساعًا ويقول :

– يا خوان، لماذا يعطون نقوداً لميلتشورين؟

وخوان يوضح له:

– حتى لا يموت مثل السيدة إيولاليا.

واستمر الأمر على هذه الحال خلال وقفات ثلاث حتى وصل الموكب إلى أعلى الهضبة حيث يعلو شجر السرو وسط "القرافة" الصغيرة ، كان

"سيكون" هناك بجوار الحفرة وهو يحمل الجاروف ، وثوسيمو، الشرطى ، يحمل على كتفه فأسًا كبيرة ، بين كومة التراب الناتج عن الحفر ظهرت عظام متآكلة ، وضغط أدولفو على يد خوان وسأل :

– ما هذا؟

– أجابه خوان: اسكت ، إنها جمجمة، لكن لا تخف.

– أصر أدولفو : هل تطير؟

لكن لم يجب خوان ، إذ كان ينظر بانتباه إلى الحاضرين، وهم يقومون بإنزال النعش فى الحفرة بالحبال، وكيف أنه بعد ذلك قام "سيكون" وثوسيمو بإنزال التراب وبقايا العظام البيضاء فوق الحفرة، وبعد ذلك قام ميلتشورين بوضع الصينية، وأخيرًا لا شيء.

وعندما حان وقت الغداء قال خوان لوالده :

– يا بابا.

لكن الأب لم يسمعه ، إذ كان ينصت للحوار الدائر بين إخوته الكبار وينظر باستلطاف واضح إلى أدولفو الذى تؤنبه والدته لأن ملابسه وقعت عليها بعض البقع ، وهكذا فإن خوان كرر النداء "يا بابا" أربع مرات، وعند المرة الرابعة توجه إليه والده قائلاً:

– بابا، بابا، لا تختفى أبدًا هذه الكلمة من فمك ، ماذا تريد؟

قال خوان بخوف :

– سوف يهدينى بونى الحداد أرنبًا.

– قال الأب وهو متشاغل : حقًا؟

– الأرنب لأدولفو ولى ، أضاف خوان.

– ضحك الأب – لأدولفو أيضًا؟ ولماذا تريد أرنبًا؟ هل يمكن أن أعرف؟

– فقال أدولفو : حتى يطير.

تدخل خوان..

– حتى يلد، فالحمام هو الذى يطير، يقول بونى ..

– أضاف الوالد : اسكت أنت، اترك الطفل.

– قال أدولفو : الأرانب لها أجنحة.

وضحك والده، وضحكت والدته، وضحك أيضًا الإخوة الكبار.

وفى صباح اليوم التالى أتى خوان بأرنب وليد يجمع بين اللونين، الأبيض والبنى ، وقد وضع الأرنب فى قفة صغيرة وقال:

– يا ماما، هل عندك صندوق خشبى؟

لكن الأم كانت تأخذ حمّام شمس وهى، فى إغفاءة، على "الشيزلونج"، ولم تجب، فعاد خوان للسؤال مصراً، وهو يحرك القفة، كأنها بندول حتى فتحت الأم عينيها بعض الشىء وغمغمت:

– هذا الطفل يأتى دائمًا فى الوقت غير المناسب! فى الكهف هناك صندوق على ما أعتقد ، ونزل خوان إلى الكهف وصعد ومعه الصندوق، واهتم لويس بالأرنب فأخرج شنطة العدة وجهز الصندوق بشبكة معدنية وصنع به بابًا صغيراً ليدخل منه الأرنب ويخرجه ، وعندما رأى خوان

أخاه يعمل بجد وحماس قال له:

– سيلد هنا وهو فَرِح، أليس كذلك يا لويس؟

لكن لويس المشغول بمهمته لم يكن يسمعه:

– جميل ذلك الأرنب الذى أعطاه لى بونى ، أحقًا يا لويس؟

وقال لويس فى النهاية بطريقة روتينية :

– نعم جميل .

اقترب أدولفو من خوان

– سأل : هل هذا بيت الأرنب؟

– قال خوان: نعم، إنه بيت الأرنب، أيعجبك؟

– قال أدولفو : نعم.

وفور انتهاء لويس من عمله جذب خوان القفة بحرص وفتح الباب ووضع الأرنب بالداخل ، كان الطفل ينظر للحيوان وهو يقوم بإحداث تجاعيد متوالية فى فمه ويغير وضعه، ويحرك أذنيه، ويقول:

– إنه سعيد فى هذا البيت، أليس كذلك يا لويس؟

– يقول لويس : بلى، إنه سعيد.

– سأل أدولفو : وسوف يطير؟

مال خوان برأسه إلى مستوى رأس أخيه وقال له:

– الأرانب لا تطير، يا أدولفو، فما يطير هو الحمام ، وإذا ما عنيت جيداً بالأرنب فإن بونى سوف يعطينا حمامة.

– قال أدولفو : نعم.

جرى خوان نحو لويس الذى أخذ يتجه نحو البيت وهو يحمل شنطة العدة فى يده :

– قال له : يا لويس ، هل تصنع لى بيتًا آخر إذا ما أعطانى بونى حمامة؟

– همهم لويس ، حيوان آخر؟

نظر إليه خوان وهو مبتسم، لكن به بعض التبرُّم ، قال:

– بونى سوف يعطينى آخر أفراخ الحمام، إذا ما اعتنيت جيدًا بالأرنب.

– قال لويس : حسن، سأرى.

وعاد خوان حيث ترك الأرنب وأخذ يرى كيف يحدث الارتعاشة فى فمه الوردى وكيف يدق قلبه بين ضلوعه ، بعد ذلك أخذ أدولفو من يده وأتى إلى حيث والده .

– قال : يا بابا ماذا تأكل الأرانب؟

اتجه إليه الوالد وهو يشعر بالمفاجأة .

– قال : لست أدرى ! الخُضرة ، على ما أظن .

– نعم ، قال خوان وهو خائف، وجرى إلى حيث والدته وقال:

– يا ماما ، ما معنى "خُضرة"؟

– يا يسوع، يا له من طفل ثقيل – قالت الأم – "خُضرة"، لكن من أى نوع؟

– يقـول والدى إن الأرانب تأكل "الخـضـرة"، ولكنـى لا أعـرف مـا معنى "خضرة".

– آه "خضرة"! – أجابت الأم : إذن هى الحشائش.

فى المساء ذهب الطفل إلى الحداد.

– قال له : يا بونى ، ما الذى تأكله أرانبك؟

انتصب بونى الحداد بعد جهد وهو يضغط على كليتيه بيديه ، لكن لم يعتدل تماماً.

– قال: حسن، حسن، الأرانب شـهيتـها جيدة ، تأكل أى شىء – وبداية يمكن أن تطعمه الكرنب والخس، فإذا ما أكل جيداً فـأعطه جزراً للتحلية.

أخذ خوان يد أدولفو – فقال أدولفو:

– أنا لا يعجبنى ذلك.

– استفهم خوان. ، ماذا؟

– قال أدولفو : ذلك.

كل صباح يحمل خوان للأرنب طعامه من الكرنب والخس، ويضع له فى بعض الأيام الجزر كذلك لكن الأرنب لا يكاد يقضم إلا جزءاً صـغيراً ثم يتركه .

– يقول أدولفو : لا يطيب له ذلك – فيشـرح له خوان بهدوء أن معدة الأرنب مليئـة بالكرنب والخس وليس هنـاك مكان للجـزرة ، كـان أدولفـو ينفى ذلك بشدة بهز رأسه:

– يقول: لا يطيب له ذلك.

فى البداية كان الأرنب خائفًا، لكنه سرعان ما لاحظ أن الصغار كانوا يأتون ليضعوا له الطعام، وبالتالى كان يجلس مقعياً ليأخذ أوراق الكرنب ويأكلها أمامهم ، لم تعد أضلعه ترتعش عندما يأخذه الأطفال، وكان يروق له أن يرقد ممدداً تحت الشمس فى أحد الأركان وذلك عندما كان خوان يخرجه من الكهف لتهويته ، على أى الأحوال كان خوان يبعد الأرنب عن البيت ذلك أن أمه قالت فى اليوم الأول إن "هذا الحيوان له رائحة مقززة".

بانتهاء الصيف بدأ المطر، المطر البطىء وغير المنقطع، وكان خوان يهرب من الرقابة عليه كل يوم من أجل البحث عن الخس، وكل مرة يعود بحزمة منه ، وكان الأرنب ينتظره مقعيا ومتلهفًا فيقول له خوان:

– إنه جائع ، "هه"؟

وبينما يأكل الأرنب، يضيف خوان.

– لم يأت أدولفو لأنهم لم يتركوه، أتعرف؟ إنها تمطر وعندما يتوقف المطر سوف أخرجك للشمس.

توقف المطر فى اليوم الرابع بشكل مفاجئ ، شهد خوان زرقة السماء وهو على سريره، فأخذ يجرى حافياً نحو الكهف لكن الأرنب لم يستقبله مقعيا ولا حتى واقفًا على أربع فى أحد الأركان كما كانت عادته فى الأيام الأولى، لكنه كان مستلقياً على جانبه وهو يتنفس بصعوبة ، وضع الطفل يده من خلال الشبكة المعدنية وداعبه، لكن الحيوان لم يستجب ولم يفتح عينيه.

سأل خوان:

- قال : أنت مريض؟

ولما لم يكن هناك رد فعل من الحيوان، فتح خوان الباب بسرعة وأخرجه، استمر الحيوان مستلقيًا دون حيوية ، رعشة خفيفة فى فمه وتنفس سريع وغير منتظم ، وضعه خوان على الأرض وجرى بجنون نحو المنزل صائحاً:

- يا ماما، يا ماما! الأرنب مريض جداً.

نظرت إليه الأم وهى مغتاظة وقالت:

- دعك من الأرنب الآن والبس حذاءك .

انتعل خوان الشبشب وبحث عن أدولفو وقال له:

- يا أدولفو ، إن الأرنب يموت.

فقال أدولفو :

- لنر.

- فقال خوان وهو يأخذه من يده : تعال.

كان الأرنب الممدد على جانبه فوق الحشائش عبارة عن قبضة من القطن لا يكاد يتحرك .

سأل أدولفو :

- هل يغالبه النوم؟

- أجاب خوان برصانة شديدة قائلاً : لا.

– سأل أدولفو : لماذا لا يفتح عينيه؟

– قال خوان : لأنه سيموت.

وفجأة ترك يد أخيه وجرى إلى دكان الحداد وقال له:

– يا بونى ، الأرنب بحالة سيئة.

وضع بونى الحداد يديه على كليتيه قبل أن يعتدل.

– ربما لا يكون الأمر خطيراً .

– فقال خوان : نعم – لا يريد المشي ولا حتى أن يفتح عينيه.

– فقال بونى : عجبًا ، حقًا إنك كنت مهتمًا به.

لم يجب الطفل ، أخذ بيد الحداد الساكنة وداعبه وشده من يده قائلاً:

– هيا يا بونى .

– هيا بنا، هيا بنا – قال الحداد محتجًا – وماذا ستقول أمك؟ أنت تعرف أن أمك لا يروق لها ألا يتدخل أحد من القرية فى شيء هناك.

لكنه سار مع الطفل، وعند الوصول إلى الباب قال محذراً :

– هيا أحضرا الأرنب ، فأنا لن أدخل.

وعندما عاد الطفل يحمل الأرنب كان أدولفو يجرى متعثراً خلفه، وعندما رأى الحداد قال له:

– هل سيطير يا بونى ؟

تأمل الحداد الحيوان بتمعن:

– يطير، يطير . ، نعم إن الحيوان فى وضع الطيران – عاد بنظره إلى خوان – هل تغير له السرير؟

– أى سرير؟ سأل الطفل.

– هل تريد أن يكون الأرنب ذكيًا مثلك، وبالتالى لا ترتب له السرير؟

– قال خوان بتواضع : أنا لم أكن أعرف .

ازداد الحداد إصراراً.

– ربما قدمت له الطعام وهو مبلل.

وافق خوان :

– كان المطر ...

– تمطر ، تمطر ، واصل الحداد ، وليس عندك مطبخ لتجففه؟ خذ بالك،عليك أن تعرف أن الخس المبلول هو بالنسبة للأرانب كالسّم.

– السّم؟ غمغم خوان مذعوراً.

– نعم، سم، هو ذاك ، يتخمر فى معدتها وتنتفخ حتى تموت ، و أنت الآن تعرف ، اعتدل الحداد، وكان خوان ينظر له فى حيرة وقال في النهاية :

– هل يمكن علاجه؟

– قال الحداد : علاج ، علاج، طبعًا يمكن علاجه، لكنه ليس سهلا والأسهل منه أن يموت .

قاطعه خوان:

– أنا لا أريد أن يموت الأرنب يا بونى.

– فعقب بونى : ومن يريد الموت يا بُنَى؟ إنها أمور مكتوبة.

– سأل الطفل بشغف ، مكتوبة؟ من يكتبها يا بونى؟

نفد صبر الحداد وقال بجفاء:

– يا له من سؤال !

كان أدولفو ينظر من قريب لدرجة أنه يمكن أن يشم الأرنب، وبعد هنيهة وهو جالس القرفصاء، رفع نظرته الزرقاء، الشاحبة والتى تكاد تكون شفافة.

– إنه يشعر بالنعاس.

– قال الحداد : نعم – كثير من النعاس، والأمر السيئ أنه لن يصحو.

طأطأ سريعًا وربَت على عضد خوان وقال له:

– انظر يا بنى، أول شىء تفعله لهذا الحيوان هو أن تضعه فى سرير جاف.

ارتعشت جبهة خوان وقال مستقصيًا :

– سرير جاف؟

– أى كومة صغيرة من القش.

– فقال أدولفو : يغالبه النعاس – يغالبه النعاس.

– أغلق فمك ! – قال الحداد مقاطعًا – وبعد ذلك لا تعطه أى طعام طوال النهار وحتى الغد، فإذا ما رأيته قد استرد بعض قوته فأعطه

الطعام. ، وربما آتى أنا ، وإذا ما استرد بعض قوته فأبلغنى بذلك إما عن طريق بونى أو أن تأتى بنفسك ، وعندما أخذ بونى يسير فى الطريق المرصوف أخذ خوان الأرنب بعناية وأراحه على جنبه وفتح باب الحديقة ، قال لأدولفو وهما يسيران فى الشمس التى تكسو نباتات الخريف ، فقال بونى :

– سوف يكون الأرنب فى صحة جيدة.

نظر إليه أدولفو وقال :

– وسيطير ؟

– لا – واصل خوان – الأرانب لا تطير.

بعد ذلك وضع القش فى الدرج ثم وضع الأرنب فوق القش، لكن لويس كان يرى ما يفعل، وعندما أغلق خوان باب الدرج قال:

– إن هذا الأرنب يموت.

– لا – احتج خوان – قال بونى : إنه سوف يشفى.

– فقال لويس: هذا لا تَحْكِهِ لى .

فى هذه اللحظة أخذت تنتاب الأرنب انتفاضات غريبة فصاح أدولفو :

– انظر، إنه يجرى !

– قال خوان – إنه أفضل حالاً – لم يكن يتحرك قبل ذلك.

– قال لويس : إنه فى النزع الأخير – وفوق هذا يضايقنى كثيراً رؤية الحيوانات وهى تعانى ، سوف أقتله.

- لا ، لا ، لا..!

- اذهبا من هنا بهذا الأرنب.

- إنه يحتضر - قال لويس - الحيوان وحده يعانى.

فقالت الأم بصوت رحيم:

- اقتلاه.

أمسكه لويس من رجليه الخلفيتين ورأسه إلى أسفل.

- لا، قالها خوان، ولكن بصوت واهن - يقول بونى إنه سيشفى.

- نعم، اقتله - قال أدولفو بعنف سابق لأوانه يبدو من عينيه الزرقاوين ، أما لويس، وبدون مزيد من التردد، فضربه ثلاث مرات "بسيف" يده خلف أذنيه ، ارتعش الأرنب ارتعاشة خفيفة وأخيراً لوى رقبته نحو جسده، ثم ألقى به فوق الحشائش.

- انتهى . ، قالها وهو يفرك يديه كأنه ينظفهما .

اقترب خوان وأدولفو من الحيوان، فقال أدولفو :

- يريد النوم.

- نعم .. ، إنه ميت، قال خوان وهو ينحني ويداعبه بلطف.

كانت عيناه مبللتين واستمر فى المسح على جسده حتى صاحت فيه والدته :

- خذاه بعيداً، بحيث لا تشم رائحته! ادفناه !

نهض خوان فجأة وقال :

– هو ذلك يا أدولفو ، هيا لندفنه.

هبت عليه فجأة سعادة قوية وقال:

– نعم .

– ذلك – أصر خوان – هيا لنقوم بعملية الدفن.

دخل الكهف وخرج وهو يحمل الفأس على كتفه، وبعد ذلك أعطى لأدولفو قطعة من ورق الكرتون وقال له:

– على هذه الورقة يضع الناس النقود ، أتعرف؟

– النقود، هو ذاك – قال أدولفو بفرحة :

وأمسك خوان الأرنب من رجليه الخلفيتين وأخذ يسير فى الممشى المُسيج بنباتات الخريف، يحمل الحيوان في يد والفأس على كتفه وهو يترنم بأغنية غير مفهومة ، وسار خلفه أدولفو بمسافة قصيرة وهو يحمل قطعة الكرتون كما لو كان يحمل صينية، وصاح فجأة :

– إنه يتبول، إن الأرنب يتبول.

توقف خوان ورفع الأرنب إلى أعلى ورأى السائل الذى أخذ يسيل على جلده الأبيض ويسقط على بلاط الممشى ، نظر من جديد وهو غير مصدق، وهنا صاح وهو يدير رأسه نحو المنزل :

– يا بابا، يا ماما، يا بورى ، يا لويس، الأرنب تبول وهو ميت! لكن لم يجبه أحد.

***

CARMEN LAFORET

كارمن لافوريت

ولد فى برشلونة (سبتمبر ١٩٢١) - ربة بيت حازت شهرة كبيرة بروايتها " NADA" " لا شىء"، والتى حصلت بها على جائزة "نادال" عام ١٩٤٤ ، ومن بين أعمالها القصصية الأخرى مجموعتها "جزيرة الشياطين" ومجموعتها "النداء".

حصلت على عدة جوائز منها الجائزة الوطنية فى الآداب - سربانتس عام ١٩٥٦ .

ونشر لها العديد من القصص القصيرة فى المجلات الأسبوعية والشهرية كما طبعت بعض مجموعاتها ولكن على نطاق ضيق.

***

العـــودة

كانت فكرة سيئة ، فكر خوليان بينما أخذ يضرب جبهته فى الزجاج ويشعر أن برودته الطرية تصل حتى إلى عظامه المتناسقة والمرسومة بدقة تحت جلده الشفاف ، كانت فكرة سيئة تلك المتمثلة فى إرساله إلى البيت ليلة عيد الميلاد المجيد ، وفوق كل هذا أنه أرسل به ليعيش فى البيت بصفة دائمة وقد شفى تماماً ، كان خوليان رجلاً طويل القامة، وضع فى معطف جيد أسود اللون ، كان رجلاً أشقر، عيناه

وعظمتا صدغيه بارزة كأنها أمور تميز نحافته ، إلا أن خوليان يتمتع الآن بمظهر جيد ، وكثيراً ما تقوم زوجته برسم علامة الصليب بيديها كلما رأته ، مرّ وقت كان فيه خوليان عبارة عن حفنة عروق زرقاء وسيقان كأنها عصى طويلة ويدين كبيرتين كأنهما أغصان ، كان ذلك هو حاله منذ عامين عندما أدخلوه تلك الدار التى وإن بدا أنه غريب عنها إلا أنه لم يرغب فى الخروج منها.

– غير صبور على الإطلاق ، أليس كذلك؟ .. ، سرعان ما سيأتون للبحث عنك ، قطار الساعة الرابعة على وشك الوصول ، بعد ذلك يمكن لحضراتكم تناول وجبة الخامسة والنصف. ، وستكونون هذه الليلة فى المنزل للاحتفال بعيد الميلاد المجيد، يطيب لى يا خوليان ألا تنسى أن تأخذ أسرتك إلى قداس الميلاد عند منتصف الليل ، كنوع من التعبير عن الشكر. ، آه لو لم تكن هذه الدار بعيدة.. ، كم أن الأمر سيكون طيباً أن يكونوا جميعًا هنا هذه الليلة.. ، فى أطفالكما رقة وعذوبة يا خوليان .. "أحدهم" وخاصة الصغير، يبدو وكأنه المسيح فى المهد، أو أنه القديس خوانيتو، بخصلات شعره المجعدة وعينيه الزرقاوين ، أعتقد أنه سيكون خادماً كنسياً فوجهه يفصح عن إنسان ذكى .

كان خوليان ينصت إلى دردشة الراهبة وهو مشدود إليها بشدة ، يحب كثيراً هذه الراهبة ماريا دى لا أسونثيون، كانت امرأة بدينة وقصيرة، وجهها مشرق، ممتلئة الخدين كأنهما تفاحتان ، لم يشعر بها وهى قادمة فقد كان غارقًا فى أفكاره، وقد استعد للرحيل جالسًا فى صالة الزيارات الضخمة الباردة. ، لم يشعر بها وهى قادمة، ويعلم الله وحده كيف يمشين هؤلاء السيدات، بأحجامهن وملابسهن، برشاقة ودونما ضجيج كأنهن مراكب شراعية ، عندما رآها شعر بالسعادة ،

وهو آخر إحساس بالسعادة يمكن أن يواتيه فى هذه الحالة من حياته ، امتلأت عيناه بالدموع، وهذا هو حاله دوما إذ لديه ميل للعاطفية، لكن هذا الميل تحول خلال هذه المرحلة من العمر إلى ما يشبه المرض.

– لكن يا أخت ماريا دى لا أسونثيون . ، أريد أن أستمع إلى قداس منتصف الليل هنا مع حضراتكن ، أعتقد أن بإمكانى البقاء هنا حتى صباح الغد .. ، ويكفى أن أكون مع أسرتى يوم عيد الميلاد المجيد. ، كما أنكم أسرتى بشكل آخر ، أنا . ، أنا رجل شكور.

– لكن يا بنى ! .. ، هيا . ، هيا لا تقل أشياء غير منطقية ، فزوجتك قادمة لتأخذك معها الآن ، وعندما تكون بين أهلك مرة أخرى وتنخرط فى العمل ستنسى كل هذا وسيبدو لك كأنه حلم..

ذهبت الأخت ماريا دى لا أسونثيون وبقى خوليان وحده من جديد يعيش فى هذه اللحظة المُرة التى تمر به، ذلك أنه يؤلمه أن يترك مستشفى المجانين ، هذا المكان الذى يعتبر رمز الموت وفقدان الأمل بدا لخوليان ملاذاً طيباً ونجدة حسنة .. ، وربما كانت الدار دار سعادة خاصة فى الشهور الأخيرة عندما شعر كل من حوله بشفائه ، ويمكن القول أنه شفى لدرجة أنهم تركوه يتولى القيادة ! لم يكن ذلك دعابة إذ إنه أخذ كلاً من الأخت الرئيسة، والأخت مريم دى لا أسونثيون إلى المدينة لشراء بعض الحاجيات ، كان خوليان يدرك جيداً أنهما بحاجة إلى جرأة كبيرة حتى يتركا نفسيهما – واثقتين – فى يد مجنون ... أو مجنون سابق ثائر ، لكنه لم يكن ليخذلهما، إذ قاد السيارة بحكمة بيديه الخبيرتين، حتى إنهما لم يشعرا بأية مطبات فى الطريق ، وعندما عادتا هنأتاه ، بينما شعر هو ببعض الاحمرار فى الوجه كدليل فخر على ما فعل .

– خوليان ...

أمامه الآن الأخت روسا صاحبة العينين المستديرتين والفم المستدير أيضًا ، لم يكن يحب الأخت روسا كثيراً، ويمكن القول أنه لم يحبها على الإطلاق، فدائمًا ما كانت طلعتها تذكره دومًا بشيء غير سعيد فى حياته ، لم يكن يدرى ما هو ، وقد حكين له أنه فى الأيام الأولى لوجوده هناك حاول الاعتداء عليها أكثر من مرة ، وبدا دومًا على الأخت روسا خوفها من خوليان ، أما الآن، وعندما رآها فجأة، فقد أدرك وجه الشبه الذى يجمعها بأخرى ، إذ كانت تشبه زوجته المسكينة إيرمينيا التى كان يحبها كثيراً ، إلا أنه مع ذلك، أو ربما بسبب ذلك لم تنزل لخوليان من حلقٍ أبداً.

– خوليان، هناك مكالمة تليفونية، أرجو التفضل بالذهاب إلى جهاز التليفون، فقد طلبت الأم الرئيسة أن ترد بنفسك على المكالمة.

كانت "الأم" هى الأم الرئيسة بذاتها ، فكلهن ينادينها هكذا ، إنه لشرف أن يذهب خوليان للرد على المكالمة.

المكالمة من زوجته إيرمينيا، صوتها يأتى مرتعشًا من الطرف الآخر للخطّ ، طلبت منه أن يقوم بالسفر إليها بالقطار إذا لم يكن هناك مانع.

الأمر أن أمك مريضة بعض الشيء. ، لا، لا شيء يستحق، الأمر أنها تعانى من آلام الكبد المعهودة.. ، ولم أجرؤ أن أتركها وحدها مع الأطفال ، ولم أتمكن من الاتصال بك تليفونيًا قبل ذلك لهذا السبب حتى لا أتركها تتألم وحدها. ، لم يفكر خوليان فى أسرته أكثر من هذا، رغم أن سماعة التليفون فى يده ، فكر فقط أن الفرصة مواتية لديه ليبقى هنا تلك الليلة، وأن يسهم فى إضاءة الأنوار الخاصة "بالمشهد المجسم لميلاد

المسيح"، وأن يتناول العشاء اللذيذ فى ليلة عيد الميلاد المجيد، وأن يكون أحد أفراد الكورس فى غناء أناشيد الميلاد ، كان ذلك يعنى الكثير بالنسبة لخوليان.

– ربما لن آتى إلى المنزل إلا غداً. ، لا تنزعجى ، لا، ليس لشيء ما حدث ، فالأمر هو أنه لما لم تأت أنت، فإنه يطيب لى أن أساعد الأمهات هنا فى شيء ، فلديهن مشاغل كثيرة فى هذه الأعياد.. نعم ، سوف أكون فى المنزل ساعة الغداء ... نعم سوف أكون .. نعم سوف أكون فى المنزل يوم عيد الميلاد المجيد.

كانت الأخت روسا بجانبه تتأمله بعينيها المستديرتين وفمها المستدير ، كان هذا هو الشيء الوحيد الذى لا يروق له ، والذى يسعد بأنه سيتركه نهائياً. ، نزل خوان ببصره إلى أسفل وطلب بتواضع جمّ الحديث مع "الأم" فقد كان عليه أن يطلب منها هذا الطلب الخاص .

فى اليوم التالى كان القطار يقترب بخوليان من المدينة فى جو رمادى ملىء بالمياه والجليد مثلما هو الحال أيام أعياد الميلاد ، يجلس فى إحدى عربات الدرجة الثالثة محشوراً بين الديوك الرومى والدجاج وأصحاب تلك الطيور الذين بدت وجوههم تفيض بالبشر ، والثروة الوحيدة التى كانت لدى خوليان هذا الصباح هى شنطته التعسة ومعطفه الجلدى المصبوغ باللون الأسود، والذى أمده بالدفء ، وكلما اقترب القطار من المدينة كانت رائحتها تقترب من أنفه، وتصدم عينه تعاسة الأحياء الصناعية الضخمة ومنازل العمال ، أخذ خوليان يشعر بتأنيب الضمير لاستمتاعه كثيراً بالليلة السابقة، وتناوله كثيراً من

الطعام، وأنواع الحلوى المختلفة، وأنه غنى يمتلك النعمة الشجية التى كثيرًا ما كانت مثار عزاء فى كثير من ساعات الضجر والحزن التى كان يعيشها زملاؤه فى الخندق أثناء فترة الحرب الأهلية.

لم يكن لخوليان الحق فى ليلة عيد ميلاد هانئة ودافئة، ذلك أنه طوال سنوات عدة افتقد هذا العيد أى مغزى له فى منزله ، فالمسكينة إيرمينيا كانت ستشترى بعض الحلوى غير محددة المذاق والمصنوعة من عجينة البطاطس المضاف إليها الألوان الصناعية ، أما الأطفال فقد كانوا سيمضون نصف ساعة يحاولون مضغها بلهفة، بعد تناول الطعام الذى اعتادوا أن يتناولوه كل يوم ، وأبسط الأمور أن هذا هو ما كانت عليها الحال فى آخر مرة كان فيها هناك ، ذلك أنه قد مضت عليه شهور طويلة بدون عمل ، كان زمن نُدرة وقود البنزين ، كان يمتهن مهنة جيدة، لكن ساءت الأمور فى تلك السنة ، أخذت إيرمينيا تعمل فى مسح السلالم ، تقوم بمسح الكثير من السلالم كل يوم، لدرجة أن المسكينة لم تكن تجيد إلا الحديث – لدرجة الهوس – عن مسح السلالم، وعن الطعام الذى لا تجده ، كانت حاملاً مرة أخرى فى تلك الفترة ، شهيتها للطعام قوية ، هى امرأة نحيفة، طويلة القوام، شقراء اللون مثل خوليان ، طيبة الطبع تضع نظارة سميكة على عينيها رغم شبابها. ، لم يكن خوليان يستطيع تناول طعامه عندما يراها وهى تلتهم شوربة السوائل والبطاطا ، الشوربة والبطاطا، هذا هو الطعام اليومى فى الصباح والمساء فى منزل خوليان خلال شهور ذلك الشتاء ، أما الإفطار فإذا بقى شيء فهو للأطفال ، كانت إيرمينيا تنظر بنهم إلى اللبن الذى يتناوله الأطفال ساخنًا قبل ذهابهم إلى المدرسة. ، أما خوليان الذى كان أكولاً، حسب رواية أهله، فقد أحجم عن الطعام تمامًا.. ، وذلك أسوأ بكثير على

الجميع فقد أخذ رأسه يدور وأصبح عدوانيًا ، وذات يوم - وبعد أيام ظل فيها على قناعة بأن منزله أصبح جراجًا للسيارات، وأن الصناديق المحشورة فى المنزل ما هى إلا سيارات فخمة - كان على وشك أن يقتل إيرمينيا وأمها، بعدها أخرجوه من المنزل بقميص مستشفى المجانين و ... حدث له كل هذا منذ فترة ... فترة قصيرة نسبيًا ، وهو الآن يعود وقد شفى، وتم شفاؤه منذ عدة أشهر ، لكن الراهبات قد أخذتهن الشفقة به وسمحن له أن يبقى لمزيد من الوقت .. حتى عيد الميلاد المجيد ، وفجأة أدرك أنه كان جبانًا عندما حاول ذلك ، كان الطريق إلى منزله مزدانًا بواجهات المحلات ومليئًا بالكثير من محلات الحلوى .

توقف أمام أحد المحلات ليشترى تورتة ، كان معه بعض النقود التى ادخرها لهذا الأمر ، يكاد ينفر من الحلويات، من كثرة ما تناوله فى تلك الأيام، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لأسرته.

صعد سلم المنزل وهو يبذل جهداً كبيراً، يحمل شنطته بيد والحلويات باليد الأخرى ، كان المبنى مرتفعًا، والآن واتته رغبة مفاجئة فى الوصول إلى المنزل، فى أن يعانق والدته، تلك العجوز المبتسمة دومًا، التى دائمًا ما تخفى آلامها طالما استطاعت ذلك.

كانت هناك أربعة أبواب متهالكة مدهونة باللون الأخضر منذ زمن طويل ، أحد هذه الأبواب هو باب منزله ، طرق الباب.

رأى نفسه محاطًا بصيحات الأطفال، وبين ذراعى إيرمينيا النحيفتين ، ومحاطًا أيضًا ببخار دافئ قادم من المطبخ ينبئ عن طعام جيد.

- يا بابا إننا نطهو ديكًا روميًا!

كان هذا أول شيء يقولونه له ، نظر إلى زوجته وإلى أمه التى ظهرت عليها علامات الشيخوخة المتقدمة، كانت شاحبة اللون بسبب الآلام الأخيرة التى اعترتها، لكنها متشحة بكوفية جديدة من الصوف ، أما فى حجرة الطعام الصغيرة فكانت هناك سلة مليئة بالحلويات المختلفة.

- ماذا .. ، هل كسبتم اليانصيب؟

- لا ، يا خوليان.. ، عندما ذهبت أنت، أتت بعض السيدات.. ، من الجمعيات الخيرية، كما تعرف أنت. ، لقد أحاطونا بالرعاية، إذ هيأوا لى فرصة العمل وسوف يبحثون لك عن عمل فى جراج.

- فى جراج...؟ هذا طبيعى ، إذ كان من الصعب أن يعمل مجنون سابق فى وظيفة سائق ، ربما عملاً ميكانيكيًا ، عاد خوليان ينظر إلى أمه ووجدها دامعة العينين لكنها مبتسمة، مبتسمة كعادتها دومًا ،

وفجأة سقطت على كاهله المسئوليات والأكدار ، لقد جاء من أجل كل هذه الأسرة التى اجتمعت حوله، جاء خوليان لينقذها من مخالب الجمعيات الخيرية ، جاء ليجعلها تشعر بالجوع مرة أخرى بكل تأكيد ، جاء لـ..

- لكن ألا يسعدك هذا يا خوليان؟ ... لقد اجتمع شملنا مرة أخرى ، اجتمع شملنا فى عيد الميلاد المجيد .. وأى عيد هو! انظر !

- مرة أخرى أشاروا بأيديهم إلى سلة الهدايا وإلى وجوه الأطفال المتحمسة بالفرحة ، إليه هو ، إلى ذلك الرجل النحيف بمعطفه الأسود

وعينيه البارزتين، الذى كان شديد الحزن ، كان حاله مثلما كان يوم عيد الميلاد المجيد ذلك عندما خرج مرة أخرى من مرحلة الطفولة ليعود من جديد لرؤية الحياة بكل قسوتها التى تَسْتَكِن تحت تلك الهدايا.

***

MEDARDO FRAILE

ميداردو فرايلى

ولد فى مدريد عام ١٩٢٥ ، عمل أستاذاً بكلية الفلسفة والآداب – جامعة مدريد – له بعض الأعمال المسرحية الهامة فقد كان أحد مؤسسى الفرقة المسرحية المسماة "الفن الجديد" عام ١٩٤٦ ، ومن بين المسرحيات التى قدمها : الأخ ، كما قام بإخراج بعض المسرحيات وشغل منصب نائب مدير وناقد مسرحى فى مجلة **Agora** (١٩٥٧ – ١٩٦٤) ، ومن بين المجموعات القصصية التى نشرها: أقاصيص مع بعض الحب (١٩٥٤) تحت الضوء تتغير الأمور (١٩٥٩) أقاصيص حقيقية (١٩٦٤) وقد حصل بهذه المجموعة القصصية الأخيرة على "جائزة النقد" عام ١٩٦٥ .

يعمل منذ فترة أستاذاً ورئيساً لقسم الأدب الإسبانى بإحدى جامعات جلاسجو .

***

بنبون الليمون

أقف بباب المنزل الذى تعيش فيه السيدة / كوبوس، وهى زوجة السيد/ راميرو كوبوس العقيد الإدارى بالقوات الجوية ، إنه بطل لولا هذه اللفظة: إدارى ، تدق الساعة الثانية ظهراً والشمس تضرب بعنف ،

يتجه الناس – قلة هم الذين يسيرون فى الشارع فى هذه الساعة – مسرعين إلى منازلهم ، إنى متعب ، تأخرت فى بعض الأحيان حتى الساعة الثالثة، لكن لم أشعر أبدًا بهذا الألم العضلى فى خصرى ، وثقل ساقىّ وخاصة قدماى وعدم الرغبة – نعم عدم الرغبة أيضًا – التى أعيشها هذه اللحظة ، إنه يوم حار يكتم الأنفاس: فاليوم كئيب وساخن ، أنظر إلى حقيبتى – أطلق عليها هذا الاسم رغم أنها ليست كبيرة بل صغيرة – التى أحملها معى دومًا ، الحقيبة ثقيلة أيضًا، وساخنة ، وهى فى قمة الضجر لدرجة أنها على وشك التمزق كأن بها مواد متفجرة ، لا ، أو ربما نعم ، لست أدرى ، تحمل حياتى فى داخلها وهى حياة غير متفجرة لكنها قاتلة ، أعمال التطريز والإبرة ، ومفارش للموائد وزراير، وشرائط من قماش ، ومناديل. ، إنها فقاقيع ، هذا هو ما أبيعه: مجرد فقاقيع ، وأغلب الظن أننى لن أبيع غير هذا فى حياتى كلها.

البيع والشراء صعب مع السيدة / كوبوس ، فبعد ساعة من الحوار – حوار لطيف ومرهق – لا تستطيع اتخاذ قرار لإنفاق شلنين ، يضيع الوقت معها ، تجعل عقلى ولسانى يقطران شَهْدًا فهى تفعمنى بجمل حلوة لا تهضمها معدتى وربما طبيعتى .

نعم ، تعبنا أنا والشنطة ، ضربتنى الشنطة المسكينة فى ساقى ، ودون أن أشعر أخذنا طريقنا إلى المنزل .

الصباح؟ أكان طيبًا أم سيئًا؟ لست أدرى ، عمومًا هذا لا يهم كثيرًا: ويبدو أن الأهم هو أنه انتهى، لم يكن هذا يومى ولم يحدث أن كان ، عندما خرجت من المنزل كنت أعلم أننى اقترضت ذلك

اليوم ، إذ كان للسيد العظيم ، ألا وهو العمل الذى يملك جانبًا من كل إنسان ، حسن ، والدردشة – رغم أنها تكون مع النفس – كانت فى صالحى دومًا ، الأمر إذن هو أن معى فى جيبى – هل أعد – سبعون .. اثنان وثمانون بيزتة ، ليست كلها ملكًا لى فمن هذا المبلغ يجب أن أستقطع مستحقات الرئيس ، الخصم ليس أمر سيئًا ، العملية الحسابية الوحيدة التى أجيدها هى الخصم، فالرياضة بالنسبة لى هى استخراج نسبة مئوية معينة، وهذا أمر هين ، كانت الرياضة – منذ عدد من السنوات؟ الشغل الشاغل لوالدى الذى كان يردد على دائمًا "تعلم الحساب والهندسة والمحاسبة" ، والدى المسكين، بذلك الشارب وتلك اليدين البارزتى العظام ، وبهذا الصوت الخشن بعض الشىء ، يا للوجه الذى يصلح للأرقام الحسابية، لست أدرى ، هل أسير فى هذا الشارع ، فعلى الناصية تعيش أسرة مورا ، لا ، سأعود اليوم من هذه النقطة، وسوف أسير فيه يومًا آخر لأعرف ما الذى سيحدث .

لو قالوا لى إننى سوف أظل طوال حياتى أطرق الأبواب وأصعد السلالم وأتحدث بلطف وأرتبط بمواعيد وبالحقيبة النسوية والكفاءة التجارية، لما صدقت ذلك أبدًا ، لا ، بالطبع لا ، كنت فى صغرى أبحث عن أعشاش العصافير، وأضع شدات واقية على ركبتي ، وأدخن سجائر من التبغ الأسود خلسة ، أما الآن فلا أدخن ، وأستخدم بندقية قتل الكلاب، ذلك أن يداى طويلتان مثل رعاة البقر فى الغرب الأمريكى ، أنا ، ها أنا ذا، أنا ذلك الإنسان المثقل الذى يعود إلى منزله وقد قوّست الحقيبة ظهره وأخذته من يده كالكلب، لكنها تسير اليوم مكدودة .

أعتقد أن حرارتى مرتفعة بعض الشىء ، فحلقى جاف ، ربما كان السبب هو الدردشة مع السيد "كوبوس" أو هى حرارة الشمس، فبعد الحلوى والعسل يجب شرب الماء.

– اسمعى يا جدتى ! أعطنى من فضلك ثلاث حبات من البنبون .

لن ينتهوا أبداً من إصلاح هذا الشارع...

أظن أننى لم أشتر "كرملة" منذ وقت طويل ، إنها غالية الثمن ، ثلاث بريال ونصف كفى هذا ، فالأولاد الآن عندهم نقود ، وربما لا يأكل "الكرملة" هؤلاء الصغار الذرِّيون كحبات الرمل، نعم ، وما يجب أن يكون – ولو بشكل نسبى – هو أن ينفق الصبى – أى صبى – نقوداً أكثر من الرجل ، فأى طفل فى حوزته ريالان إلى ثلاثة يشترى ثلاث حبات من "الكرملة"، بينما الرجل لا يكاد يجتمع فى حوزته ريالان، بالإضافة إلى ريالين ثم ريالين اثنين .. ، حتى أربعين ريالاً ، هناك رجال يحصلون على ريالين ، أربعين مرة كل يوم ، أى عشرين بيزتة بالإضافة إلى المرأة والأولاد وهو مبلغ لا مناص من الحصول عليه إذا ما كان لدى المرء الزوجة والفقر.

لا يمكن أن أشكو، إنها الحقيقة.

نعم، لابد أنها الحمى ، أشعر بحرارة شديدة ، ومما يزيد الطين بلة هو أن أسقط مريضاً ويلازم كلانا الفراش ، لابد أننى أصبت بنزلة برد، ولذلك سوف أتناول كوباً من اللبن وكأساً من الكونياك، كأساً جيداً، لكن

من الأفضل ألا أقول شيئاً لبيلى فما يحدث هو أننى مرهق .

تعترينى السعادة لأننى اشتريت بضع حبات من "الكرملة" والبعض منا يفتقد هذا النوع من المشتريات مدى الحياة، كأن شراء الكرملة قاصر على الأطفال فقط، ولا نرى أبداً بشغف وحب اللون الأخضر أو اللون الوردى أو الأصفر أو الأحمر للكرملة ، هذه الحلوى عند الأطفال هى بمثابة غواية شيطانهم الصغير مثل ذلك مثل المرأة الغير شابة والجميلة عند الرجال ، والجدة التى تبيع "الكرملة" نظيفة المظهر وشعرها مصفف تصفيفًا جيداً وتلبس فى ذراعها الأيمن نصف كم أبيض مثل باعة منتجات الألبان ، أو مثل بائعة الفطائر ، لكن من الواضح أن نصف الكم هذا لا ينفعها فى شىء ، ستكون قد فهمت أننى اشتريت "الكرملة" لأولادى ، لكن لا ، ليس عندى أولاد يا سيدتى .

إن الكرملة لى أنا، قلت له: "أعطنى ثلاث حبات من " الكرملة " يا جدتى .. وأتحفتنى بواحدة بطعم البرقوق كأن الأمر سحب على جائزة، وأخرى بطعم الفراولة، وثالثة بطعم الليمون ، كل واحدة مرسوم على غلافها شكل الفاكهة التى تحمل طعمها بنضارتها ونضجها ورائحتها ، هذه هى "الكرملة" الحقيقية: تلك التى تجعل شدق الفم ينتفخ، وتصارع الأسنان، وتملأ الفم بالعصارة، وليست الأخرى الناعمة، التى لا تحدث صوتًا عند المضغ، وتدخل بين الضروس مثل الموسيقى البطيئة، صديقة التسوّس، مثلها مثل كابوس تم تَحْلية طعمه ، هذه الحبة بطعم الفراولة جيدة ، وهى أرخص من البيرة ، وها هو كوب البيرة الذى اعتدت تناوله فى بار "فلوريدا" معرّض للخطر الشديد، إذ سوف أتحول إلى عالم الكرملة السابق ، بها سكر، بها كربوهيدرات وهى مادة هامة،

على مـا يبدو، فـقد قـرأت ذلك فى Reader's Digest ، أما كـوب البـيرة اليومى فـهو فى حاجة إلى مـيزانيـة، وتضـيع البيزيتات بسـهولة دون أن يدرك المرء.

– فى رعاية الله، ويومًا طيبًا!

لا أعرف من ؟ ليست بيلى أيضـًا ، لقد سألت ذلك ذات مرة فقالت لى إنها لا تعرف ، إنه رجل يخلط بينـى وبين آخر لكننا نتبادل التحية ، حسن، ليس سيئًا أن يعرف المرء أنـاسًا آخرين، وسوف يكف ذات يوم عن تحيتى ، وهذا عندما يجد الآخر، ذلك الذى يعتقد أنه يحـييه، هذا الذى يعرفه حقًا ، وربما كان رجلاً طيبًا يلقى بالتحية على أهل الحى ، ولم لا؟ إنها وسيلة للذهاب إلى ما هو أعمق.

– أهلاً يا خوليا !

نعم هذه ، أعرف من هذه، إنها بوابة المبنى الذى أعيش فيه، دائمًا مسـرعة، تصـعد السـلالم وتفـتح لى باب المصـعد، وهذه عـادتهـا دومًا ، ورغم أن المبنى مـتواضـع إلا أن بـه مـصـعدًا، وكذلك توصـيـلات الغـاز فى كل شـقـة ، ومن الواضح أن المصـعـد بطىء ، فـقـد تم تكوينه ببـعـض الألواح ، ويحدث ضـجيجًا ، ولو أن أزرار الأدوار فيه حمـراء ، وسرعـان مـا يكتشف المرء أن المصعد ربما راقت له خدمة أناس آخرين، وأن هذا المبنى لا يعـجـبه ، ففـى داخله يشم المرء رائحـة المقليـات، وأعلى سطـحـه بقـايا السـمك وقد علتهـا الأتربة، كمـا تعلقت به بقايا متـعـفنة من قشر البطاطس ، يا له من مـصـعد مسكين حيث يعلو ويهبط فـى المنور دون أن يحمل أثاثًا مـخمليًا أو كنبة.

لنرى إذا مـا كانت بيلارين أحسـن حالاً، تلازمـهـا أعراض مرضـية منذ زمن: آلام فى الخـصـر أى المبـيـضـين.كمـا أن الحلق يؤلمها بعض

الشيء ، حقًا، عندما نظرت إليها نظرة فاحصة هذا الصباح بدت وكأن هناك بقعة بيضاء على الجانب الأيسر ، إنها لوحة ، من المؤكد أنها نهضت لتنظيف البيت من الأتربة، وأحيانًا ما أظن أن ما تقوم به من أعمال النظافة ليس إلا نوعًا من الهوس ، وأغلب الأيام منذ عودتى تجعلنى أسير فوق بعض أوراق الصحف حتى لا تتسخ الأرضية ، حاولت فى البداية إقناعها بأن ردهة المنزل ليست شيئًا مقدسًا أو مرآة أو طبقًا، بل إنه طريق، مثل أى ممشى فى أى منزل يوطأ بالأقدام حتى ينتقل المرء من حجرة إلى أخرى ، كان ذلك فى البداية، منذ سنوات طويلة.

آه، لقد نسيت أن أطلب المصعد، حسن، نعم، حسن ها هى تنظر إلى من خلال الفتحة الصغيرة، البومة التى تقطن فى المواجهة ، أمر مثير للفضول هذا الذى يتعلق بالتربية ، فأى إنسان على خلق فى وسط ليس وسطه معرض للمتاعب، وهذا ما يحدث لى ، حتى يأتى يوم ويضيق ذرعًا بما حوله.

حسن! لقد رأتنى جيدًا، هل أغلق بابى إذن؟ وإذا لم يكن كافيًا أنتظر بعض الوقت ، نهايته، آسف ، بعد إذنك.. ، يا للقرف!

– يا بيلارين !

المسكينة وجهها ليس على ما يرام.

– أتريدين ماء ؟ انتظرى .

ادخل المطبخ ، هناك أربع أوان غير مغسولة ، لابد أنها متوعكة جدًا.

– يا بيلا! يا بيلوكا ! يا بيلارين ! أنت لست على ما يرام، من الواضح أنك تريدين النوم ، فلتنامى ، نعم، لا تشغلى بالك ، نعم يا امرأة، أدرك ما يحدث، قلت لك لا تقلقى ، أعرف مكان كل شىء ، وسوف أجدها ، نعم أول شىء هو السمك وبعد ذلك اللحم، وأيضًا السلطة نعم أعرف ، الجو حار فى الخارج أتعرفين ذلك؟ أنت هنا أفضل ، فى الحجرة ، هكذا مع النافذة شبه المواربة يكون هناك بعض الهواء .

سيكون الوضع مثل المرة السابقة ، إنها متهالكة جداً .

السمك ! فلنأكل شيئًا ، ها هو لا يبدو أنه طازج وربما كان طعمه أو رائحته نفاذة، ربما حمضية ، لا أجد الخبز، ما علينا، نعم ما علينا، لكن العثور على الخبز هو أمر ضرورى ، فإذا ما أدركت بيلى أننى آكل بدون خبز، ستهب ناهضة من سريرها ، سأتناول بعضًا منه فيما بعد فى حوالى السابعة.

والآن حان تناول اللحم والسلطة ، اللحم "ماسخ" ، يبدو كما لو كنت أمضغ قطعة مطاط، إنه لحم خاو من كل شىء ، أخذ يترك ما به من قيمة غذائية على ألواح الرخام فى الفترينات ، إنه لحم ليس للأكل، بل لندعه جانبًا، لنواريه التراب، وبمجرد مضغه يعنى نوعًا من العدوانية ، لست أدرى لماذا، ولماذا أشعر بالدهشة لكن هذا هو الحال، والسلطة لا تروقنى أيضًا ، إنها غير مكتملة النضج ، نيئة ، وحزينة ، أعتقد أن بين طبقاتها الكثير من مادة التلوين ، ياللحزن ! تقفز دموعى من مآقيها، ومن الواضح أن الخضرة تؤذى عينى ، هناك رمل على حافة الطبق ، لا، إنه دخل من المنور عبر النافذة، ما ينقص هذه المائدة هو

الخبز، لكن الأكثر من ذلك هو غيبة بيلى ، يا بيلى ، لماذا أنت مريضة؟ بماذا تشعرين؟ ما اسم مرضك؟ وأين تشعرين بالألم.

بيلى مريضة ، وعكة بسيطة وتزول ، لكن المرض يعلن عن نفسه، وبيلى تطيع المرض وتلزم الفراش ، تطيع الغموض، كما لو كانت كلمة امرأة تؤذى جسم الغموض ، وربما أن بيلى لم تمرض، ربما أننى تزوجتها وهى مريضة.

- لقد أحضرت لك يا بيلارين حبات "كرملة" خذى ، أما تريدين هذه بطعم البرقوق ، حسن لقد تركت لك "حبة" بطعم الليمون، سأرافقك هنا على السرير الصغير فى صمت، إنى متعب بعض الشىء .

السرير الصغير ، أنام جيداً بعض الليالى عندما تكون متعبة ، وعندما يكون المرء متزوجًا يكون من سعد طالعه أن ينام وحده على السرير الصغير ، لم يرق لى الأمر فى البداية لكنه الآن صديق قديم ووفى ، وأجد نفسى أنام بحرية، بحرية شديدة كبحار وحيد ، إننى سعيد لوجود هذا السرير، أما زوجتى فهى مبحرة فى سرير الزوجية .

كم هو جيد ورق هذه "الكرملة" يثير البهجة ويطيب لى أن أراه ، وأود ألا أفسد ألوانه بيدى ، فعلى أحد جوانبه عند الحافة هناك شجرة ليمون فارعة مكتملة تمتد غصونها حتى وسط الورقة، وتظهر ثمرة الليمون الصفراء بين الأوراق الخضراء وبينها زهرة بيضاء ، الأصفر والأخضر، أخضر وأصفر وأبيض.. ، أما مذاق الكرملة فيذكرنى بشىء .

أعتقد أنه يعلنه لى ، كما لو كان هذا الطعم – منذ سنوات مضت – قد تذوقته فى يوم محدد وقابعًا هناك فى هذا الزمن، فى هذا اليوم الذى كان فيه اللعاب ممتلئًا بطعم الليمون الحمضى ليضىء اليوم ويكتشفه من جديد ، فاللعاب يدخل الجسم وينساب فيه حمضيًا دافئًا ويصل إلى نقطة فيها لوحة قديمة تائها تضاء،يدخل إلى ركن كان ينتظر هذا المطر اللزج منذ سنوات عديدة ليتذكر ، وتثير فقاعات الكرملة فقاعات مياه غازية، وبوخزة حمضية فى الفكّ، بسبب صيحة المتعة تضىء الشمس كل جوانبه، وتعود الأعصاب للعمل، ويقوم العقل بتأثيث مركز الذاكرة بالبيانات .

ذات صباح طويل فى تلك القرية والأطعمة تحرق الهواء الذى يحمل رائحة المطبوخات ويسخن الأرض والبلاط، وحبات القمح فى الشقوق ، صابون، قداس، لافتات، عطر نسائى على الرصيف، دخان رجال على النواصى ينفثون بخاراً من الحزن على الأطفال ، بنطلون قصير مقلم واسع جداً من الخلف، وحذاء العيد يضغط على مؤخرة القدم مثل كلب صغير ، يترك أثراً ، وشعر مبلل يقطر ماء من خلال غطاء الرأس ، إنها "لاورا" ، نعم أتذكر حكاية لاورا ، لم أكن أريد ذلك وكنت حزينًا ، كانت تقفل فتحات الضوء وتصلح هندامها فى الظلام فى حجرتها ، تقبلنى وتضغط على بين فخذيها حتى أفتح النافذة وأبدأ فى تسريح شعرى ، ثم بعد ذلك كانت تصنع لى كعادتها كرة من المشمع على الموقد.

وذات يوم جاءت سيدة، تقول أمى إنها ابنة أختها، فقد كانت لأمى بنات الإخوة اللائى لم يكن بنات خئولتى، وهن هؤلاء التى تطلق عليهن هذا اللقب فى الحمّامات العامة أو أثناء إحدى الرحلات ، "لا لم يكن

الولد اليوم طيبًا – كانت أمى تقول ذلك – لا تعطه شيئًا" ، ورغم أن ذلك لم يكن حقيقة ، فقد كنت متأكدًا أننى تصرفت جيدًا ، كنت طيبًا لكننى كنت أفكر فى لاورا، وتصعد فى حلقى غصة وتصل حتى عينىّ ، وتنزل دمعتا محكوم عليه قديم، لتبتل أهدابى ، أو تسقطان على الأرض ، كانت ابنة خالتى تبتسم، تريد أن ترانى ، أروق لها رغم أننى آتى ووجهى شاحب من الخوف، كما اعتلته التجاعيد واعتراه الحزن من الحجرة غير المفهومة ، كان فم لاورا جميلاً ، وبعدما حدث ذلك، كنت على انفراد، أقوم بتقليد فمها وحركتها أمام المرآة محاولاً إتقان هذه الطقطقة الجميلة باللسان مع سقف الفم.. ، فتحت حقيبة يدها وأعطتنى حبة كرملة ، تلك الكرملة أحرقت فمى بعصارتها وملأت جسدى الصغير بأحلام عظيمة ، كنت آدم ، هذا ما كانت تقوله لى أمى أحيانًا كثيرة ، لكنها لم تكن تشك أنى فعلا آدم الذى أذوب حبًا فى لاورا، وآدم شبه إلهى وعاشق لابنة أختها ، وقذفت حقيبة يدها عندما فتحتها تنهيدة المطر، هو نفسه الذى تركته فى إحدى يدى وهى اليد التى لم أغسلها عندما يحين وقت تناول الطعام ، كم من الوقت استمرت هذه الأمور؟ لم أعد أراها بعد ذلك أو ربما رأيتها ، ربما كانت "أماليتا" رغم أنها كانت كأخت لها .. أتذكر أماليتا جيدًا كنت أبلغ آنذاك الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر.

كنت صغيرًا عندما وقع ما أشرت إليه قبلاً، أريد أن أقول موضوع الزيارة وحبة الكرملة ، أتذكر فى تلك الآونة مباريات مصارعة الثيران، ربما كانت فى ذلك اليوم مباراة مصارعة الثيران، وهذا هو سبب الزيارة ، كنا ذاهبين إلى منزل الجدة ونرى الناس المتجهين إلى المباراة ، وقبل المباراة بساعة كان الشارع تنبعث منه رائحة الدم والسيجار والعرق

وروث الخيل ، كان يطيب لى الذهاب إلى المشى المؤدى إلى الفناء، حيث النساء يقمن بكى الملابس، كما أن صوت أمى يكون أكثر بعداً عندما تناديني ، ألم تكن أمى أكبر منى كثيراً؟ كان يسمع صوت أبى وهو يصيح بعد ذلك واصفًا المصارع أرميتيتا كقاذف للسهام وهو يكاد يطير ملامسًا ظهر الثور "كايتانو"، أو واصفًا آخر بهلوانيات المصارع خوان بلمونث ، وأخذ المساء يحل شيئًا فشيئًا وطارت آخر العصافير وبدأ يَهلّ أول الخفافيش ، ورويداً رويداً أخذت الأسلاك الممددة لحبل الغسيل تبرد شيئًا فشيئًا...

كرملّة الليمون ! لقد ذابت بسرعة غير عادية، لكن الغموض يستمر ولا أكاد أدرى لم أتى على المخيلة الكثير من الذكريات ، فى ذلك اليوم كنت قريبًا من عالم ابتعدت عنه نهائيًا ، ألم أكن ذلك الطفل الذى يستعد فى تلك الأيام لكتابة "الفردوس المفقود" أو "الكوميديا الإلهية"؟ لقد ضاع شىء ثمين فى تلك الآونة وحل محله أمر بسيط يواصل الطريق.

بالتأكيد هناك حبة الكرملة التى تذكرنا بليلة الزفاف والحبة التى تسير بذاكرتنا إلى ليالى أعياد الميلاد المقدسة حيث طرق الحظ الباب من خلال ورقة اليانصيب، وحبة الكرملة التى تسهم أيضًا فى ميلاد ذلك الأسبوع الذى أصبحت فيه مديراً لشئون الأفراد.

آه لو تعرف بيلارين ما أفكر فيه .. ، لن أقول لها ، فعندى إحساس أننى خدعتها بحبة الكرملة هذه ، أنا لست على ما يرام ، أريد أن يداعب النعاس جفونى .

***

IGNACIO ALDECOA

إيجناثيو الديكوا

ولد في مدينة بيتوريا (يوليو ١٩٢٥) توفى فى مدريد عام ١٩٦٩ ، درس فى كلية الآداب والفلسفة بجامعتى سلامنكا ومدريد ، تنقلّ بين العديد من الأقاليم الإسبانية وعاش فترات ليست بالقصيرة فى عدد من الجزر الإسبانية.

من بين أعماله الروائية الشمس الكبرى (١٩٥٧) جزء من حكاية (١٩٦٧) ، وكثيرة هى مجموعاته القصصية "ما قبل الصمت" (١٩٥٥) انتظار الدرجة الثالثة (١٩٥٥) القلب وثمار أخرى مرة (١٩٥٨) حصان مصارعة الثيران (١٩٦١) العصافير وخيال المآتة (١٩٦٢) .. وقد صدرت له الأعمال الكاملة فى القصة القصيرة فى جزئين - دار نشر مدريد عام ١٩٧٣ - وأعيد طبع هذه الأعمال ثمانى مرات حتى الآن ، حصل على عدد من الجوائز المحلية الهامة.

وقد ترجمت أعماله لعدة لغات .

***

الـوداع

كان المشـهد سينمائيًا من خلال زجاج باب الديوان ونافـذة المشى، فضـاء تجول فيـه العين، أما سـرعة القطار فكانت تحدث أثر العمق ، هناك اللون الأصـفر للأراضى المزروعة قمحًا، واللون الرمـادى ، واللون الأكسيدى الأحمر للحقول التى تحددها الخضرة النضرة للكروم ، والتى تتتابع بشكل رتيب مثل إيقاع سير القطار.

كان الوقت أحد أيام الصيف بعد الظهيرة، لا يكاد الركاب يتبادلون فيه الحديث اللهم إلا نتفًا من جمل ، تضرب الشمس فى نافذة الديوان رغم إسدال الستارة البلاستيك ، إيقاع سير القطار يقوم بتجزئة الزمن وجمعه ، كأنه ساعة وترنيمة ، يتأمل الركاب بعضهم بعضًا دون فضول ، والملل المرهق للرحلة جعلهم يغفلون عن علاقتـهم الطارئة ، تصـرفـاتهم شبه أسرية لكن كان فيهم البعد والتحفظ .

عندمـا أخـذت تقل سـرعـة القطار نـهضـت الفتـاة الجـالسـة بجـوار النافذة، فى اتجاه السير، وأخذت تصلح وضع القبعة، وتضبط حزامها بحركة سريعة من يديها وهى تتمايل، بعد ذلك أصلحت بيدها شعرها الهائج كأنها قد استيقظت من نومها.

سألت :

– أى محطة هذه يا عمتى ؟

أجابها أحد من الرجال الثلاثة الذين هم فى الديوان، قبل أن يكون لدى المرأة الجالسة أمامها فرصة للرد عليها.

– هل هناك كانتين؟

– لا يا آنسة ، فى المحطة القادمة.

صدرت عن الفتاة تنهيدة يمكن أن تكون تعبيراً عن الضيق أو مجرد دعابة، ذلك أنها سرعان ما ابتسمت للرجل الذى رد عليها ، أما السيدة الكبيرة فلم ترض عن الابتسامة بأن وضعت يدها اليمنى على صدرها المحمر القانى ، وتكونت "لَبَّة" تحت ذقنها، وضمت شفتيها، وقطبت جبينها ذا الحواجب الكثيفة والطويلة.

سأل الرجل :

– هل أنت يا سيدتى عطشانة؟ هل تريدين جرعة من النبيذ؟

قالت السيدة الكبيرة :

– لا يا سيد!!! فإن تناول النبيذ باعتدال لهو أمر مفيد.

أنزل الرجل قربة النبيذ من رفّ الشُّنط وقدمها للفتاة.

– حذرت : خذى حذرك حتى لا تتسخ ملابسك.

أخذت السيدة الكبيرة تقلب فى محتوى شنطة يدها وأخرجت منديلاً كبيراً كأنه فوطة سفرة – ضعى هذا – قالتها امرأة – إذ يمكن أن تقضى على فستانك.

تأمل الرجال الثلاثة الفتاة وهى تشرب النبيذ ، يبتسم الثلاثة بطريقة فيها خليط من البلاهة والمكر ، أكفّهم كبيرة ، مثل أيدى الفلاحين ، وغير مضمومة الأصابع ، مرتاحة على الركبة ، كان فضولهم مسرحياً كأنه سيحدث شىء طريف متوقع ، لكن لم يحدث شىء فقد ارتشفت الفتاة نقطة نبيذ كانت قد سالت على ذقنها وأخذت اتجاهها نحو رقبتها إلى حدود الصيف التى تلمح على صدرها بواسطة شريط

باهت يوضع فوق تدويرة الفستان على الصدر، ومتناقضًا مع لون الجلد الذى غيرته الشمس .

كان الرجال يستعدون للشرب بوقار واهتمام عندما أخذ يزداد عنف إيقاع السير وأخذت تمتد الترنيمات ، أمسك صاحب القربة بها بعناية كأن فيها حياة حيوان ، وضغط عليها بخفة كأنه يداعبها.

- قال : ها نحن توقفنا.

- سألت السيدة الكبيرة : كم من الوقت يتوقف القطار هنا؟

- سيقومون بتفريغ البضائع ولا يعرف بعد ، عادة ما يمتد وقت الوقوف لثلاث دقائق.

- قالت المرأة الكبيرة شاكية - ياللجو الحارّ! وأخذت تحرك الهواء بعدد من مجلة سينمائية.

يا له من جو حار ويا لها من مقاعد ! من القطار إلى السرير مباشرة.

قبل ذلك كان الأمر أسوأ - قالها الرجل الجالس بجوار الباب - كانت المقاعد قبل ذلك من الخشب ويسيح الدهان ، قبل ذلك كان المرء يسافر أربع ساعات حتى يصل إلى العاصمة إذا لم يكن هناك تأخير ، قبل ذلك لم يكن المرء ليجد مكانًا وكان عليه أن يقف فى الردهة مع السلال ، وبفضل الله تغيرت الأحوال ، أما فى الحرب. ، أظن أن سيادتك قد شهدت هذا القطار أثناء الحرب، ففى كل فرسخ توقّف، وكان على الجميع مغادرة القطار ، فى الحرب .. كان يتوقّف برهة ، سمع صوت فرامل القطار كأن الأمر تصادم .

– قالتها السيدة الكبيرة – ياللحر !

– أكد صاحب قربة النبيذ – الآن يمكن الشرب.

– هات يا سيدى – قالها، بلهجة رقيقة وراجية، الرجل الذى كان يتحدث عن الحرب – لابد أن يزيح المرء تراب الطريق عن حلقه، ألا تريدين يا سيدتى؟ – قدم القربة للسيدة الكبيرة.

– كلا، شكراً، لست معتادة على الشرب.

– سرعان ما يتعود المرء على مثل ذلك.

قطبّت السيدة الكبيرة جبينها ما بين حواجبها وتوجهت إلى الفتاة الشابة تسر لها شيئًا ، هذه الوشوشة الشعبية كان لها بعدها المتمثل فى نوع من الازدراء للرجال الجالسين فى الديوان، عندما يكون هناك نوع جانبى من العلاقة الخاصة ، تبادل الرجال القربة، شرب ثلاثتهم وأصبحت بينهم صلة مؤقتة ، كانوا يتحدثون عن المحصول القادم وكيف سيكون، يلمح الأمل فى حديثهم ، عادت السيدة الكبيرة لتروح عن نفسها بالمجلة السينمائية.

– قالت العمّة : قلت لك أنه كان من اللازم أن نحضر معنا بعضًا من الفاكهة – وقد ألحّت أفكارنا على ذلك، لكنك أنت بصلابة رأيك.

– فى المحطة القادمة هناك كانتين يا عمتى .

– لقد سمعت ذلك.

انطفأ أحمر الشفاه ، بعض الشىء ، للسيدة الكبيرة، وامتد خارج إطار الفم ، كما أن ذراعيها،لا يكادان يغطيان بقعة العرق الكبيرة تحت إبطيها والتى تزينها قَصّة البلوزة ، أزاحت الفتاة الشابة الستارة

البلاستيك ، مبنى المحطة قديم، وإهماله واضح على مخزن كأنه ساحة مهجورة ، وفى الواجهة القذرة للمبنى تبزغ نافذة تطل منها بعض الزهور الموضوعة فى الأصص، وبعض النباتات كأنها شلال ألوان ، وفى أحد جناحى السقف الرمادى الداكن هناك إطار خشبى متهالك ومهمل ، فى أحد جوانب المحطة توجد المراحيض، أما الجانب الآخر، فهناك ركن مخصص لتشوين البضائع ، كان رئيس المحطة يَتَمشّى على الرصيف مشية مسيطر ومهيمن على الموقف كأنه ديك ، كان الكاب الأحمر الذى يضعه فوق رأسه نشازاً بين القبعات وأغطية الرأس ومناديل الرأس ذات اللون الأسود.

تبعد القرية عن المحطة مسافة أربعمائة أو خمسمائة متر، شكلها أصفر اللون، كأنه بقعة تلطخ الأرض وتمتد بغير انتظام حتى تكاد تلتحم ببداية ارتفاع هضبة مجاورة ، أما برج الكنيسة - أطلال منتصبة وبقاء غير مأمول - فيهدد السماء بقبوه ، الطريق مترب وحار ويمتد حتى السوق رابطًا كل ذلك بعزلة الحقول .

أدار من فى الديوان رؤوسهم نحو الباب ، هناك رجل مُجهد ويلهث ، يزداد صوت لهاثه كلما اقترب من الباب ، ساعده رجلان ممن كانوا فى الديوان على أن يضع سلته والصندوق الكرتون المربوط بحبل ، استند الرجل إلى إطار الباب وتأمل المسافرين ، نظرته وئيدة متأملة ومتمعنة ، وصلت عينيه المبللتين والسوداوين ، كأنهما شئ هلامى ، حتى سلته وصندوقه الكرتونى الموضوعين على الشبكة العلوية ، ثم نزلتا نحو الوجوه، وانتظر هنيهة قبل أن يتحدث ، نزع قبعته ونفض ملابسه بيده الخالية.

- قال الرجل - أعطاكم الله الصحة والعافية - ثم صمت برهة وواصل :

– فأنا لم أعد أتمتع بالصحة التى تجعلنى أتحمل الأسفار.

استأذن الحاضرين ليقترب من النافذة فأفسحوا له الطريق بضم سيقانهم ، تنهدت السيدة الكبيرة احتجاجًا وعندما استقرت فى مكانها تمطّت كأنها حمامة تتكوّر حوصلتها.

– معذرة يا سيدتى .

وعلى الرصيف وبجوار نافذة القطار، كانت هناك سيدة عجوز متهالكة يبدو عليها الاهتمامْ والانزعاج ، وجهها ممتلئ بالتجاعيد التى تكاد تغطى ملامحها، حادة العينين، ويدان ناحلتان كأنهما جناحان.

– يا مريم ! صاح الرجل : كل شىء تمام.

– اجلس يا خوان، اجلس، طارت بإحدى يديها حتى جبهتها لتصلح من هندام منديل الرأس وتتحسس قطرات العرق الناجمة عن الحر، ولتسيطر على بعض الأفكار – اجلس يا رجل.

– لن يسير القطار الآن .

– لا يناسبك أن تظل على قدميك.

– مازلت قادراً على ذلك ، أنت التى يجب ...

– عندما يذهب القطار..

– عندما أصل سوف أذهب إلى السيد كانديدو ، فإذا ما أعطونى مكانًا غداً فهذا أفضل .

– عليه أن يفعل ما بوسعه، قل له كل شىء ، لا تمسك عن شىء .

– حسن يا امرأة.

- اجلس يا خوان.

- ما بقى هو تفريغ البضائع ، عندما ترين ابن السيد مانويل قولى له أن يبلغ والده بأننى ذهبت إلى المدينة، ولا تفصحى له عن السبب.

- سوف يعرف.

- اهتمى بنفسك كثيراً يا مريم ، تغذىّ .

- لا تقلق، والآن عليك أن تجلس ، اكتب لى عما سيقولونه لك ، سوف يقرأون لى الرسالة.

- سوف أفعل ، سوف أفعل ، سترين أن كل شىء سيصبح على ما يرام .

تبادل الرجل والمرأة نظرة في صمت ، غطت المرأة وجهها بيديها ، صفّرت القاطرة ، ورن جرس المحطة، أما صوت الفرامل عند زوال أثرها، قد جعل القطار كأنه يتمطّى قبل بدء السير.

- صاح الرجل : لا تبك يا مريم سيكون كل شىء على ما يرام.

- اجلس يا خوان - قالت المرأة هذه العبارة التي اختلطت بدموعها

- اجلس يا خوان - تملأ صوتها المتهدج، نبرات الحنان والحب والخوف والوحدة.

بدأ القطار سيره وأخذت يد المرأة تلوح مودعة وقضت التجاعيد والنواح على ما بقى فى وجهها من ملامح.

- فى رعاية الله يا مريم.

تتجاوب يدا المرأة مع الوداع أما الجو المحيط فقد كان سكونًا مطبقًا ، عاد الرجل عندما مر القطار بركن تشوين البضائع ودخل وسط الحقول .

- قال صاحب القرية وهو ينهض من مكانه : اجلس هنا يا جدى .

أما السيدة الكبيرة فقد مدت ساقيها، بينما أسدلت الفتاة الصغيرة ستارة البلاستيك ، وأخرج الرجل الذى تحدث عن الحرب عليه دخان شكلها قاتم، مفرطحة وناعمة كأنها القرع.

- خذ يا جدى .

أخذت المرأة الكبيرة تروّح من جديد مستخدمة المجلة السينمائية وسألت بنبرة غير واثقة.

- هل المحصول جيد هذا العام؟

نظر ثالث الرجال بتمعن إلى العجوز - وهو الذى لم يتحدث مع النساء اللائى فى الديوان، والذى شارك فقط فى تناول النبيذ، والحديث عن الحقول - كانت نظرة تعاطف وودّ ، قررت الفتاة الشابة أن تبدأ بالحديث عن الخصوصيات المتبادلة بين الحاضرين.

- هل ستجرى سيادتك عملية؟

عندئذ شرب العجوز من القربة وأشعل سيجارة وأخذ يحكي ، كانت كلماته ترافق الحقول .

- المرض ... والشــــغل ... والأرض ... وقلة المال ... المرض ... الشغل ... الأرض ... المرض... العمل ... المرض ... هذه أول مرة، هذه أول مرة نفترق أنا ومريم ، مرت به السنون كأنها إيقاع قطار ،

***

CARMEN MARTIN GAITE

كارمن مارتين جايتى

ولدت فى مدينة سلمنقة (ديسمبر ١٩٢٥) – أنهت دراستها فى كلية الآداب والفلسفة.

من بين أعمالها القصصية "القيود" (١٩٦٠) بين الستائر (١٩٥٨) وقد حصلت بها على جائزة NADAL – إيقاع بطىء (١٩٦٣) .

ومن بين مجموعاتها القصصية "المنتجع" (١٩٥٤) .

***

الـــدادة

– هيا يا كريستينا، إذا لم تتناولى عشاءك سوف تذهب الدادة، سوف تذهب إلى قريتها.

– أنا انتهيت من عشائى يا دادة ، آخذ موزة، انظرى ، أقشرها أنا وحدى .

– أترين يا جميلتى؟ أترين أخاك؟ أنت أيضًا مثله ... "هَمْ" ، هكذا ! يا له من طعام لذيذ لكن لا تخرجيه من فمك، فلا يمكن إخراج الطعام من الفم يا قذرة ، انظرى ، انظرى ما الذى يفعله لويس ألبرتو ، "حسن" لقد قشر موزة ! أعطها قطعة يا غبى، أعط الطفلة ، لا يريد، أنضربه؟.. لكن ماذا تفعلين؟ لا تفعلى هذه القذارات بالقشر، هيا يا كريستينا، هيا

أيتها الجميلة، ملعقة أخرى ، تلك. ، فإذا لم تفعلى سوف تبكى الدادة..
إنها تبكى، مسكينة أيتها الدادة ، آه ، آه ، آه ، انظرى كيف تبكى .

كانت تحمل الملعقة بيد وتغطى عينيها باليد الأخرى ، كانت ترى وهى تنظر من بين أصابعها النحيلة، شبه الطفولية ، أما الطفلة التى تحاول أن تتزحلق من على ركبتيها فقد بقيت متأثرة بضع ثوان، متجهة نحوها وأخذت تتباكى أيضاً .

– لم آكل يا دادة، لم آكل، فم سلئ – قالتها بصوت فيه دلع.

– هذا الجزء الصغير، هذا فقط، هذا وكفى.

– تدخل الأخ : يا دادة – إن أضراسها تؤلمها وهى لذلك لا تريد ، إنها صغيرة ، أليس كذلك؟ أما أنا فآكل وحدى لأنى كبرت ، أحقًا أننى كبير؟

– نعم يا بنى ، كبير جداً، آه لكن يا كريستينا لا تخرجى الطعام هكذا، إننى أحذرك ، يا لها من طفلة ، وكيف تتصرف ، قذرة! اللبن لا يُبصَق ، عجبًا مما تصنعان من فنون تناول الطعام.. ، ! لست أدرى فى أى ساعة سوف تنتهى اليوم.

أمسكت بالطفلة من جديد وسحبت المرفق من على بقعة من الشوربة على المائدة ، طارت الملعقة الثانية فى الهواء بضربة يد وسقطت على مجموعة من أعواد الكبريت التى كانت متراصة كأنها جنود ميتة على مفرش المائدة المصنوع من البلاستيك، وكانت الأعواد بجوار العلبة المكسرة والمطبقة.

– عادت الدادة تتنهد – يا لنظافة المائدة .

وبينما كانت تردد هذه العبارة أخذت عيناها تتجولان فوق المائدة ؛ المفرش البلاستيك الموضوع بشكل سئ ، وكل شيء فوق المائدة: عيدان الكبريت والعلبة الفارغة، وأواني اللبن والسكر والملاعق الصغيرة المتسخة، علبة شراب وغطاؤها، والدب المقلوب وإحدى عينيه مكسورة ، وبنسة شعر سقطت من رأس الدادة، كل هذا بدا كأنه آثار في ميدان معركة .

أخذ لويس ألبرتو في الضحك وهو جالس على أرض المطبخ.

– آه مما تفعل، يا لها من قذارة ، تترك اللبن يسيل من فمها ، يا دادة ، أريد أن أرى الصندوق الذى كان معك بالأمس ، وقد قلت لي إذا تناولت عشائي جيداً فسوف ترينني إياه ، ذلك الصندوق الجميل بغطائه المليء بالأصداف .

– لا . لا . غداً ، أما الآن فإلى الفراش ، لابد أن تكون في الفراش وأختك أيضاً ، فقد تجاوزت الساعة التاسعة مساء بكثير ، إلى أين تذهب يا لويس ألبرتو ، تعال، انتهت التأملات ، هيا كلاكما إلى الفراش .

– سأبحث عن الصندوق ، أعرف أين تحفظينه.

– لا شيء من هذا، هيا، هيا، لغسل الوجه والنوم.

– احتجت الطفلة – يا دادة لانو – أنت يا دادة بوس..

نهضت الدادة وهي تحمل الطفلة بين ذراعيها وأخذت قطعة قماش مبللة ومسحت بها المفرش .

– لم تأكلى شيئًا ، أنت سيئة سوف يأتى أبو جوال ويأخذك.

– لا جوال ، لانو الدادة بيتانا.

– ماذا تقولين يا ابنتى، ماذا تريدين ، لا أفهمك .

كان لويس ألبرتو قد قام بوضع منضدة صغيرة بجانب النافذة وصعد عليها.

– يريد أن يستمع إلى الموسيقى الآتية من المنزل الذى بالطابق الأسفل – أوضح – النظر من النافذة، أترين؟ مثلى ، لأنه يرى أننى أفعل ذلك .

– حذار من السقوط أيها الطفل.

– لا شىء من هذا، وفوق ذلك أطل برأسى ، أهلاً يا باكيتو.

انظرى يا دادة.

– عليك بالنزول.

– يا باكيتو !

وفى النافذة المواجهة بالمنزل المقابل وفى طابق سفلى ، قام طفل بإزاحة الستار وألصق أنفه بزجاج النافذة ، ثم أخذ يلعقه بلسانه ويترك لعابًا عليه ، انتزعته يد بعنف.

– إنها دادته – قال لويس ألبرتو – ألا تعرفينها؟

– لا.

– هذا طبيعى لأنك جديدة ، اسمها ليو ، لقد ذهبا ، ليو طبعها حاد ، إنها تضرب باكيتو، أتعرفين ذلك؟

كانت كريستينا تضحك هانئة، رفعت ذراعيها لأعلى وأخذت تحركهما فى الهواء كأنها ترقص.

- قالت: لانو - هيا إلى الشارع.

بعد ذلك وضعت قبضة يدها على إحدى عينيها، وأخذت تبكى وهى تحتضن كتف الدادة ، يصعد من المنور خليط ثقيل من جلبة تحدثها الشّوكَ، وبكاء أطفال، وموسيقى الإذاعة، ويتخلل كل ذلك، بين الحين والآخر، صوت المصعد الذى ينزلق على الحائط كأنه رجل يرتدى قناعًا، ويحدث نوعًا من الانطباع عندما يقترب، مثلما يحدث الآن، ويستطيع المرء أن يلمسه إذا ما أخرج يده من النافذة.

- قال لويس ألبرتو : إن المصعد قادم إلى هذا الطابق - انظرى ؟ لقد توقف سوف أنزل من على المنضدة وأذهب لأفتح الباب.

- لكن اهدأ يا فتى ، لم يناد أحد بعد.

تصيب الدادة رعشة عندما يتوقف المصعد فى هذا الطابق وذلك عندما يكونون وحدهم، ودومًا ما تتلو بعض الأدعية حتى لا يطرق الباب ، أخذت تتلو ذلك الدعاء المعهود وهى تنظر إلى أعلى، إلى جزء من السماء به بعض النجوم، وكأنه سقف على الأضواء العنيفة الأخرى الصادرة من بعض النوافذ ، ووصلت فى تلاوة دعائها إلى عبارة "من بين النساء قاطبة" عندئذ رن جرس الباب ، خرج الطفل مسرعًا عبر الردهة وسارت هى خلفة تحمل الطفلة التى أخذ .. رأسها يتثاقل من النعاس ، كانت تحتضنها مقبلة إياها وتضمها إليها بشدة، رغبة فى أن

تكون والدتها ، "لن يؤذينى أحد - فكرت وهى تمر فى الردهة - وأنا أحمل الطفلة هكذا ، لا أحد مهما كان سوء نيته" حاول لويس ألبرتو أن تصل يداه إلى المزلاج.

- قال وهو يقفز : لكن افتحى يا دادة.

- من بالباب؟

كانت البوابة قد جاءت بابنتها الصغيرة بعد حفل التنصير الأول حتى تراها سيدة المنزل.

- السيدة ليست هنا، فهما يتناولان العشاء خارج المنزل ولن يأتيا الآن ، يا لك من طفلة جميلة ، أهى ابنتك الكبرى؟

- إنها الابنة الثانية، كان الطفل هو الأول ، وقد احتفلنا به قبل ذلك، لكن الأكثر جاذبية فى حالة الفتيات هو ارتداؤهن الملابس البيضاء.

- هذا ما أعتقده أيضًا، يا لها من جميلة، لكن ادخلا، رغم عدم وجود السيدة ، وامكثا بعض الوقت.

- اهدأ أيها الفتى لا تلمس فستانها، تفضلى .

- تقدمت البوابة بضع خطوات ومعها ابنتها.

- لا، إننا ذاهبتان.

- قال لويس ألبرتو :

- اسمعى هل لديكم قفل بمزلاج جيد؟

إن الدادة تخاف.

نظرت الدادة إلى الطفلة وهى بين يديها شبه نائمة.

– قالت معتذرة : ذلك أنه فى مثل هذه الساعة ليس من المعتاد أن يأتى أحد – لكن اجلسى بعض الوقت، إذ سأقدم للطفلة بعض الحلوى ، أما هذه فقد نامت منى ، انظرى ، انظرى إلى هذه الطفلة، يا لها من جميلة، قولى لها "يا لك من جميلة" هيا قولى لها ذلك ، إنها مرهقة يا لها من أمسية أمضياها .

– هل خرجا منذ فترة طويلة؟

– خرجا منذ ساعة تقريباً عندما عاد السيد من المكتب، وكانت هى قد استعدت، ثم خرجا.

– قالت البوابة : بالطبع – أنا لم أكن بالباب، ولهذا لم أرهما وهما يخرجان ، لقد ذهبت مع ابنتى إلى منزل أحد الأعمام إلى حى / كوارتو كامينوس وقبل ذلك ذهبت لتصويرها ، لست أدرى كيف ستكون فى الصورة، يا لها من بلهاء، لقد ضحكت وهم يصورونها.

كانت ابنة البواب تنظر إلى الحوائط نظرة مرهقة واتكأت على الشماعة.

– لولى ، لا تتكئ هناك ، لقد غضبت ، لا يمكن أن يذهب المرء إلى أى مكان ومعه أطفال ، تصرفى جيداً.

أخذت الطفلة تداعب المسبحة دون أن تترك من يديها كتاب الصلوات الموضوع فى علبة مزينة بالصدف ، وعندما دخلت الدادة وأتت تحمل طبقًا من الحلوى رمقته الطفلة بنظرات متثاقلة.

– قال لها الطفل : خذى هذه القطعة يا لولى – هذه الحمراء ، هى من أفضل القطع.

– يا أمى ، هل أخلع الجوانتى ؟

– نعم، تعالى سوف أخلعه لك ، لكن لا تأكلى أكثر من قطعة واحدة ، ما الذى يجب أن يقال فى هذا الموقف؟

– شكراً جزيلاً – قالتها وهى لا تكاد تفتح فمها.

– قالت الدادة بحماس : يا لك من ظريفة – إنها جد ظريفة ، تروق لى الصغيرات وهن فى ملابس التنصير ، ستأسف السيدة لأنها لم ترها.

– نعم يا امرأة ، قولى لها إنى أتيت.

– نعم سأقول لها.

– عندما تم التنصير الأول للطفل أعطتنى خمسين بيزيتة ، ليس الأمر أننى أفعل هذا من أجل النقود، لكن بعضاً من هؤلاء وبعضاً من أولئك أستطيع تغطية سعر الفستان.

– بالطبع يا امرأة، واضح، خمسون بيزيتة.

انتهت كريستينا بعض الشيء وأرادت أن تنزل من على يدى الدادة ، وأخذت تدعك عينيها واتجهت نحو بقية الأطفال.

– قالت البوابة : نعم، طيبون هم أهل هذا المنزل – وكيف الحال بالنسبة لك؟

– بخير ، لقد أنّبتني هذا الصباح، في كثير من الأحيان يحتد مزاجها، وقد جن جنونها اليوم.

– قالت هذه أنطونيا التي تركتهم ، وقد تركتهم لأنها ردت عليها ، وما لا يمكن فعله مع هذه السيدة هو الرد عليها.

– لا، أنا لم أردّ عليها بالطبع، لكني كنت على وشك البكاء ، فالأمر أنني تأخرت في السوق ، وكيف لا أتأخر وكنت أنا أول واحدة رأت ذلك الرجل الذي مات هناك وهو جالس على أحد المقاعد الموجودة في المشى بالسوق ... هذا الصباح ... ألا تعرفين ذلك؟

– أكان أحداً من دار المسنين؟ لقد سمعت ذلك في البار ، أين كان؟ هل رأيته؟

– نعم، ألم أقل لك ذلك؟ عندما خرجت من عند الجزار وكان معي الطفل، وهذا بالذات ما زاد من ضيق السيدة، اقتربت ومعي الطفل ، تقول إن الطفل في هذه السن لا يجب أن يرى ميتًا، وألا يعرف شيئًا عن هذا، إذ إن ذلك يفقدهم البراءة ، لكن ماذا كنت فاعلة؟ الأمر أن الطفل نفسه هو الذي لفت نظري ، قال لي "يا دادة انظري إلى هذا الرجل، لقد سقطت منه السيجارة، هل آخذها؟ انظري ، وفي هذه اللحظة كان الرجل جالسًا على أحد المقاعد المصنوعة من الحجارة الموجودة في المشي، يرتدي ملابس رمادية، وغطاء للرأس ورأيت رأسه مائلا وقد سقطت السيجارة من بين أصابعه ، والتصقت ذقنه بصدره، دون أن يرى وجهه، وبالطبع اقتربت منه وقلت له : ماذا يحدث؟ قلت ذلك في البداية، وقد فكرت أنه ربما كان مغمى عليه أو شيئًا من هذا القبيل ... يقشعر بدني عندما أحكي هذا من جديد ، رفعت الدادة كُمّ جلبابها إلى

أعلى بعض الشيء وجعلت البوابة تنظر إلى آثار القشعريرة على جلدها.

- أكان ميتًا؟

- بالطبع، لكن قبل أن أدرك ذلك - تصورى - أخذت أناديه وألمسه، وأنا وحدى هناك بجانبه ، فى هذه اللحظة كان قد مات ، أى فى اللحظة التى رآه فيها الطفل ، وبعد ذلك أتى رجل آخر، وآخرون كانوا يسيرون فى الشارع لكن الحمد لله، أما أنا فقد ظللت حتى جاء مسئولو القضاء لأخذ أقوالى ، فقد كنت أول من رآه ، وتقول السيدة لماذا لم أتصل بها تليفونيًا ، والأمر أننى لم أتذكر السيدة أو أى شىء بسبب الموقف ، يا له من مسكين ، عندما رفعوا رأسه بعد ذلك، بدا أكثر طيبة وقد أثر فى نفسى كثيراً رؤيته هكذا.

كانت ابنة البوابة قد جلست على أحد الكراسى ، أما لويس ألبرتو فقد أتى أثناء سرد الموضوع يعلبة البنبون من غرفة الطعام معفيًا نفسه من ضرورة أن يطلب إذنًا بذلك نظراً لاستغراقهما فى القصة ، أخذت ابنة البواب حبة بنبون كبيرة كان بها قطرات النبيذ وسالت منه نقطة على صدر الفستان.

- يا أمى - نادت على أمها بصوت فيه ضيق، ثم نهضت.

- ماذا يا ابنتى؟ هيا بنا ، أنا لم أعرف هذه الحكاية يا امرأة ، ويا له من خوف انتابك.

- تصورى ، وبعد ذلك تؤنبنى ..

- ماما..

– لابد من التحلى بكثير من الصبر. ، ماذا تريدين يا ابنتى ؟

– انظرى يا أمى ، لقد وقعت بقعة صغيرة على فستانى

أخذت لولى تنظر دون أن تقدم على نَفْض البقعة ذلك أن يديها كان بهما البنبون ، أرادت أن تجففهما بالمنشفة.

– لكن، ماذا تفعلين؟ بأى شىء اتسخ الفستان؟ يا إلهى ، تقول إنه اتسخ قليلاً، سوف أضربك هكذا أيتها البلهاء.

– لا تضربيها يا امرأة.

– وكيف لا أضربها، وكيف لا أضربها ، تقول إنه اتسخ قليلاً، أترين كيف أصبح وضعها؟ لقد قضت على الفستان وأصبح لا يصلح لشىء ، وإذا لم آخذ فى اعتبارى أن هذا يوم خاص لكنت ضربتها حتى تورم وجهها ، هيا إلى المنزل.

– أنا لا أعرف أن البنبون به شراب.

– لم تكونى تعرفين، وتقولينه هكذا ببساطة ، هيا بنا إننى لا أريد حتى رؤيتك ، كنت سأقتلك ، يالقذراتك بين الفتيات ! لست أدرى كيف تتوفر لديكن القدرة على الخدمة يا معشر الدادات.

– مسكينة لا تجعليها تبكى أكثر من ذلك، فما حدث كان دون إرادتها.

– إنها طفلة مدللة ، وليس غير ذلك ، ثرثارة ، هيا لا تبكى أكثر من ذلك، وإلا ضربتك مرة أخرى ، هيا، حسن يا فتاة سوف ننزل.

– فى رعاية الله ، ولا تكونى هكذا يا سيدة دولورس فتلك البقع يمكن إزالتها ، فى رعاية الله أيتها الجميلة الصغيرة ، هيا أعطنى قبلة ،

فعليك، اعتباراً من الآن، أن تكوني طيبة جداً ، مسكينة، كيف تبكين ، هل فعلاً أنك ستكونين طيبة جداً؟

– نعم يا امرأة، والآن فإن ما بقي هو أن ترينها متزوجة.

– هذا هو ما بقي ، حسن، في رعاية الله يا ابنتي.

كان لويس ألبرتو وأخته كريستينا يريدان النزول على السلم.

– قال الطفل : أنا لا أريد أن تذهب لولي – وسأنزل معها.

– هيا . ، هيا ، تعال هنا ، أما أنت فهنا، هيا إلى هنا كلاكما ، في رعاية الله يا سيدة دولورس.

– أنا سأنزل مع لولي .

عندما أغلقت الباب أصابهما هياج شديد فأخذ لويس ألبرتو يركل الدادة ويعضها ويشتمها بقوله إنها قذرة ، كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساء، عندما تمكنت من الذهاب بهما إلى فراشهما ، نامت كريستينا، أما الطفل فقد كان يريد أن تبقى الدادة معه لأنه أخذ يتذكر ذلك الرجل الذي رآه ميتاً هذا الصباح واعتراه الخوف.

أما الدادة فهي خائفة بعض الشيء .

– لماذا تقول أمي إنني لم يكن من الضروري أن أرى ذلك الرجل؟ هل لأنه كان ميتاً؟

– هيا، لا تتحدث عن ذلك الرجل، إنه لم يكن ميتاً .

– هيا، ليس ذلك. ، ولماذا كان وجهه يشبه شكل المطاط ؟

– هيا ، نم.

– إذن فلتحكى لى حكاية.

– أنا لا أعرف حكايات.

– بلى تعرفين، مثل حكاية الأمس تلك، حكاية ذلك الفتى روكى .

– هذه ليست حكايات، إنها أحداث فى قريتى .

– إذن احكى تلكِ الأشياء عن قريتك، حكاية الذئاب التى تحدثت عنها بالأمس.

– لا شىء ، الأمر أنه أثناءَ فصل الشتاء تأتى الذئاب.

– من أين تأتى ؟

– لا تتحدث بصوت عال، فقد نامت أختك.

– حسن، قولى لى : من أين تأتى ؟

– لست أدرى ، ربما من الجبل ، ففى يوم من أيام الشتاء عندما سقطت الثلوج رأيت ذئبًا من بعيد وأنا قادمة مع أخى ، عندئذ أخذ أخى يبكى ، كم جرينا !

– هل أخوك كبير؟

– لا، إنه أصغر منى .

– لكن كم كان عمره؟

– عمره الآن أربعة عشر عامًا.

– هيا، كم ؟ إنه كبير فلماذا إذن كان يبكى رغم ذلك.

– لست أدرى ، كان صبيًا صغيرًا حينذاك ، هيا نم.

– هيا قصى عليّ ما حدث للذئب ، كيف كان الذئب؟

يرن جرس التليفون :

– انتظر وأنصت ، سوف أعود حالاً – نهضت الدادة منزعجة.

– لا، لا تذهبي، ذلك أنك لن تعودى بعد ذلك.

– نعم سأعود يا جميل، سوف أعود حقًا ، سأترك الباب مفتوحًا وسأضىء لمبة الردهة.

كان التليفون مثبتًا فى الحجرة الداخلية، لم تكن تعرف جيدًا أماكن مفاتيح الإضاءة وعندما تنهض مسرعة – مثلما يحدث الآن – كانت تصطدم بحواف الأثاث فأخذت سماعة التليفون والحجرة مظلمة، ذلك أن أكثر ما يزعجها هو استمرار جرس التليفون.

– كان صدرها يدق بقوة.

– من؟

– إنه أنا السيدة ، هل أنت أسونثيون ؟

– أسونثيون.

– حقًا، أسونثيون ، دائمًا ما يختلط على الأمر ، كيف تأخرت كثيرًا فى الرد علي؟

– كنت مع الطفل أحكى له حكايات.

– ألم يناما بعد؟ كيف تأتّى لك يا امرأة بحق الله أن تجعليهما يناما متأخرين؟

– إنهما لا يريدان الذهاب إلى الفراش ، ولست أدرى ماذا أفعل معهما عندما يكونان هكذا يا سيدتى ، لم أضربهما ، والطفلة لم تكن تريد أن تتناول عشاءها.

– هل اتصل بنا أحد؟

– لا، لا أحد، اللهم إلا حضرتك الآن، وقبل ذلك مكالمة خطأ.

– ماذا تقول يا بابلو؟ لا أفهمك ، انتظر.

كانت تصل من خلال التليفون أصوات مختلطة بها ضحكات وموسيقى.

– لا شيء ، لقد كان السيد يسأل عما إذا كان أخوه قد اتصل، لكنك تقولين لم يتصل أحد.

– لست أدرى ، لقد ظللت فترة من الوقت وباب المطبخ مغلق حتى لا تتطاير فى المنزل رائحة الزيت، لكنى أعتقد أنه إذا ما كان قد اتصل فإننى كنت سأسمعه، فأنا دائمًا أصغى بانتباه.

– حسن ، لا شيء غير ذلك ، لا تنسى رفع مظلة البلكونة حيث إن الجو ينذر بأمطار رعدية هذه الليلة.

– لا لن أنسى، سأرفعها الآن.

– أما الطفل فاتركيه فسوف ينام وحده.

– وإذا ما بكى؟

– لا شيء ، فليبك ، اتركيه يا سيدتي ، حسن ، تصبحين على خير، يجب أن تغلقي مفاتيح الغاز جيداً.

– لا تقلقي يا سيدتي ، في رعاية الله ، آه ! قبل ذلك جاءت البوابة ومعها طفلتها التي احتفلت اليوم بعيد تنصيرها الأول ، قالت .. يا سيدتي ..

لا شيء ، كانت قد وضعت السماعة، إذ انقطع الصوت بشدة من الطرف الآخر، والحجرة مظلمة عندئذ عاودها الخوف، عادت للبحث عن قاطع التيار وأدارته ، كانت الكتب موضوعة على أرففها والستائر مسدلة، ولوحة الملائكة الذين هم في شكل نحيل ، كل شيء مرتب ، كانت هناك رائحة غريبة، وازداد خوفها حتى مع إشعال النور.

خرجت إلى البلكونة وظلت هنيهة وهي تتأمل الشارع ، كان الهواء لطيفًا جداً، المارة يكادون يختفون من الشارع ذلك أنه حانت ساعة العشاء، لكنها كانت تتسلى بمشاهدة بلكونات المنازل الأخرى ، وأسفل ترى الإعلانات الضوئية الخضراء والحمراء القادمة من ميدان قريب ، والأتوبيسات التي تمر وهي مضاءة وأبواب المقاهي ، وفي إحدى البلكونات، في الجانب الآخر من الشارع، كان هناك فتى يدخن وخلفه في داخل الحجرة كانت هناك لمبة ملونة مضاءة ، أسندت وجهها على يديها ، كان يطيب لها أن ترى ذلك الفتى، وأخذ يغالبها النعاس حتى ثقل ذراعها وأحست بالبرد ، رفعت مظلة البلكونة التي كشفت عن بعض النجوم في السماء التي تخفيها بين الحين والآخر بعض السحب القاتمة والخفيفة – أخذت المظلة تنزلق بينما تقوم هي بجذب الحبل ، كان صوتًا لطيفًا يذكر بالأعمال البحرية.

عـادت إلى الداخل وهـى ترغب فى الغناء ، كـان المنزل صـامـتًـا وغارقًا ، مـرت بخفة أمام حـجرة الأطفال ، لم يسمع لها صوت، أخذت شهيقًا وزفيراً طويلين وتوقفت لتنعم بذلك.

كان النعاس يغالبها بقوة كأنه الطوفان ، منذ هذه اللحظة أخذت تفكر فى الفـراش ، إذ كـانت يداها وظهـرها تطلب النـوم ، كـان طلبًـا ملحًا ، تنـاولت عشاءها بسـرعة ، رفعت آخـر الأواني ، وأخـرجت جردل الزبالة ، ثم أغلقت مفـاتيح الغـاز ثم الإضـاءة والأبـواب ، عندمـا دخلت حـجـرتهـا وأخـذت تخلع مـلابسـهـا خـفـتت الأصـوات فى المنور وتوارت الأضواء فى كثير من النوافذ، كانت هناك ملاءات منشورة فى الشرفات تتحرك ببطء فى الظلام كأنها أشباح .

***

JOSEFINA RODRIGUEZ

خوسيفينا روديجيث

ولدت فى ليون (مارس ١٩٢٦) - عملت كأستاذة في كلية الآداب والفلسفة - لها مجموعة قصصية عنوانها "السير هائمًا"A ninguna parte (مدريد ١٩٦١) .

***

السير هائمًا

كان معتادًا فى الصباح على الشعور بالحزن، لكن تبدأ معنوياته فى الارتفاع عند منتصف اليوم، حتى إنه يشعر بانشراح فى المساء ، حريق هائل يحصد العيون عند حلول الليل، فى الوقت الذى تقوم فيه تلك بالترقب واللّهْفَة منتظرة أن تُشع الأشياء نفحة سحرية.

كان عمره سبعة عشر ربيعًا ، اسمه إيوخينيو، يعيش فى شارع فى وسط حى من أحياء الأرباض.

يذهب فى الصباح إلى محل والده ، ويساعده في بيع عدة كيلو جرامات من الملح والبطاطس، وفى اختلاس بضعة جرامات من السكر وبعض السنتيلترات من الزيت ، كان استعجال السيدات ينعكس فى دقاتهن المتتالية على ترابيزة البيع، واحتجاجهن يؤثر على زجاج الميزان .

– يا سيد لويس لا تعطنى هذه البضاعة السيئة.

– يا سيد لويس ، غداً سأدفع لك حساب الأسبوع .

– يا سيد لويس، لا تسرقنا بوقاحة ، تبًا لك ، هل تريد أن تقبض منى ثمن الفارغ الذى أشترى فيه بسعر السمك المخلل؟

– يا سيد لويس ...

صيحات النساء تجعل الصباح حزيناً فى عينى إيوخينيو ، كما أن تأمل منظر المدرسة على الجانب الآخر من الشارع يملأه بالكدر.

فى العاشرة والنصف صباحًا يخرج التلاميذ فى الفسحة ويملأون الفناء بالمرح وهم يرتدون المرايل البيضاء الباردة ، يتحرك التلاميذ بطريقة منظمة، واعية بين الأشجار الضعيفة فى فناء الحديقة التى ذهبت عنها أوراقها .

كان إيوخينيو يتأمل لعبهم من دائرة شفافة استطاع أن يحدثها فى الزجاج المعتم ، يشعر إيوخينيو بالبرد فى سيقانه ، حيث شعر فجأة أنها عارية، نزع عنها البنطلون الطويل وأصبحت معرضة لهواء الفناء المدرسى ، تماماً مثل التلاميذ الذين يلعبون ، يتذكر أن شهرى ديسمبر ويناير كانا أسوأ شهرين ، أثناء الفسحة، وخلال شهرى ديسمبر ويناير كان دانيل يفعل ما يستطيع حتى يتلقى العقاب ويبقى وحده فى الفصل .

– يا إيوخينيو هات هذا الوعاء.

– يا إيوخينيو، لا تكن شارد اللُّب، فما أطلبه هو لهذا اليوم.

– يا إيوخينيو اعط لهذه شيكولاتة ماركة إيرميتا.

عندما يغادر التلاميذ المدرسة توجد حول الأشجار المحاطة بالجليد بقايا قشر برتقال.

– هيا، أغلق الترباس وهيا بنا لتناول الغداء.

بعد الظهيرة ، وقت راحته، يعلق، خلف باب المطبخ، الرداء الرمادى الواقى من التراب ، ويفتح الدولاب ذا المرايا الخاص بوالديه ويأخذ حلة ، وعندما يخرج يودع والدته وأخته اللتين تستعدان للذهاب للمحل ، يحيى والده بيده، والذى يطل بنصف جسده المتصلب من خلف ترابيزة البيع.

يركب إيوخينيو الترام ويذهب إلى المدينة ، كان المساء يطول بينه وبين دانيل، لكنه ينساب فى الوقت الذى يقضيه على مقاعد الدرس، وفى الكلمات التى يسمعها من المدرسين والكلمات التى يوجهها لهم ، وكان آخر الدروس حصة اللغة الإنجليزية – حبر – محبرة – حذاء – إسكافى – يخرجان دائماً وهما يتحدثان عنها.

– أقول لذلك إن تعلم الإنجليزية أمر ضرورى ، وبدون ذلك لن تجد لك أى مكان – يؤكد دانيل.

وإيوخينيو يؤمّن على الكلام بإيماءة من رأسه.

تفتتح الليلة أضواء المحلات الكبرى، وتزداد أعداد السيارات فى الشوارع ، ويسرع الناس فى خطاهم بينما يبطئ دانيل وإيوخينيو خطاهما، يطبعانها بطابع التّمشية ، كان لدى إيوخينيو شعور بنهاية الرحلة، نهاية رحلة سعيدة إلى هدف ثابت.

"هناك حاجة إلى شخص مبتدئ في اللغة الإنجليزية"

تعرف إيوخينيو على نفسه في الإعلان ، طافت برأسه، وبشكل منظم، المفردات الإنجليزية التي درسها طوال سبع وعشرين حصة : حبر – محبرة – حذاء – جزمجي .

"عمل سهل ، أجر جيد"

"إنها بداية الرحلة – فكر إيوخينيو – إنها بداية كل ما أريده وما أحتاجه".

"للاستعلام : من الثالثة حتي الرابعة بعد الظهر "

في الثالثة بعد الظهر كان الشارع يعيش هدنة هي الصمت وقلة المارة ، أخذ إيوخينيو يسير بخطى وئيدة تحت شمس أبريل المتوسطة القوة ، توقف أمام فترينة محل ألبان مغلق، وأدى به منظر قطع الجبن الضخمة والزهور وورق السلوفان الذي يغلف عبوات الأرز، إلى احتقار صورة مَحلِّه الذي يتسم بالصغر والقذارة وقلة الإضاءة والتي يشتم منها رائحة السمك المخلل والتوابل العفنة.

" ... من الثالثة حتى الرابعة في الفندق .."

كان الفندق في نهاية الشارع ، باب ضخم وصف طويل من السيارات الواقفة أمام الفندق.

– كان دانيل يردد هذه العبارة : لن تجد لك أي مكان.

في مقار شركات السياحة هناك طائرات موضوعة على حامل تشق سماء الفترينات ، يتوقف إيوخينيو أمامها ويخمن رحلات إلى عالم غير مألوف من خلال خرائط القارات ، بينما ينظر دانيل للأرض ،

كان دانيل يحتقر تخيل الطيران، ويشرح في انطوائية أسبابه التي يكررها كل يوم :

– بدون اللغة الإنجليزية، مستحيل . ، لن تفوز بشيء ، ولا تساوي شيئًا، ولن تذهب إلى أي هدف.

تتداخل هذه الجمل مع الحلم الذي يشعر به إيوخينيو وتعشش فيه ، كان يبتعد – مجاهداً نفسه – عن الفترينة.

– كان يقول : عندك حق، اللغة الإنجليزية هامة للغاية، حتى تحصل على عمل ، وحتى تتمكن من السفر..

تدور الطائرات ذات اللون الفضي مثلما يدور العالم، وتتابع في الفضاء الأثر الليلي للعالم.

الإعلان كان هو إعلانه ، كان نداء موجهًا له بصفة خاصة، ولا يمكن أن يشاركه فيه أحد، حتى دانيل ، كانت ملامح الإعلان أسرية، لدرجة أن إيوخينيو كان على ثقة من أنه يمكن أن يقرأ ذلك في كفه ، كان إعلانًا بسيطًا من تلك التي يحررها القدر يوميًا .

" شقة رقم ٦ "

شعر لفترة من الوقت دون أن يدري لماذا، أنه غارق في الكنبة المخملية وفي الكلمات الغريبة المرحبة ، أخذت المرأة تنظر إليه، كانت تنتظر بكل تأكيد إجابته ، إيوخينيو يستمع للمرأة، بينما تضربه موجات دردشتها وتهزمه، وتغرقه وتجعلها بلا حراك في المقعد المخملي ، وعندما دخل الرجل وتحدث بالإسبانية شعر إيوخينيو أن الموجات تنحسر.

– رجل شاب مثل سيادتك هو أمر جيد جداً بالنسبة لنا ، سيادتك تعرف شيئاً من الإنجليزية ، أليس كذلك؟

تنهد إيوخينيو بعمق ، تردد قبل أن يجيب:

– بلى .

– إنه عمل سهل، والأجر عليه طيب ، العمل لمدة ساعتين يومياً بعد الظهر ، وهو عبارة عن ذهاب سيادتك مع السائق إلى خارج المدينة، وأن ترافق كلبنا فى السيارة وعندما تكون فى الحقول، تقوم سيادتك بالتمشى بعض الوقت معه، وأن تلعب معه وتجعله يجرى .. سيادتك تعرف كل شىء ، أما فيما يتعلق بالراتب، فإنى فكرت – إذا ما بدا لك طيباً..

كانت هناك مدفأة موقدة فى الصالون ، وفكر إيوخينيو أنه من غير الملائم أن تظل مشتعلة فى هذه الساعة من النهار ، تأمل المدفأة لحظة ثم رفع عينيه نحو الرجل.

– لا أعتقد أننى لن أعرف، إننى لا أستطيع. ، لقد ظننت ... ولم أفهم الإعلان جيداً..

قال ذلك ، وأشعلت نار المدفأة وجهه.

عندما خرج من الفندق كان ضوء الشمس ينعكس على الأسفلت الخالى من أى شىء ، نظر إيوخينيو إلى الشارع الذى اتسع منتظراً خطواته.

إنه شارع صامت، لا يمر فيه أحد، عدوانى .

نظر إيوخينيو إلى الشارع وشعر بالخوف لأنه لا يعرف إلى أين يذهب.

ALFONSO SASTRE

ألفونسو ساستري

ولد في مدريد عام ١٩٢٦، حصل على ليسانس آداب - جامعة مدريد ، اشتهر بأعماله المسرحية - تبرز منها "يورانيوم ٢٣٥" مجموعة الموت "جردل الزبالة" الأرض الحمراء "خبز الجميع" "القمّاطة" "موت في الحى" "في الليل" الدم والرماد" ، أما أعماله القصصية فله "الليالى المعتمة" و"التوازى ٣٨".

***

فرقعة ووميض

كما تعرفون، أنا واحد من ثلاثمائة واثنين من الباقين على قيد الحياة في مدريد، المدينة التى كان تعدادها - طبقًا لآخر إحصاء - عند الانفجار ٢٣٢٤٤٠٣ نسمة ، دارت صورتى بشكل لا وضوح فيه ، لن أزيد في هذا.

لكن ما يسليني تذكره الآن - حياتى تضيع بسبب الشائعات وليس لدى متعة أخرى غير ذكرياتى - هى إحدى الطرائف التى وقعت لى بعد الكارثة بأيام قليلة ، وأقصّها لطرافتها، ولأنها كوميدية بعض الشىء ،

والحقيقة أن الكوميديا نبات غريب يظهر حتى فى أكثر المواقف تراجيدية ومأساوية.

عندما استعدت وعيي أدركت أننى فى مستشفى ارتجالى أقامه الصليب الأحمر النمساوى فى مدينة فيتوريا ، وعلى السرير المجاور يرقد سيد يوحى مظهره بشيء من الغرابة، وهذا يرجع لبعض الأجهزة المستخدمة فى علاجه، وأتذكر منها بالونة الأكسيجين والمانوتر ونظارة سوداء - بعد ذلك علمت أنه فقد بصره (ليس فقط حاسة البصر بل أيضًا عضوى الإبصار) - والمشبك المعدنى الموضوع فى نهاية عضد ذراعه الأيسر (فقد أيضًا ذراعه اليسرى نتيجة الانفجار، وبعد ذلك عرفت أنه ما زال فيه نبض الحياة بفضل جهاز القلب الإلكترونى) ... فى هذا الإطار بدا لى شئ طريف وهو أن أحد أسنانه كان من ذهب يلمع ، لكن ليس هذا هو بيت القصيد.

أنا لا أستطيع الحراك فقد فقدت، كما هو معروف، ذراعى ورجلى ، لست إلا رأسًا (صلّع كامل نتيجة للإشعاع القوى الذى تعرضت له) وباقى الجسد الذى فقدت منه أيضًا - لا أخجل من قوله - أعضائى التناسلية، ولما كنت لا أستطيع الحركة علقت بصوت عال فحواه أنه لو كان جارى يريد الدردشة معى لنتسلىّ.

- قلت - عندما سمعت صوت فرقعة - كنت فى الحديقة الغربية أقرأ قصة فى هدوء ، كان صباحًا مشرقًا، من كان يقول إنه على وشك أن يحدث أمر رهيب.

- أى فرقعة؟ - سمعت الصوت المتحشرج والمعدنى الصادر عن جارى ، مما لا شك فيه أنه أجريت له عملية فتح فى القصبة الهوائية أو

ما شابه (أنا أجهل مثل هذه الأمور)، ذلك أن الصوت كان يخرج من فتحة في الحلق، بعد ذلك علمت أنه كان يتبرز من فتحة شرج صناعية وهي عبارة عن أنبوب مرن متصل مباشرة بإحدى البالوعات ، بدت لي كلماته غريبة.

– قلت بصوت فيه كدر : الفرقعة التي أحدثتها القنبلة، أي فرقعة ستكون غير تلك؟ خيم صمت يثير الضيق.

– قال بصوت فيه شخير: أنا كنت أعيش في حي لاس بنتساس دل اسبرتو سانتو.

– سألته : ماذا تريد أن تقول بهذه العبارة؟

– كنت ماسح أحذية – تنهّد وخرج شخير واهن من فتحة حلقه.

– و ؟

– كنت قد ذهبت هذا الصباح إلى منطقة أشجار الصنوبر في كانييّخاس، وفجأة أعماني الوميض – تمتم الجار الذي لاحت حيويته في الجهد الذي يبذله في الحوار معي .

– سألته بشيء من الغطرسة – الوميض؟ وميض ماذا؟

– أجابني بثبات وبطقطقة غير لطيفة – وميض القنبلة.

– شرحت له بصبر – كان الظلام قد خيم بالكامل في الوقت الذي سمع فيه الدوي الهائل للانفجار النووي .

– عقب على كلامي : وميض هائل ، وصمت تام كان هذا هو الغريب ، فكل شيء أخذ يتحرك دون أن أسمع أي جلبة.

تصورت أنه كان يسخر مني وأن مخه قد أثرت عليه القنبلة أيضاً.

هذا هو مجمل الطُّرفة ، فطبيعتها كما نرى هي طبيعة كوميدية تكمن في أنه لا أنا ولا جاري كنا نعرف شيئًا، في تلك اللحظات، عن أبعاد واختلاف الموجة (الضوئية والصوتية) التي تسببها هذه الظاهرة (التي – حسبما عرفت في وقت لاحق – تمت مراقبتها بشكل يشبه ما حدث في هيروشيما) وأنه في الأماكن الأكثر قربًا من موقع سقوط القنبلة – في هذه الحالة كانت بلدة تورّخون دي أردوث – يسود وميض صامت، وبعد ذلك يسمع صوت فرقعة شديدة ابتداء من مسافة معينة وتسقط الظلمات فوق الدنيا.

جهلنا هو الذي أدى إلى هذا الموقف الكوميدي الذي يطيب لي اليوم تذكره والذي لم تكن نتائجه سيئة للغاية، ذلك أن كلانا ولتسمحوا لي أن أختم بهذه العبارة الضاحكة – لم يصل الأمر بنا لأن نشتبك بالأيدي نظراً لأنها مبتورة.

***

JESUS FERNANDEZ SANTOS

خيسوس فرنانديث سانتوس

ولد فى مدريد عام ١٩٢٦ ، فاجأته الحرب الأهلية عندما كان فى مدينة شيقوبيا، وعاش فيها حتى انتهت الحرب ، درس فى كلية الآداب والفلسفة جامعة مدريد – درس فن السينما وهو أحد النقاد السينمائيين الذين يكتبون فى صحيفة El pais .

نشر عدة قصص منها : الشجعان (١٩٥٤) فى المحرقة (١٩٥٧) كتاب ذكريات الأشياء (١٩٧١) التى ليس لها اسم (١٩٧٧) بالإضافة إلى مجموعات قصصية منها الرأس الحليق (١٩٥٨) الكاتدرائيات (١٩٧٠) على ضفاف سيدة عجوز (١٩٨٠) أبواب الفردوس (١٩٨١) .

حصل على عدة جوائز منها جائزة "جابريل ميرو ١٩٥٧"، وجائزة النقد مرتين (١٩٥٨ ، ١٩٦٣).

ترجمت بعض أعماله إلى الفرنسية والألمانية والإيطالية والسويدية والإنجليزية.

***

بعيدًا . . بعيدًا عن مدريد

أضاء الأفق فجأة ، وحملت النسمة معها همهمة شبيهة بصوت النار فى الهشيم، ومثلما يحدث فى كل الليالى امتدت شيئًا فشيئًا مشيرة إلى خط جبهة المواجهة البعيد.

أمسك الصبى بالمخدة ونادى.

– ألا تسمعين يا أمى ؟

– نم ، وصل الصوت من الحجرة المجاورة كأنه الطنين.

– ألا تسمعين شيئًا؟

– سوف تتسبب فى إيقاظ أخيك.

– أتتركينى كىِ آتى إلى حيث أنت؟

– لا.

– تعالى أنت إذن .

– اهدأ يا بنى ، وسوف تنام.

حاول الصبى إغماض عينيه ورغم ذلك يفزعه صوت الفرقعات القادم من بعيد ، يتمنى لو كان مكان أخيه الذى ينام بهدوء، بينما كان عليه أن يعيش خوفه أمام النافذة المفتوحة.

كانت الأسرة قد وصلت فى الصباح الباكر، فى الأتوبيس، مع بقية الناس الذين فاجأتهم الحرب وقت التّصييف ، فمنذ أن قطعت جبهة

الحرب طريق السكك الحديدية تاركة الواحد فى الجانب الآخر، فإن الثلاثة – الأم وابناها – أخذوا طريقًا ملتويًا، وازداد ابتعادهم منصاعين لأوامر الإخلاء ، الأيام تمضى بسرعة مثلها مثل القرى والقطارات المحملة بالجنود، والمراقبون الجدد الذين يعرفونهم كل يوم ، إنها قرى بيضاء وحيدة، وعجائز سلبيون وأطفال مجهولون ينظرون دون أن يشيروا بالتحية، جالسين على الكتل الحديدية، التى على جوانب الطريق عند مداخل القرى ، فى وضع من يمتطى صهوة الجواد ، وتتماوج السهول الخضراء والأراضى القاحلة أمام موكب السيارات، وتبقى فى الخلف حتى لا تكاد ترى ، كنائس مدمرة وينابيع مازالت تبعث بمياهها وهى صامتة، وفوق كل ما سبق صمت الرجال، وتصرفاتهم العدائية وغير الواثقة، والخوف من الحرب ، مع الخوف هناك الترقب ، وغير المتوقع كل يوم ، وفى حالة الترحال الدائم والتطواف المستمر بين الحقول الجديدة سيرًا، بمحاصيلها التى على وشك النضوج، مع مطلع الشمس حتى مغيبها خلف الجبال.

كانت هناك قرية مثل التى حلم بها دومًا، فى كل مرة يقرأ فيها أثناء الشتاء حكايات المعارك، إنها قرية مسوّرة بحصنها القديم ذى النوافذ الخالية، وسورها الذى تآكل بفعل الشمس والذى يمتد حتى يعانق البيوت القديمة.

وعندما يحلّ الظلام، يأتى معه الحزن والكدر بسبب قضاء الليلة بعيدًا عن المنزل ، وسرعان ما ينام بجوار أخيه على المرتبة لكنه بعد قليل يستيقظ مناديًا على أمه.

– يا أمى .

– ماذا تريد؟

– لست نعسانًا .

لم تجب الأم، لكنها أيضًا ساهرة، ذلك أن بلاط الأرضية ف مخدعها كان يحدث صوتًا .

– هل أنت مستيقظة؟

– اصمت..

– إنى عطشان، هل تأتينى بقليل من الماء؟

– ليس هناك ماء..

– إنى خائف.

– نم، فنحن سنذهب غداً..

طلقات جديدة أقضت مضجعه وجعلته يتذكر والده.

هل مازال فى مدريد؟ يتذكر الآن سحنته المكفهرّة وهو يدخل المنزل كل ليلة، ولحظات صمته الطويلة على المائدة وإجاباته المقتضبة.

كانت المناقشات المحتدمة تؤرقه فى منتصف الليل، إذ يرفع رأسه من على المخدّة فيجد أخاه مستيقظًا .

– ماذا يحدث يا أنطونيو؟

– نم .. ، هيا ..

دائمًا نفس الكلمة الظريفة ، يبدو أن مهمته الوحيدة فى الأسرة هى النوم دومًا .

- إنهما يتشاجران - يقولها مصراً .

- ماذا تعرف أنت؟

وعندما يحل الصمت تأتى الأم بعد قليل وتوارب الباب بخفة، عندئذ يبقى الاثنان بلا حراك وعيونهما شبه مغمضة .

بعد ذلك بشهور جاء الأب لوداعهم، ووعدهم، وهم يودعونه فى المحطة، أنه سيأتى لزيارتهم كل يوم أحد ، أما الأم فقد قررت فى منتصف الصيف بعد أن تعبت من الانتظار أن تتصل به هاتفيًا فى أحد الأيام ، وعادت يومها باكية ، أتذكر ذلك جيداً .

وفى الأيام التالية وقبل حلول شهر يوليو كان ساعى البريد يتوقف عند شرفة البيت :

- لا شىء يا سيدتى.

ترافق كلماته دومًا حركة مبهمة من يده بأن يضعها على صدره.

وأمام المنزل لا نكاد نميز الوميض الذى يأتى من الجبهة بسبب تباشير الصباح.

- يا أمى .. ، لقد أصبح النهار ، متى سنعود إلى مدريد؟

- غير ممكن.

- ألا يمكن أن نرى الوالد؟

- لا يمكن المرور.

– ولا حتى من هنا عن طريق الجبل؟

– احتمالات المرور عن طريق الجبل أقل..

– فى المحطة مساء أمس كانوا يقولون بأن رجلاً استطاع المرور عن طريق هذا الجبل ... اسمعى يا أمى ..

– ماذا تريد؟

– أين يذهبون؟

– من هم؟

– الذين يمرون..

– إلى مدريد، وماذا أعرف أنا ؟!

– لماذا هم ذاهبون إلى مدريد؟

– لزيارة أسرهم، لزيارة من بقوا هناك، لست أدرى ... لماذا تسأل عن ذلك؟

– لماذا لا نذهب نحن أيضًا؟

يأتى صوت الموتورات من جهة الحقول، فينظر الفتى من الفراغ المفتوح ، بالقرب من المحطة ، هناك أضواء تسير وتفتح طريقًا لها وسط الضباب الذى ينقشع.

– يا أمى ، ألا تسمعين .

– بلى، إنها سيارات.

– هل هى آتية من أجلنا ؟

– هذا محتمل..

– هل سنذهب إلى مدينة شيقوبيا ؟

– إلى حيث يذهبون بنا يا بنى .

– اسمعى يا أمى ، إنها شاحنات.

– الزم فراشك وإلا سوف تتعرض لنزلة برد.

يعود الفتى إلى الفراش، يمضى رتل السيارات مقتربًا، لابد أنه الآن يعبر مفترق الطرق بجوار مخزن القاطرات.

– لماذا أبى ليس هنا؟

– لم يتمكن من المجىء.

– لكن الآخرين يأتون.

– من هم الآخرون؟

– آباء أنطونيو وخوليو ومانولو.

– والدك يعمل كثيراً، عليه التزامات كثيرة.

– لكنه لن يأتى الآن، يمكن أن يأتى ، لا يريد أن يرانا.

– لا تقل هذا.

– لماذا؟

– لأنه والدك.

– الآباء الآخرون يأتون السبت ويرحلون يوم الاثنين، كل أيام السبت ...

– لديه التزامات كثيرة.

– حتى أيام الآحاد؟

– حتى أيام الآحاد.

– غير حقيقى .

– اسكت .

مع الهواء البارد المحمل برائحة اللادن المحترقة يأتى بعض من الأوامر الصادرة، وصوت آمر طويل يختلط بصوت موتورات السيارات.

– يا أمى – ينادى الطفل بصوت أكثر ثباتًا – جاء أناس كثيرون.

– إلى المحطة؟

– فى السيارات ، إنهم جنود .. ، هل سنذهب إلى مدريد الآن؟

– لا تجيب الأم.

– هل سنذهب إلى مدريد؟ متى؟

– خلال بضعة أيام ، عندما ينتهى هذا .

– وإذا لم ينته؟

اشتد اقتراب طابور السيارات حتى إن ضجيجه يمحو الكلمات عندما يمر بجوار النافذة.

وأضواء السيارات الضعيفة تنير مسافة بسيطة أمام العجلات التى تبدو وكأنها تطاردها بأناة، وتغوص فى أول مداخل الجبل ، تأخرت

سيارة واحدة ، توقفت ، ورغم أنها سيارات مختلفة عن السيارات التى تمر أياماً أخرى فإن الفتى يتعرف عليها .

– يا أمى إنهم هنا، لقد جاءوا للبحث عنا ، إلى أين نحن ذاهبون اليوم؟

نزل رجلان من السيارة واتجها نحو المنزل.

– يا أمى ، هل أنت نائمة؟

– لا، اذهب وارتد ملابسك وأيقظ أخاك.

– لماذا تبكين؟

– لا أبكى .

– نعم ، إنك تبكين يبدو هذا عليك عندما تتكلمين.

– هيا لترتدى ملابسك.

– لا تبكى يا أمى ، لا تبكى .

***

0.0.AND MARIA MATUTE

أنا ماريا ماتوتى

ولدت فى مـــدينة برشلونة فى ١٩٢٦/٧/١٥ ، درست الرسم والموسيقى ، نشرت أولى قصصها القصيرة فى المجلة الأسبوعية وبعد نشر أولى رواياتها برزت ككاتبة لها باعها ، من بين القصص التى نشرت لها: حفل فى الشمال الغربى (١٩٥٣) المسرح الصغير (١٩٥٤) فى هذه الأرض (١٩٥٥) الأبناء الذين ماتوا (١٩٥٨) الجنود يبكون ليلاً (١٩٦٤) ، الفخ (١٩٦٩) .

ومن بين مجموعاتها القصصية : الأطفال البلهاء (١٩٥٦) الزمن (١٩٥٧) التائب، وحكايات أخرى (١٩٦١) ، بعض الفتية (١٩٦٨) ، حصلت على عدد من الجوائز الأدبية الهامة وترجمت بعض أعمالها إلى كل من الفرنسية والسويدية والإيطالية والنرويجية والدانمركية.

***

الغصن الجاف

لم تكن قد أتمت ست سنوات بعد، ولم يأخذوها معهم إلى الحقل، فقد صادف ذلك موسم الحصاد الذى يتسم بالحرارة الشديدة الحارقة ، ولم يكن هناك مفر من تركها فى المنزل وحدها ، أغلقوا عليها الباب بالمفتاح وقالوا لها:

– كونى طيبة ولا تُحْدثى جلَبة ، وإذا ما حدث لك شىء فعليك أن تنادى السيدة كليمنتينا من النافذة.

كانت ترد بنعم بإيماءة، لكن لم يحدث لها شىء أبداً ، تقضى اليوم جالسة على حافة النافذة وهى تلعب مع "بيبا" .

أما السيدة كليمنتينا فكانت تراها من حديقة منزلها إذ إن المنزلين متجاوران ، ورغم هذا فإن منزل السيدة كليمنتينا أكبر بكثير، كما احتوت حديقة منزلها على شجرة كمثرى وشجرتى برقوق ، أما على الجانب الآخر من السور فهناك النافذة التى تجلس فيها الطفلة بصفة مستديمة ، وأحياناً ما ترفع السيدة كليمنتينا عينيها عما فى يدها من ثياب تخيطها وتنظر إليها .

– ماذا تفعلين يا طفلتى ؟

الطفلة ذات وجه نحيف، شاحبة اللون، تحيط ضفيرتان نحيلتان بوجهها، شعرها أسود قاتم.

– كانت تجيب : إنى ألعب مع "بيبا".

تواصل السيدة كليمنتينا أعمال الحياكة ولا تعود للتفكير فى أمر الطفلة ، لكنها أخذت تعطى أذنًا صاغية لهذا الحوار الذى يصلها من أعلى، من بين أغصان شجرة الكمثرى ، إذ كانت الطفلة الصغيرة ابنة أسرة السيد/ ميديابيا تقضى نهارها وهى تتحدث على ما يبدو، مع أحد.

– مع من تتحدثين؟

– مع "بيبا"

أخذ الفضول يملأ السيدة كليمنتينا مع مرور الأيام ، كان فضولاً خفيفًا لطيفًا، اتجه نحو الطفلة و"بيبا" ، السيدة كليمنتينا متزوجة بالسيد / ليونيثو الطبيب ، وهو رجل عبوس يعشق النبيذ ويقضى يومه فى توجيه الشتائم إلى القرية وأهلها، لم ينجب أطفالاً، تعوّدت السيدة كليمنتينا على الوحدة ، فى البداية، لم تكن تفكر كثيراً فى هذه المخلوقة التى تعيش فى وحدة مثلها جالسة على حافة النافذة ، لكنها تنظر إليها من حين لآخر، إشفاقًا عليها، لتتأكد من أنه لم يحدث لها مكروه، إذ طلبت منها ذلك السيدة زوجة ميديابيا.

– يا سيدة كليمنتينا حيث إنك تقومين بالحياكة فى حديقة المنزل مساء فهل يمكن أن تلقى نظرة على الطفلة بين الحين والآخر؟ فأنت تعرفين يا سيدتى أنها صغيرة ولا يمكن لنا أن نأخذها معنا إلى الحقل .

– نعم يا امرأة، فهذا لا يكلفنى شيئًا، اذهبى ولا تقلقى.

وشيئًا فشيئًا دخلت الطفلة وحوارها، غير المسموع بوضوح ، إلى قلب السيدة كليمنتينا.

– كانت السيدة كليمنتينا تقول هذا لنفسها : عندما ينتهى الجيران من أعمال الحصاد، وتعود الطفلة إلى اللعب فى الشارع فإننى سأفتقدها.

وأخيرًا عرفت من هى "بيبا"

– إنها العروسة ، شرحت لها الطفلة.

– أرنيها ..

فرفعت الطفلة بيدها المتسخة شيئًا لم تتمكن السيدة كليمنتينا من رؤيته بوضوح.

– لم أرها يا ابنتى ، اقذفيها إلىّ .

ترددت الطفلة .

– لكن هل ستعيدينها إلىّ بعد ذلك.

– بالطبع.

ألقت الطفلة بـ "بيبا" للسيدة كليمنتينا ، عندما تلقفتها بيدها، استغرقت فى التفكير، إذ كانت "بيبا" مجرد غصن جاف ملفوف فى قطعة من القماش مشدود عليه خيط ، قلّبتها بين أصابعها ونظرت بشىء من الحزن نحو النافذة ، كانت الطفلة آنذاك تراقبها بعينين متعجلتين وتمد ذراعيها.

– أما تردينها إلىّ يا سيدة كليمنتينا؟

نهضت السيدة كليمنتينا من على الكرسى وقذفت لها "بيبا" من جديد فى اتجاه النافذة، فمرقت "بيبا" من فوق رأس الطفلة ودخلت فى ظلمة الحجرة ، اختفت رأس الطفلة من النافذة.

وبعد هنيهة عادت للظهور من جديد وقد استغرقت فى لعبها.

منذ ذلك الوقت والسيدة كليمنتينا تصغى للطفلة التى كانت تتحدث مع "بيبا" بلا ملل.

- لا تخافى يا "بيبا" كونى هادئة، "عجبًا نظراتك إلىّ " سوف أمسك بعصا غليظة وأحطم رأس الذئب ، لا تخافى يا "بيبا" اجلسى واهدئى سوف أحكى لك حكاية : الذئب يختبئ الآن فى الجبل..

تتحدث الطفلة مع "بيبا" عن الذئب، وعن الشحاذ الذى يملأ جواله بالقطط الميتة، وعن فرن الخبز، وعن الطعام ، وعندما يحين وقت الغداء تأخذ الطفلة الطبق الذى تركته لها والدتها فوق رماد النار، وتذهب به إلى النافذة، تتناول طعامها بملعقتها الخشبية ببطء، وهى تضع "بيبا" على فخذيها وتشركها معها.

- افتحى فمك يا "بيبا" يا لك من غبية...

تسمعها السيدة كليمنتينا وهى صامتة : تنصت إليها وتشرب كل كلمة تقولها الطفلة، مثلما تنصت إلى صوت الهواء بين الحشائش والأغصان، وإلى زقزقة العصافير وصوت الساقية.

وذات يوم لم تظهر الطفلة فى النافذة، فسألت السيدة كليمنتينا زوجة السيد / ميديابيا :

- أين الصغيرة؟

– آه، إنها مريضة يا سيدتى ، ويقول السيد ليونيثيو إنها مصابة بحمى مالطة.

– أنا لم أدر شيئًا.

هذا أمر طبيعى فكيف يمكن لها أن تعرف وزوجها لا يحكى لها أبدًا أى شىء عن الأحداث التى تقع فى القرية.

– نعم – واستمرت السيدة ميديابيا تشرح – من الممكن أن أكون قد تركت اللبن يومًا دون أن أغليه ... أليس كذلك يا سيدتى ؟ فالواحدة منا مشاغلها كثيرة ! وأنت ترين الحال ، فعلىّ أن أستغنى عن مساعدة ابنى باسكوالين فى الحقل حتى تتماثل الصغيرة للشفاء ، يبلغ هذا الصبى اثنى عشر عامًا، وسوف يظل أثناء النهار فى المنزل لرعاية الطفلة ، لكنه فى الحقيقة يخرج إلى الشارع، أو يذهب لسرقة بعض ثمار الفاكهة من الحدائق المجاورة، فإما إلى حديقة القس أو إلى حديقة العمدة، وأحيانًا ما كانت السيدة كليمنتينا تسمع صوت الطفلة وهى تنادى ، وذات يوم قررت أن تذهب لتعودها رغم معرفتها أن زوجها قد ينهرها على ذلك.

كان المنزل ضيقًا، كريه الرائحة، قليل الضوء، به سلم بجوار حظيرة المواشى يرقد الدجاج عليه ، صعدت المرأة درجات السلم المتآكلة بحرص، كان صريرها واضحًا تحت وطأة قدميها ، شعرت الطفلة بوجودها ، ذلك لأنها صاحت منادية.

– يا باسكوالين، يا باسكوالين .

دخلت المرأة بعد ذلك حجرة صغيرة جدًا لا يكاد يدخلها الضوء إلا من خلال فتحة صغيرة مستطيلة ، خلف هذه الفتحة ترى حركة أغصان

الشجر ذلك أن الضوء كانت تتخلله مسحة من اللون الأخضر والرطوبة، إنه ضوء غريب، مثل ضوء حلم فى الظلام ، تسقط حزمة الضوء الخضراء على صدر السرير الحديدى الذى ترقد عليه الطفلة ، عندما رأتها الطفلة فتحت أهدابها المتكسرة.

– قالت السيدة كليمنتينا : أهلاً بك أيتها الصغيرة، كيف حالك؟

أخذت الطفلة تبكي في صمت وخفة.. ، مالت السيدة كليمنتينا وأخذت تتأمل وجهها المصفر بين الضفائر السوداء.

– قالت الطفلة : أتعرفين أن باسكوالين شقى إنه غليظ الطبع، قولى له يا سيدتى أن يعيد إلىّ "بيبا"، ذلك أننى أشعر بالملل بدون "بيبا".

ثم واصلت بكاءها ، لم تكن السيدة كليمنتينا معتادة على الحديث مع الأطفال ، وكأن هناك شيئًا غريبًا يمسك بحلقها وقلبها.

خرجت من هناك صامتة ، بحثت عن باسكوالين، فوجدته جالسًا فى الشارع وهو يسند ظهره إلى سور المنزل ، كان حافى القدمين، ساقاه سمراوان، عاريتان تلمعان فى الشمس كأنهما مصنوعتان من نحاس .

– يا باسكوالين – قالت السيدة كليمنتينا.

نظر إليها الصبى نظرة غير واثقة، حدقتاه رماديتان، متجاورتان بشدة، شعره غزير وطويل يغطى أذنيه كما لو كان شعر فتاة.

– يا باسكوالين ، ماذا فعلت بعروسة أختك؟ أعدها إليها.

تلفظ الصبى بأحد السباب ثم نهض.

– عجبًا ! أتقولين العروسة ! لقد وقعنا فى مشكلة.

استدار نصف دورة ثم توجه إلى المنزل وهو يهمهم.

عادت السيدة كليمنتينا لتزور الطفلة في اليوم التالي.. ، وعندما رأتها الطفلة فكأنها رأت شريكًا ضالعًا في مشكلة، إذ حدثتها عن "بيبا".

- اطلبى منه أن يعطينى "بيبا" .. ، أن يعطينى إياها..

يرتفع صدر الطفلة من البكاء وتسيل الدموع على وجهها متجهة ببطء نحو البطانية.

- سوف أشترى لك عروسة ، لا تبكى .

قالت السيدة كليمنتينا لزوجها في المساء :

- لابد أن أسافر إلى بلدة "فوين مايور" لأشترى بعض الحاجيات.

- سافرى - أجابها الطبيب ورأسه مختفية وراء الصحيفة.

فى السادسة من صباح اليوم التالى أخذت السيدة كليمنتينا أتوبيس الخط، ووصلت إلى فوين مايور في الحادية عشرة ، في هذه المدينة كانت هناك محلات وسوق وبازار كبير اسمه "الإيديال" أخذت معها مبلغًا صغيراً، كانت قد ادخرته ولفته في منديل حريرى اشترت من "الإيديال" عروسة ذات شعر مجعد وعينين مدورتين وثابتتين، ذلك أنها بدت لها جميلة جداً "سوف تسعد الصغيرة سعادة حقيقية" فكرت السيدة كليمنتينا ، كلفتها اللعبة سعراً أعلى من السعر الذى تصورته، لكنها مع هذا دفعت عن طيب خاطر.

حل المساء عندما عادت إلى القرية، صعدت السلم ، شعرت ببعض الخجل من نفسها ولاحظت أن قلبها ينبض بقوة ، كانت زوجة

السيد / ميديابيا فى المنزل تعد طعام العشاء، وعندما رأتها رفعت كلا ذراعيها.

– أهو أنت يا سيدة كليمنتينا ! يغفر الله لى وأنا أقابلك فى هذا الوضع ! من كان يظن ..!

قطعت عليها تعجبها.

– جئت لأرى الصغيرة: أحضرت لها لعبة.

أفسحت السيدة / ميديابيا لها الطريق لتدخل وقد اعتراها الصمت من الذهول .

– آه يا ابنتى المكروبة ، انظرى من جاءت لتراك.

رفعت الطفلة رأسها من على المخدة ، كان يرقص فى الحجرة الوهج الأصفر لقنديل الزيت المعلق فى الحائط .

– انظرى ما قد جئت لك به : أحضرت لك "بيبا" أخرى أكثر جمالاً.

فتحت الصندوق الكرتونى فظهرت العروس الشقراء الغريبة.

امتلأت عينا الطفلة بضوء جديد يكاد يضفى جمالاً على وجهها القبيح ، وبدأت ترتسم على وجهها ابتسامة، لكن اعترت الابتسامة برودة مفاجئة بمجرد رؤية العروسة ، تركت رأسها تسقط من جديد على المخدة وأخذت تبكى ببطء وفى صمت كعادتها.

– قالت : ليست هى "بيبا"، ليست هى "بيبا".

وأخذت الأم فى الصياح :

أرأيت تلك الطفلة البلهاء ، أرأيت تلك التعاسة! يا الله منها يا سيدة كليمنتينا ! أرجو ألا تأخذى ما تقول مأخذ الجد فقد رزقنا بطفلة متخلفة عقليًا. ، !

رمشت عينا السيدة كليمنتينا (فالجميع فى القرية يعرفون أنها امرأة خجولة ووحيدة، وهم يشفقون عليها بعض الشىء).

خرجت، وأخذت السيدة / ميديابيا العروسة بين يديها الغليظتين كأنها تحمل زهرة.

– آه، يا لها من شىء جميل ! هل شهدت هذه البلهاء ذلك...

فى اليوم التالى أخذت السيدة كليمنتينا غصنًا صغيرًا وجافًا من الحديقة ولفته بقطعة قماش ثم صعدت لتعود الطفلة !

– جئت لك بصديقتك "بيبا".

فرفعت الطفلة رأسها بنفس حيوية اليوم السابق ، لكن علا الحزن وجهها من جديد.

– إنها ليست "بيبا".

ويومًا بعد يوم تقوم السيدة كليمنتينا بصنع "بيبا" الواحدة تلو الأخرى، لكن لا جدوى، ملأها حزن شديد ، ووصل الأمر إلى أسماع السيد / ليونيثيو.

– اسمعى يا امرأة: لا أريد معرفة شىء عن حماقات أخرى مثل هذه، فنحن فى سن لا نقبل فيها أن نكون هدف القيل والقال فى القرية ، لا تعودى لزيارة هذه الطفلة، فإنها ستموت على أى الأحوال ...

– هل ستموت؟

– بالطبع نعم، فليس هناك مناص ! وأهلها ليست لديهم أية إمكانيات ليفكروا فى شىء آخر.. ، وهذا أفضل شىء للجميع.

وبالفعل هذا ما حدث ، إذ لم يكد يبدأ الخريف حتى ماتت الطفلة ، وشعرت السيدة كليمنتينا بالألم الشديد فى داخلها ، وتولد عندها شغف حنون بـ "بيبا" وأمها الصغيرة.

عندما أخذ جليد الشتاء يذوب مع مطلع ربيع العام التالى ظهر الغصن الجاف صباح أحد الأيام، أثناء التقليب فى الأرض تحت شجرة البرقوق ، ملفوف فى قطعة قماش أحرقها الجليد وأصبحت مهلهلة.

كما تحول اللون الأحمر للقماش إلى لون وردى باهت ، فأخذتها السيدة كليمنتينا بين يديها وقبّلتها بوقار ، ونظرت إليها تحت أشعة الشمس الحمراء الواهنة.

– حقًا – قيل – كم كانت الصغيرة على حق ! يا له من وجه جميل وحزين، وجه هذه العروسة.

RAFAEL SANCHEZ FERLOSIO

رفائيل سانشيث فيرلوسيو

ولد فى روما (ديسمبر ١٩٢٧) ، حققت له روايته El Jarama شهرة واسعة، وله مجموعة قصصية عنوانها "صناعات ومغامرات ألفانوى" .

***

أسنان وبارود وفبراير

هناك طلقتان قطعتا السكون المسيطر على رقعة الأرض ، وعلى أصوات الرجل، قفز رجال آخرون من مخابئهم وأقدموا مهرولين، وهم يفتحون لأنفسهم مكانًا وسط الحشائش والشجيرات التى لا تكاد رؤوسهم تطل منها ، معهم عصيّهم ، بينما هو يراهم قادمين، فرد ساقيه ووقف بلا حراك وبندقيته فى يده بعرض صدره ، أخذ يتأملهم وهو يبتسم بشدة، بينما هم يتوافدون الواحد تلو الآخر، وأخذوا يكوّنون حلقة حول أنثى الذئب وهى تحتضر ويلطخ دمها الحصى المتناثر فى منطقة صغيرة خلت من الشجيرات ، حيث ما زالت بعض الحشائش التى تنمو فى شهر فبراير مخضبة بندى الصباح ، كان العمدة آخر من وصل، إذ جاء وهو يعرج، ويفتح لنفسه طريقًا بمؤخرة البندقية، بينما يتطلع إليه الجميع، الذين أفسحوا له مكانًا فى الحلقة المضروبة والتزموا الصمت

كما لو كانوا ينتظرون ما سوف يقوله ، نظر برهة إلى أنثى الذئب، وبعد ذلك رفع رأسه نحو وجه الرجل الذى قتلها وقال له :

– بوركت يا رجل، الحمد لله – كان يربت على ذراعه بكفه – هيا، لقد كنت محظوظًا في ضربها واستطعت أن تجعل جهد الجميع مجديًا ، فهذا يعود نفعه على القرية، والواجب على الجميع أن يشكروك ، تهنئتى .

– قال آخر : هذا ما أظنه أنا أيضًا – لقد ضربنا ضربة طيبة هذا الصباح ، وأعتقد أن علينا أن نهنئ أنفسنا.

– واصل العمدة : حسن يا رجل حسن، هذا هو المكان الذى يكتسب فيه الصيادون خبرتهم ، كم كان يطيب لى هذا، أليس كذلك؟ – كان يحرك رأسه وهو يبتسم – فأنا على مدى حياتي وحتى الآن لم أحظ بأن أجد أمامى حيوانًا مثل هذا ، أما الثعالب فقد قتلت منها ما لا يقل عن أربعة أو خمسة وعندى فى المنزل جلد اثنين منها، إذا ما أردت أن تراهما ، لكن بالنسبة للذئاب، لم تصادفنى قط كذلك؟ عندما ترى أنثى الذئب وهى تتقلب ! انظر كيف تضحك ! أنت لم تنم هذه الليلة وسوف تتذكر الوقائع وتتسلى بها معه !

– لا لن ينام ! ولن تكون له شهية للطعام ! كان هناك رجل قصير يضحك – نفس الشيء كما لو كان عاشقًا ، نفس الأمر.

– حسن أقول إنك تستحق كأسًا، ليس أقل من ذلك.

– قالها العمدة وهو يلم ساقه المصابة بيديه – هيا إلى تناول كأس، وينزل بجسده مقتربًا من الأرض وهو يبذل جهدًا كبيرًا حتى جلس إلى

جوار شجرة بلوط ، هيا لنشرب كأسًا . ، اقترب منه أحدهم وقدم له زجاجة خمر بطعم الينسون كان بها نبيذ أحمر اللون :

– ها هو يا سيدى العمدة.

– لا ليس هكذا، أنا بعدكم، أول من يبدأ هو من قتل أنثى الذئب، فهو الذى توّج هذه العملية ، وبالتالى فهو أول من يشرب.

– حقًا، فهو يستحقها عن جدارة.

– إنه الحظ ليس إلا – قالها الرجل الذى قتل أنثى الذئب وأخذ الزجاجة – مكمن الخطر هو أن يدخل ذلك الحيوان منزلي ويهاجمنى ، وأنا لم أفعل إلا ما يجب علىّ ، وإذا ما دخل منزل أحد، كنت سأتصرف تمامًا مثلما فعلت.

لحوا، من بعيد، بعض الرجال الذين قاموا بالإعداد لعملية الصيد، بعضهم كان يمتطى صهوة الخيل، واقترب أيضًا أحد الرعاة، وهو يهرول، ويتقدم بخطى حثيثة وقفزات بين الشجيرات ، كان يحرك عصاه فى هذا الجانب وذاك لدرجة أنه كان يسمع صوت الحشائش التى يباعدها، أخذ يسأل بصوت عال إذا ما سقط الذئب، أو ماذا حدث بينما يفسح الآخرون له الطريق فى شبه حلقة حتى يصل إلى حيث أنثى الذئب التى ما زالت تحتضر تحت النظرات الباسمة للراعي :

– آه، إنى أعرفك ! أخذ يقول تلك العبارة وهو يحرك رأسه ويتوعد بعصاه " عجبًا" إنى أعرفك يا صديقتى ! لم أكن أراك ضخمة، لكنك هو أنت وليس غيرك حتى لو كنت وسط مائة أخريات! هل حانت ساعتك؟ أليس كذلك؟ إننى كنت أقول لك ذلك! كان سلوكك سيئًا للغاية وبالتالى لم

تموتى فى هدوء ، أظننت أنك ستموتين من الشيخوخة؟ أكنت ستفسحين لنفسك مكانًا مدى الحياة؟..

كانت تهتز أضلع أنثى الذئب وهى تحتضر وينزف الدّم من فمها، فتظهر أنيابها التى تعض بها الهواء عضات تهوى بين الأرض والحشائش كأنها تريد أن تروى الحشائش التى نبتت ، أخذ المصارع يضع طلقات أخرى فى بندقيته وطلب من الآخرين أن يبتعدوا لكن الراعى أمسك بذراعه :

– قال له : اهدأ – لا تهدر طلقة: اترك الأمر لى ، فإنى سأتولى أمر هذه وسوف ترون أيها السادة، لا تهدر ثمن الطلقة وهو ٢ بيزتة.

– قال آخر مصححًا : إن الثمن ٢,٢٥ – فسعر الطلقة الآن أصبح ٢,٢٥ بيزتة وهى طلقة البارود بدون دخان .

لم يسمعه الراعى ، ذلك أنه عاد صوب قطيعه الصغير الذى كان يرتع فى عمق الوادى وأخذ يطلق صفارات قوية وطويلة ينتشر صداها فى كافة الأنحاء وأخذ يكرر بصوت عال أسماء كلبيه هما اثنان لونهما أبيض ومن النوع الضخم الجسم (مساتين) ، ظهرا فى النهاية بين النعاج وجاءا بتؤدة وتكاسل وهما يحركان ذيليهما ، مستجيبين ببطء لنداءات صاحبهما الذى ظل يحفزهما بصياحه المتزايد حتى إنهما، وهما على بعد مائتى خطوة تحسسا بأنفيهما رائحة أنثى الذئب، وفجأة تغيرت حركتهما المستأنسة، وتغيرت ملامحهما المسالمة، كما لو كانت الحرب قد أعلنت فجأة، وأخذا يجريان وسط الشجيرات وهما ينبحان، ويرى لونهما الأبيض وهما يقفزان فوق النباتات ، ثم ضربا بأنيابهما فى رقبة أنثى

الذئب التى اشتدت جروحها ، وأخذا يهزانها ويتجاذبانها بين فكيهما وهما يزمجران زمجرة مكتومة بينما يحمسهما الراعى بصوته المنتصر وهو وسط الحلقة، والرجال ينظرون فى صمت ، وبعد ذلك لم يستطع الراعى أن يخلص الفريسة من كلبيه بعد أن تركهما يعضان لحمها لمدة دقيقتين ، وكلما حاول أن يباعدهما بأن يضع عصاه بين فكى كل منهما كانا يزمجران ضده ويعودان للإمساك برقبة أنثى الذئب التى أصبحت مليئة بآثار الأنياب عندما تركها الكلاب وما زالت تلمح على جسدها آثار النزع الأخير ، اقترب منها الراعى وداس على فكيها بنعله وضغط عليهما فى الأرض، ثم رفع نبّوته فى الهواء، وحطم جمجمة أنثى الذئب بضربة واحدة حيث سمع صوت عظامها وهى تتكسر وتنغرس فى المخ ، بعد ذلك جلس الراعى على الأرض بجوار أنثى الذئب الميتة وأخذ يتحسس بطنها بيده وجذبها من إحدى حلمات ضرعها وضغط عليه بين أصابعه حتى استطاع أن يستخرج منه قطرات لبن قفزت بين فخذى أنثى الذئب وجرت فوق شعر بطنها وشعر ظهرها، ثم سقطت على الأرض بين حشائش فبراير "كانت تربى صغارها" قالها الراعى وهو ينهض ويوجه نظراته نحو الآخرين .

فى هذه الأثناء وصل الذين شاركوا فى الإيقاع بأنثى الذئب، واستعرضوا وضعها وهم يشعرون بسعادة لما انتهى إليه الجهد المبذول ، بعد ذلك أرادوا أن يحملوها على أحد الخيول، لكن الحصان عبر عن نفوره بركلات برجليه الخلفيتين وتراجع إلى الوراء، حتى لا يلقوا بأنثى الذئب على ظهره، فما كان منهم إلا أن ربطوها بحبل من رقبتها وحملها رجلان: أمسك أحدهما بذيلها والآخر بالحبل الذى ربطوه بها، وبهذا لا

يتلطخون بدمها ، كانت أنثى الذئب ضخمة الجسم وتلامس أرجلها الأرض وهم يحملونها ، قدم لمشاهدتها اثنان من أحد المزارع وأحد البغّالين وما يقرب من نصف دستة أطفال عندما خرجوا بها من هذه الرقعة، فى الوقت الذى أخذ فيه باقى الصيادين ينزلون المنحدر ، أما الفتية الصغار فقد بالغوا فى إزعاج جسدها إذ أخذوا يلمسونه وقد تأثر بالضربات وأخذ بعضهم يجذبها من أرجلها كما لو كانوا يشاركون الرجال فى حملها ، أخذ أحدهم يتحسس اللحم البارز فى رقبتها بيده ثم رفع يده عنها وقد تلطخت جميعها بالدم، وأخذ يخيف بها البنات الصغيرات، إذ كان يحاول أن يلطخ وجوههن دون أن يشعرن ، كان العمدة يسير فى نهاية الركب وهو يعرج، برفقة اثنين من أعضاء المجلس القروى كان أحدهما هو الذى قتل أنثى الذئب، أما الراعى فقد أخذ يلح عليهم أن يذهبوا معه إلى "الكوخ" (الخص) وأن يقضوا فترة الغداء هناك، إذ يود أن يذبح لهم اثنين من الماعز ويجهزهما فى الحال، وليتفضل الجميع بتناول الغداء، كما لو كان الأمر حفلة صغيرة، فهم قد انتهوا من مهمتهم بسرعة، فلم تكد الساعة تبلغ الحادية عشرة، وهناك متسع من الوقت ليستقلوا سيارة النقل ويعودوا إلى القرية فى وقت مناسب، فهو يشعر أنه يجب أن يكون أول من يتوجه بالشكر، وأن ذبح اثنين من ذكور الماعز ليس شيئًا بالمقارنة بالخطر الذى أزاحوه عن قطيعه بقتل أنثى الذئب الشديدة النهّمة، والشريرة التى كانت تعبث فى كل مكان، كما أن دعوته لا مناص منها فهو قد أرسل إلى من فى الكوخ بتجهيز كل شىء ، وها نحن نسمع صوت ذَكَرى الماعز وهما يذبحان "أنصت .. ألا تسمع صوتهما ؟ – يقول له – ألا تشعر كيف يعربان عن خوفهما؟ إذ إنهم يذبحونهما الآن، أمامنا فى الحوش.

وضع جسد أنثى الذئب بجوار الكوخ وخرجت النساء لرؤيتها، لكنهن لم يضحكن ولم يستمتعن، توقفن فقط لإلقاء نظرة عليها، نصف التفاتة، مع الإحساس بأنهن يعدن مسرعات كمن يرى شيئًا لا قيمة له ولا يثير فضولاً أو اهتمامًا اللهم إلا أنه تم اقتلاعه ، فقد لمعت عيونهن ببريق غامض كمن يعبر عن سعادته بأن أمامه ضحية انتقام مرض ، بينما جلس الأطفال جلسة القرفصاء وحكوا أيديهم على جلدها وأخذوا يمسكون بمخالبها ويثنون أطرافها ويفردونها، ويلمسون عينيها، وبواسطة عصا يرفعون شفتها السفلى الدامية حتى يتمكنوا من رؤية الأنياب ، وأخيراً أخذ الرجال يتأملونها دون أن يجلسوا جلسة الأطفال، أو حتى الاقتراب كثيراً منها، وهم يبتسمون كمن يرى شيئًا ربحه، أو برهان ودليل عمل مقدام، أو سمة من سمات السيطرة، أو، في كلمة واحدة، يرى جائزة ، كان الراعي قد أخرج إناءين من النبيذ، بينما جلس الجميع في حلقة واسعة أمام الكوخ، في الوقت الذي قامت فيه النسوة بتقطيع لحم ذكرى الماعز وأخذن يضعنه في الأواني، أما الأطفال فقد أخذوا يشيرون إلى الرجل الذي قتل أنثى الذئب ، حيث يجلس على يمين العمدة، ثم أشاروا بعد ذلك إلى بندقيته بين كل الأسلحة الأخرى التي ترقد متراصة في صف بجوار شجرة بلوط "أطلق عليها النار من تلك البندقية وقتلها"، بعد ذلك أخذ أحد أعضاء المجلس القروي بعد أن شرب النبيذ يقول بصوت عال : ليست هناك قرية في الناحية تعرف مكافحة الذئب كما يجب، وأن الذئب يجب محاربته في أرضه، وأن تتم محاربته بنفس وسائل مكره وحيله، وأنه يجب محاربة الذئاب وألا تترك في راحة وهناءة أبداً، وإلا فإن قطعان الأغنام لن تزيد أبداً ، وأن أهالي القرى المجاورة عندما يخرجون لاصطياد الذئاب في حياتهم ، فالصمت هو أول

العناصر الضرورية للإيقاع بالذئب، أما العنصر الثانى فهو عدم مهاجمته من الجهة التى يمكن أن يشتم الرائحة منها، وثالثها الجّد - مثلها مثل كافة الأمور فى الحياة، فانعدام المثابرة لا يؤدى إلى أى مخرج ولن يخرج الإنسان بشىء إلا المتاعب ومضيعة الجهد ، والذئب حيوان ماكر - كان يقول - ويستطيع السير حتى عشرة فراسخ فى ليلة واحدة، ومن الضرورى القضاء عليه فهو حيوان يقتل من أجل القتل فهو يقتال مائة نعجة، لكنه يأكل واحدة فقط، وهذا يفعله لشره، ولأنه يريد الأذى ليس أكثر، هو فى هذا يشبه إنسانًا ملأه الشح، وهكذا توقف عن الكلام ، فصفقوا له وضحك الجميع ليس فقط من الكلمات التى قالها بل من آثار ضحكهم أن يقوم واحد من عالم الإنسان بإلقاء الخطب والمواعظ ، لكن العمدة يشعر بأن من واجبه أن يقول بضع كلمات، عندئذ قال ببساطة إنه باسم الجميع يتوجه بالشكر للراعى لحفاوته واهتمامه بهم، وهو بهذا إنما يعبر عن وعيه كرجل، وأنه معنى بكل ما يخصه فقد استطاع تقدير رغبة مجلس البلدية والفائدة التى تعم بالقيام بمهمة صيد الذئاب على نطاق المراعى ، وأن هناك كثيرين من الجهلاء والأنانيين وغير الشكورين الذين لا يريدون أن يسهموا بشىء ويتصورون أن عمليات صيد الذئاب إنما هى عملية ليست إلا من وحى خيال البلدية، وأنها عمليات تنظم لتسلية أعضائها وقضاء يوم ممتع فى الحقول على حساب أهل الناحية، ويتقوّلون أيضًا بأن اصطياد ذئب لا يؤخر من الأمر أو يقدمه، فالذئاب تعد بالمئات، ويرون أن يصطادوها بالعشرات وهم بهذه الحجة يعفون أنفسهم من الإسهام، ولو بأقل القليل من المال، فى قتل ذئب، وأن هؤلاء الناس يجب أن يحذوا حذو هذا الراعى ، فهو

عندما يفعل هذا يعرف ما يفعل وبهذا يعبر لنا عن أنه يعرف بعض الشيء عن ماهية قطعان الماشية وما يمثله الذئب من خطر ، بينما يبتسم الراعى وهو ينصت للعمدة ويؤكد كلامه بإيماءات برأسه، بعد ذلك توجه الراعى بالشكر للعمدة قائلاً إن أنثى الذئب هذه هى التى كان يراقبها منذ أربعة أعوام، ويعرفها بشكلها وآثار أقدامها التى تتركها، إذ إن أثر مخلبها الأيمن هو أكبر بإصبعين تقريبًا، وأنها كثيرًا ما تتجول فى هذه الناحية، وقد سببت له أضراراً بالغة ومتاعب جمة، لدرجة أن الكلاب كانوا يخشونها حيث كانت تمرغّهم سواء كان الطوق الحديدى الشائك فى رقبة الكلاب أم لا، حدث فى المرات الثلاث أو الأربعة التى تعاركوا فيها، ولهذا فهو يصفق لقرار البلدية بإسهامها فى هذا الموضوع، وخاصة هذه النهاية المثمرة التى جعلت رحلة اليوم مفيدة ، وأنه لا يستحق شكرهم فهو لم يفعل إلا الواجب بل وقصر فيما يستحقه هؤلاء، وأنه من جانبه سوف يؤيد أى عمل فى المستقبل دومًا، بالقليل بالطبع، لكن سيؤيده دومًا بكل ما فى وسعه.

بهذه الطريقة وبتلك التصرفات كان هناك متسع من الوقت لطهى لحم ذكرى الماعز، وسرعان ما ظهرت خلف الكوخ وجوه النسوة الأربعة وقد سترها حجاب من البخار الصاعد من الأوانى التى أصابتها آثار الدخان ، فى الوقت الذى نهض فيه الراعى وأخذ يعد المكان الملائم لوضع الأوانى موزعة على الحلقة المضروبة بشكل تكون فيه كل آنية مخصصة لستة أفراد أو سبعة، وأخذ يبذل جهده فى العناية بمدعويّه ، وبالطريقة التى يعتقد أنها هى المثلى لهم ، وأنه لا ينقصهم شىء ، وعندما رآهم يأكلون أخذ يبتسم ويقول إنه كم ستنقضى سنوات دون أن

يرى كوخه هذا وقد طاف به الضيوف الكرام ، بينما هو فى هذه المجاهل يعنى بقطيعه ، كانت هناك أربع نساء فى الكوخ إحداهن عجوز والأخرى شابة أما الأخريان فكانتا متوسطتى العمر ، لا يعرف الحضور من هى زوجته ، وهكذا فعندما انتهوا من طعامهم ، والدردشة بعد تناوله ، وأخذوا يستعدون للرحيل أرادوا أن يتركوا خمسين بيزتة على سبيل الهدية لأبناء الراعى ، ولا يعرفون إلى أى من السيدات يسلمونها المبلغ ، ولم يجرأوا حتى بالسؤال ، وحتى يمكن الخروج من المأزق بشكل لائق فإن العمدة قد توجه إلى الراعى وسأله عن عدد أبنائه ، ومن هم من بين هؤلاء الأطفال فقال له إن له أربعة أبناء وأشار إليهم بالنبوت وهم ضمن مجموعة من الأطفال كانوا يلعبون تحت شجرة بلوط وكانت إشارته مثل إشارة من يريد أن ينتقى من القطيع بعض الخراف تمييزاً لها ، أما الابن الأكبر فهو الآن يرعى القطيع فى الجبل أما الرابع فقد دخل للبحث عنه فى الكوخ وخرج به بين ذراعيه وهو ملفوف برداء من الصوف وقدمه مبتسماً للعمدة وهو يقول : "انظر كيف أنه رضيع صغير" ، وأخذ يكشف الأغطية عنه قليلاً ، حتى يمكن أن يرى العمدة وجهه المختبئ والخالى من أى تعبير بعينيه المغمضتين والمليئتين بالعُماص، لا تكاد تطرفان مثلهما مثل جسمه الذى يغوص هناك فى فراشه كأنه شرنقة ، "عمره أربعة أشهر" كان الراعى يقول وهو يبتسم، وعاد لتغطيته ، علق العمدة بدوره "من يدرى أن هذا سيصبح رجلاً خلال عشرين عاماً ويقوم باصطياد الذئاب !" ، وفى الوقت الذى أخذ فيه الراعى يضع طفله من جديد فى الكوخ نهض الجميع وأخذوا يجمعون حاجياتهم استعداداً للتوجه إلى الطريق المرصوف لركوب سيارة النقل

والعودة إلى القرية قبل مغيب الشمس، قام البغّال الذى أشير إليه بسلخ أنثى الذئب ودفن لحمها ، وقام بفرد الجلد على غصنى بوص موضوعين على شكل صليب وأصبح كأنه طائرة ورقية، وبشكل يظل الجلد معه مفروداً ومشدوداً حتى يجف تمامًا ، الآن يراها الجميع، وهم على الطريق، معلقة فى أحد أغصان شجرة بلوط، ليس بعيداً عن الكوخ حيث يحركها الهواء ببطء بين الحين والآخر ،

***

JUAN GARCI HORTELANO

خوان جارثيا أورتيلانو

ولد فى مدريد عام (١٩٢٨) من بين مجموعاته القصصية "ناس من مدريد" (١٩٦٧) والأعمال الكاملة (القصة القصيرة) (١٩٧٩) .

***

الحب الأخير

انتهى الأمر بذهابه، والآن أريد أن أكون واثقة تمامًا أنه لن يعود أبدًا، فهل هذا يصلح الأمور كثيرًا؟ رغم أننى توليت بنفسى ألا ينسى حتى أى منديل من مناديله، يبدو لى فى الوقت نفسه أنه لم يختف تمامًا ، وحتى إذا عادت الأمور إلى وضعها العادى ، فلن تكون كما كانت ، فالأوضاع قد تأثرت ، وأصبحت موبوءة لدرجة فظيعة، وأصبح المنزل مليئًا ببذور الأحلام المزعجة، وتواتينى رغبة فى نزع أسلاك التليفون وجرس الباب، أو حتى مغادرة المنزل ومغادرة المدينة أيضاً حتى لا يعود ، هم يعرفون بطبيعة الحال ما أصبو إليه فى الخروج طائرة وأنا أنزل السلالم منتعلة الشبشب ، وفى شعرى الرولات ، أو عريانة إذا ما جاء وأنا فى الحمام ، وعلى استعداد لعدم التنازل حتى ولو تورم وجهى من اللكمات ، أو هددنى بالطلاق ، أو حتى سجنونى فى دار لرعاية المسنات ، ليس هذا هوى فى نفسى ، أو حتى رأيًا، إنه الخوف الذى يباعد بينى وبين أن أضع معطفًا على كتفى قبل أن أنطلق هاربة ،

يعرف ذلك بنيدتو ، وفوق ذلك يعرف أن هذه هى القطيعة النهائية بينى وبينه.

لكنه ذهب ، فبعد الكنس والدعك والفرك والغسيل والتلميع ، وربما أقول لدرجة التكفير عن النفس ، فإننى سأترك شباك حجرته مفتوحًا لمدة يومين وليلتين ، بنديتو كان يضحك منذ برهة ويرى كيف كنت مندفعة ، وأنا أتصبب عرقًا ، كالسوط يملأنى الغيظ ، ثم كرّر بعد ذلك ، وقد أحس أيضًا بانفراجة ، بأنه لن يعود أبدًا إلى هنا كضيف ، عندئذ صدرت منى الفرقعة .

– فقلت بصوت عال وجذبت ذراع المكنسة الكهربائية وتوجهت نحو ابتسامته : انظر ، اسمع ، اسمعنى جيداً ، ضع ما أقول فى رأسك جيداً ، عليك الآن أن تشترى لى ماكينة الخياطة و" مَطْبَقِيّة" جديدة ، وطقم حلل كاملاً ، وثلاثة فساتين ، وعليك أن تذهب بى إلى البلاج لأقضى أسبوعين ، وأن تذهب معى إلى المسرح كل ليلة ، وأن تضع فى رأسك جيداً كل ما أقول ، ولا تدفع لى أى نقود مقابل كل ما عانيت ، لقد ظللت طوال عشرة أعوام تأتى لى بكل ما ليس له قيمة وتجعل من "الحبة قُبة" حلت عليك اللعنة !

– اهدئى – قال لى وهو هادئ لكن دون ضحك ، اهدئى ، وقبل أن يمضى كرر قوله : لن يحدث شىء ، وأضاف لا تجهزى عشاءً لأنى سآخذك هذه الليلة لنتعشى فى محل جيد وبعد ذلك نبحث عن فيلم نشاهده .

– وفر على نفسك السينما ومحل الطعام! فما أريده هو أن أعود لأكون كائنًا بشريًا ، قبلنى من جبهتى وشفتاه ترتعشان ، ذلك أنه مما

لا شك فيه يشعر بالخجل سواء تصنّع الهدوء أم لا ، أخذت أشعر بالخجل فى الأيام الأخيرة كلما زاد خوفى ، وأنا أدرك أنه من غير الممكن أن يتحملنى فى النهاية ، وجرؤ على التفكير فى أن زوجته تستحق شيئًا من الاعتبار ، هذا الصباح عندما ظهرت فى حجرة المعيشة ورأيت الشنطة وجراب الكمان وقد أغلقا ووضعا بجوار الشرفة ، وفى اللحظة المناسبة التى خمنت فيها أنه ذاهب داخلتنى نوبة غبطة ، فأول ما عّن لى هو أن بنديتو قد انتقلت إليه فى النهاية عدوى الضيق منى ، فتحدث مع من هم أعلى منه مركزًا وأن الرؤساء قرروا إبعاده عن المنزل ، ولا ، لا ، لا ، إنه ذاهب لأى سبب من الأسباب لكنه على أى الأحوال قرر هذه الخطوة بمحض إرادته، فى الوقت الذى أخذت أهدئ من روعى فيه، ازددت اقتناعًا بأن بنديتو لم يجرؤ على الكلام مع أحد ، وأنه لم يكن ليقبل - إذا لم يناسبه ذلك - أن يأمره من هم أعلى منه سلطة بالرحيل ، فهو لم يضع فى اعتباره أبدًا أحدًا أعلى منه... من كان سيحترمه كرئيس أعلى منه وهو معروف عنه أن كافة الهيئة تخشاه ؟ وعندما يرى الموضوع من زاوية أخرى، فمن كان سيؤثر - باستثناء بنديتو - فى شعور امرأة بالإحباط وهى امرأة ليست أختًا بل زوجة أخ عجوز تعس؟ امرأة لا قيمة لها - ربما فكروا فى ذلك - فلا مناص لك، فاخدميه ولا تزمجرى كثيراً.

لم أشعر أبدًا بسعادة، ولا حتى فى البداية وأنا أجهل كل شىء ، الشقة تتسع لشخص آخر - هو ذلك الابن الذى لم نرزقه - والعمل لا يرعبنى ، كما اتضح أن الزوج منظم يأكل قليلاً وليس مدللاً ، لكننى شعرت بعدم الراحة منذ أن عبر أول الشارع ، وعدم الراحة هذه لم تكن

أقل مما هى مع المئات – أجانب أو من أهل البلد – الذين أتى بهم بنديتو طوال عشرين سنة من زواجنا، لكن شعرت بالضيق ذلك أننى لا أبلغ من العمر الآن عشرين عامًا ولا تهمنى هذه الهيئة فى شىء، شكلتنى الحياة لأكون زوجة رجل مثل بنديتو، ولم أطلب من الدنيا أكثر من هذا سوى (شىء مضاد يجب أن يكون كما يقولون) أن يكون بنديتو أخًا، وأن يموت كذلك، رغم أنه لا يوجد آخر يمكن أن يكون بهذه الصفة ومهما أظهر الواقع من خطئه، والفشل ورائحة التراب، والرائحة الكريهة التى تنبعث من الرجال جميعًا ما عداه.

دخل من الباب وعبر الاستقبال ثم توقف فى غرفة المعيشة بجوار الشرفة وظل برهة وهو يحمل الشنطة فى يد والكمان فى اليد الأخرى، كان شكله فى الضوء مختلفًا رغم أنه قد قصّر شعره مثل الإخوة القدامى، ورغم السنوات الطويلة فى العمل إلا أنه لا يعمل منذ بضعة أعوام.

– سألنى: ما اسمك؟

– أجاب بنديتو بدلاً عنى: استيفانيا.

– سأكون بالخارج وقتًا قصيرًا، وبالتالى سأكون هنا أطوف بالحجرات معظم ساعات النهار.

سارع بنديتو بالرد كأن كلمات الآخر ونبرة صوته ينبئان عن شىء من الاعتذار أو رغبة فى عدم المضايقة أو مجرد بادرة على حسن التربية قائلاً: هذا لا يعنيها فى شىء.

لم يخرج للشارع طوال أول أسبوعين، كان يقرأ الصحف ويرسم مباني ذات واجهات منمقة ثم يقوم بعد ذلك بتمزيقها إلى قطع متساوية ، ويطل من الشرفة ، أثناء العشاء وما بعده بقليل كان يدردش مع بنديتو ، لا يتوقف عن الدردشة بإيقاع سريع ، لدرجة أنه لم يكن ينتقي الألفاظ ، وبالتالي كان يتحدث بلهجة أهل إقليمه دون أن يدرك ذلك أحد بمن في ذلك بنديتو ولو بالتعبير عن دهشته التي تتركها كلمات الآخر في نفسه ، إنها ذكريات الحرب وإسبانيا والهروب والمواجهات والمتفجرات والليل والمكائد ، لم أكن أسمعهم – أسمعه – وعندما انتهى من تنظيف الأواني سأتوجه إلى السرير وأنتظر في غرفة النوم المظلمة أثناء رنين صوته ، وأن يأتي بنديتو متعبًا يغالبه النعاس ، وقد شعر بالغرابة لحكايات الأخ ، لم يكن يريد سؤاله لكنها كانت أيامًا كثيرة ، ولم يطل المقام بمن سبقوه مثله.

– هو في هذه الآونة ليس مقيمًا بصفة مؤقتة ، أتفهمين؟

– لا، لست أفهم ، ويمكن أن تكون أنت الآخر غير فاهم ، لكن حاول أن تعرف متى سيرحل، أريد هذا فقط .

– علينا ألا نلف وندور – قال العبارة ثم استدار في السرير.

وذات صباح بعد انقضاء هذين الأسبوعين أو أسبوعين ونصف الأسبوع وعندما كنت أحمل صينية الإفطار وجدته مرتديًا معطف المطر ، وقال لي إنه لن يفطر وربما أفطر بعد ذلك عندما يعود ، وبعد مرور ساعة تقريبًا عاد وتناول إفطاره عندئذ بشهية وهو لا يكف عن الكلام ، لم يذكر لي أبدًا اسم التنظيم ربما لأنهم حذّروه أو ربما لأني امرأة ،

وفى الحقيقة لم يتكلم معى إلا أقل القليل لكنه هذا الصباح لم يكف عن الثرثرة بشأن الشوارع والشمس والناس كما لو كنت أنا محبوسة فى الدير ومهمته هو أن يكتشف لى العالم ، لم أُعِرْهُ أكثر من ذلك .

وعلى سبيل المزاجية - يمكن القول - وبين الحين والآخر يؤخر موعد الإفطار ويخرج إلى الشارع وهو يرتدى معطف المطر - غير جيد الإحكام على صدره - ويعود بعد ساعتين ويتناول إفطاره ، أما أنا فأحيانًا أشعر بأنه فى حاجة للرفقة والحديث لكننى لا أعيره اهتمامًا ، وفى بعض الأيام بدلاً من أن يرسم الواجهات الغريبة، يرسم وجوهًا ، وجوهًا تصيح، ثم يقوم بتمزيقها رويدًا رويدًا بنوع من الصبر ويملأ طفاية السجائر الكبيرة بقصاصات الورق ، كان أول ما أثار شكوكى هو ذلك الزرار فى معطفه .

كما أننى لا أعتقد أنه كان يتدارى منى ، كان يتحفظ بشكل طبيعى ، بعادة الصمت، الصمت المهنى بالطبع، لكن لم يهمه فى شىء أن أعرف وأنه - ليس غباء منه - يأمل إن عاجلاً أو آجلاً أننى ، التى أرتب له حجرة نومه، والتى أقضى اليوم فى المنزل معه بمفردى ، سوف أكتشف أمره فى النهاية رغمَ ما قد أكون عليه من غباء ، فلماذا يقوم بوضع أحد أزرار المعطف فى غير العروة المخصصة له، وبشكل يكون فيه المنظر غريبًا، لكن ليس بدرجة شديدة ؟ لماذا إذن يتظاهر بأنه لا يحمل شيئًا تحت معطفه رغم أن تغيير وضع الزرار يجبره دومًا على أن يضع يده اليسرى فى جيبه ؟

بالإضافة إلى أنه لا يخفى نفسه ، فإننى بعد ذلك فهمت أنه كان ينتظر أن أكتشف السر وبالتالى فقد فكر بالتأكيد أننى بطيئة الفهم ، وأننى فى حاجة لوقت طويل وبراهين كثيرة على ذلك مما جعله ربما يشعر بفقدان الصبر ، أخذ رأسي يفكر على طريقته ، ببعض الوضوح ثم الظل من جديد أو الظلمة حتى العمي في وضح النهار ، في اليوم الذى عرفت فيه السر ، عرف هو أيضًا أننى خمنت ما هو ، حتى صدر عنه تصرف خشن لا من أجل أن يؤمن أو يبرهن على أننى أعرف سره – اكتفى بأننى أطيل نظرى – بل كمن يحاول أن يعجل بالأحداث .

– اتركى الطهى وتعالىِ – ذهبت خلفه إلى صالة المعيشة – خذى ، اقرئى – اقرئى ، وأعطانى الصحيفة ثم قام بوضعها فوق المائدة .

– أنا نفسى تأكدت من ذلك .

– لقد نشروه فى الصفحة الأولى، هل أدركت ذلك؟ وسأل هو، فى محاولة منه لإخفاء تفاخره وكذا إقرار نوع من التواطؤ ، لم أدرك أبعاده فى حينه.

– لا تعلن الانتصار ففى أى يوم يمكن أن تظهر صورتك على الصفحة الأولى.

قهقه وهو يلوح بالصحيفة سعيداً لكنها سعادة غامضة ، ولهذا فإننى الآن – فى الوقت الذى يتم فيه تهوية حجرة النوم الصغيرة من الرائحة الكريهة التى تركها – متأكدة أن تلك الخشونة كانت صمام أمان لقلة صبره ورغبته فى أن أعرف ، تصنعت الجهل بكل شيء مع بنديتو ، وواصلت عليه ، حتى إنه ذات ليلة لم أستطع أكثر من هذا ، فبعد أن

انتظرت حتى يغلق باب حجرته حاولت أن أعرفه بهدوء دون أن يعلو صوتى أو أبكى .

– لكن ، ألم تنامى بعد؟

– لا ، عليك أن تعرف – الحديث ببطء يعيننى على التمعن – إننى أعرف الأمر .

– إنسى الأمر يا استيفانيا ، فهذا لا يخصك .

– نعم يخصنى ، يخص كلانا.

– أؤكد لك أنه ليس هناك أى خطر.

– هذا كذب يا بنديتو ، وفوق هذا أنا لا أسمح بأن تكذب ، اسمعنى جيداً، عندما خرج اليوم بدون إفطار ، ولأننى أيضاً فهمت أن ذلك سيكون أفضل ، فإنهم إذا ملأوا جسمك بالرصاص ، فليملأوا جسدك بالرصاص ومعدتك خالية – فتشت حجرة نومه ، فرأيت جراب السلاح ، والأماكن المختلفة المخصصة لكل قطعة، وخزائن الطلقات وزجاجات مواد التنظيف والفوط ، وشنط الورق تلك ، موضوعة فى الدولاب ومليئة عن آخرها بأوراق العملة.

– لم يقبضوا عليه هنا إطلاقاً، فهم لا يكادون يعرفونه ، أؤكد لك يا استيفانيا أن هناك الحد الأدنى من الخطر.

– هذا كذب يا بنديتو ، فأنا وأنت نتستر عليه ، سأقول ذلك إذا ما قبضوا عليه...

– لا.

– ... حياً.

– نحن الذين لا نملك شيئًا، لا، ليس لنا إلا أنفسنا.

– لا من أجل قضيتك، التى لم تكن أبدًا قضيتى ، ولا من أجل أى قضية أخرى أوافق على أن أنهض وأنا أرتعد لو رفض الإفطار ، أو ما إذا كان سيخرج أو سيبقى ، أو لا أدرى فيما إذا كنت سأبقى فى المنزل أم سأذهب للتسوق ، وغير قادرة على أن أخطو خطوة واحدة على السلالم، أو الحديث مع الجارات ، أو حتى قلقى عندما أراه عائدًا ، والأسوأ من هذا أن يعود ؛ لا أريد المعاناة ، افهم جيدًا.

– نعم – قالها ولم يستطع النوم تلك الليلة ولم يقدر على الاعتراض على كل كلمة أقولها ، استطعت تحقيق نتيجة ما ، إذ إن بنديتو قلل من وقت الدردشة بعد تناول الوجبات ، وكانت حجّته ، أثناء قيامى بتشطيب أعمالى فى المطبخ ، أنه بحاجة للنوم مبكرًا حتى يذهب إلى عمله فى الصباح ، كنا نذهب إلى حجرتنا ونتركه وهو لديه الرغبة فى مواصلة الكلام ، وليبحث عن أبله ليستمع لبطولاته ونظرياته وثرثرته عن حياته فى الزنزانة ، كنت أريد تصديق أن هذه الطريقة سوف تضيق الخناق عليه وتدفعه للرحيل ، وهذا وسط شعورى بالعجز والمرارة الشديدة ، لكن كان ذلك مجرد إحساس سريع الزوال .

كنت أتصور أية احتمالات وخيالات لا تخطر له هو على بال ، وأخذت أقضى الأمسيات فى المطبخ ، أو حجرة النوم، ولا أرد على أسئلته، وأتجنب حتى تحيته، كنت أهرب فى المقام الأول إلى الشارع فى الأيام التى يتناول فيها إفطاره ، ولا أكاد أغلق الباب خلفه مباشرة – وأنا شبه مجنونة لدرجة أننى فكرت أن أتابعه وهو يفعل ما يفعل – وأهرب خاصة إلى الشارع إما لأبقى بعض الوقت فى حديقة عامة ،

أو أمـام فـتـرينات المحـلات ، أو إلى كنيـسـة ، يكاد الخـوف يخنقنى ، مريضـة أينما حللت سواء فـى هذا الحى أو ذاك ، المدينة فى نظره كانت أرضـًا طيبة ، حتى أعود إلى المنزل وأجده جالسـًا أمـام إفطاره الذى قام بتسخينه بيديه ، عبثًـا قضيت ساعات طويلة أفكر فى أن أدس له سم الفئران فى الطعام ، وفى أمسيات تلك الأيام التى أهرب فيهـا لأشترى الصـحف يواتينى أمل مـجنون فى أن أرى صـورة جـثـتـه على أحـد الأرصفة ، بعد ذلك أشعر بالإرهاق وقد ألم بى الحزن وعدم القدرة على فهم كراهيتى له كأننى تعوّدت على هذا الشعور.

مـا الذى يمكن أن يؤثر عليـه ؟ هل صـمـتى وفـتـورى والطعـام الذى أقوم بتتبيله جيداً والملابس المتسخة وهذه الأنواع من الانتقام التى كان أغلبـها مـتخيلاً ؟ لا شىء ، فهو ليس فى حاجة إلى أمور الرفاهية ، لكن كيف لم أتصور ذلك مع مـا أنا عليه من عمر طويل ، ووجـهى الذى يحمل ويحـفظ شقـوة الحرمـان ، وجسـدى ذى العظم البارز ؟ لم يكن صـعـبًا تصـوره إذا مـا تمعنت قليـلاً فى أنه لم يكن يخـرج إلا للسطو والفرار .

حسن ، لم تكن هناك أدنى شبهة، ولا حتى الحد الأدنى من الحذر فى إغلاق ترباس الحمّام جيداً ، فتح كمـا لو كان ينزع بابًا ، وبالطبع أدركت مـا يريد فى ثانيـة ، ورغم أننى كنت مـهـزومـة فـإننى تفـاديتـه ، وهربت فى الردهـة ، أتصبب عرقًا ، أسـهل له الأمر أيضـًا قـاومت حتى أراد أن يسـتخـدم قـوته ، بعد ذلك بوقت طويل عدت إلى الحمـام ، حيث سمعته وهو خـارج من حجرة نومه ، دفع به غضبـه ألا يغلق الدش الذى واصل نزول المياه منه بنفس الدرجة التى كـان عليها عندمـا دخل ليعتدى علّى أنا أيضـًا .

بنديتو رجل بسيط ، مجرد عامل، وتمكنت ألا أقص عليه ما حدث وإلا لكان قد اجتمع عليه العلم بالشيء والجبن في التغاضي عنه ، دون القدرة على طرده من البيت ، وفوق هذا فاعتباراً من ذلك اليوم ، وبعد أن قمت "بتشطيب" أعمال المطبخ ، انسحبت في هدوء وتركته يكرر بلا كلل وبعناد جملاً كانت تبدو أمام بنديتو جديدة ، حاول الأمر مرات أخرى ، ولم يكف عن مطاردتي ليقوله لي بوضوح ، حتى إنه ذات مساء استطاع أن يقبض على معصمي ويمزق البلوزة ، ومرات أخرى كان يجبرني على أن أنصت لخطب منطقية وعاقلة وفيها أكثر العبارات خدشاً للحياء ، وعبارات فاسدة لم أسمعها قط في حياتي ، يأتي ويحاول أن يجعل مني عاهرة ، أو يضعفني في الحقيقة ، ومع ذلك لم ينفعه كثيراً ، ففي أعماقي لم أكن أنصت لنفسي ، والأمر أن ليس بيت القصيد القبول أو الرفض ، فكنت وحدي قوة كبيرة تقول لا دون أن تقول شيئًا ، كنت حائطًا من الحجر أمامه لكن حائطًا هشًا أمام يديه ، غثيان .

ذهب ، لكن هل ذهب ؟ أعرف أنه لا الهواء ولا الزمن بقادرين على تنظيف هذا البيت بالكامل ، سوف أنهض من نومي مفزوعة في أي ليلة، ولمجرد تصور أنه في الصباح التالي سوف أراه يرتدي معطفه بنفس الطريقة المعتادة عنده فإن جسدي سوف يتصبب عرقًا ، سوف أرتعد وأنا أدخل حجرة خالية، وأنا أهرب من المطاردة ، وأنه قد سد الطريق أمام جسدي المتعب بالتعاويذ المخيفة ، وربما – من المعقول الآن أن يكون هناك أمل أن – أجد صورة جسده وأنا أتصفح الجريدة .

***

JESUS LOPEZ PACHECO

خيسوس لوبث باتشيكو

ولد فى مدريد (يوليو ١٩٣٠) – حصل على ليسانس آداب – قسم اللغويات من بين مجموعاته القصصية "صراع من أجل التنفس" وتمرينات قصصية أخرى ، (١٩٨٠).

ومن بين أعماله "اتركوا هذا الصمت ينمو" (شعر) – مدريد دار نشر Adonais (١٩٥٣) – ومحطة الكهرباء (برشلونة)Destino (١٩٥٨) .

***

الأمى وكرة البلياردو

يُصاب بالدوار عندما يرى العديد من الألوان والنقاط والخطوط المتقاطعة.

– ماذا بك ! كيف لا تعرف ذلك؟

لم يفهم حتى السؤال الذى وجهه النقيب ، يشعر بتعاسة شديدة وهو يقف أمام الخريطة معطياً ظهره لباقى الفصل، وتغالبه الرغبة فى البكاء ، لكنه لا يعرف لماذا لا يبكى ، يشعر بالهمس الضعيف الذى يحدثه وجود زملائه خلفه، يستند بيده اليمنى على حافة أحد المقاعد

حيث يجلس الجنود ، يود لو يعرف ، يود الإجابة على سؤال النقيب، ويبدو له أنه سمع ذات مرة شيئًا - لا يعرف أين - له علاقة بذلك .

- لكن ارفع رأسك! ابرز هذا الصدر !

صوت النقيب قاطع تصاحبه رقة مزيفة ، يخشى سباستيان سماع الصوت ، مجرد سماعه ، مرة أخرى يجد أمام عينيه تلك العلامات الغريبة ، والخطوط والألوان ، يترك سباستيان عينيه على مساحة من اللون الأخضر الفاتح ، ويجعلهما تسيران فوق هذه المساحة ثم تتوقفان عند النقاط السوداء والخطوط والعلامات التى لا يفهمها ، ليست لديه أية فكرة ، ولا يولد فى عقله أى تفسير لما يرى ، كل ما هنالك هو أنه يرى مسطحًا ملونًا من الكرتون ، يهرش رأسه ، ويبلع ريقه ، أصبح الموقف لا يكاد يحتمل ، وسوف ينتهي ببكائه مثلما حدث فى اليوم السابق وسط ضحكات زملائه ، لا يفهم شيئًا ، كل ما هو متأكد منه هو أنه يفعل شيئًا بشكل سيئ ، وأنه يستحق العقاب وهو استهزاء النقيب به وضحكات باقي الجنود ، الشفقة، فى حقيقة الأمر، هى التى تجعله سعيداً وتعساً فى الوقت ذاته .

- لكن لنر يا سباستيان ! أين قضيت عمرك الذى يبلغ إحدى وعشرين سنة ؟ ينظر إليه سباستيان ، وقد زاغ بصره ، ربما من الخوف ، يتذكر طفولته وصيحات جدّه عندما يفعل شيئًا بطريقة سيئة ، وجهه أسمر ، بخدين : كأنهما نتوءان من أرض صلبة وجرداء ، يرى أمامه من جديد هذا الأنف الكبير المليء بالمسام المفتوحة السوداء ، وتلك اليد التى تتقدم ، يكسوها الجلد فقط ، مرة أخرى - حتى تصطدم بوجهه "لا تعد إلى المنزل حتى تعثر على العنزة..!" يبكى سباستيان .

– في قريتي .

– ماذا كنت تفعل؟ ماذا كنت تعمل في قريتك؟ لكن لا تبك!

يسمع الضحك خلف سباستيان .

– سكوت ! يصيح النقيب .

ينهض النقيب ويهبط من على المنصة ، تتبعه نظرات كافة الجنود حتى يصل إلى سباستيان ، يرى البحر من النافذة ، والهيكل المرتفع لإحدى الروافع بالميناء ، تمر إحدى السفن ، يضع النقيب يده على كتف الجندي وينظر إلى عينيه أولاً ؛ ينحني ليرقبه من زاوية أخرى ، وأخيراً ينظر إليه من جانب مختلف، من هذا الجانب ومن ذاك ، يفعل كل ذلك مع أداء مبالغ فيه ، وهو يتحسس الجندي كأنه جماد استثار انتباهه ، يضحك الفصل ، يبكي سباستيان .

– انظروا إليه ، كأنه آنسة، يبكي مرة أخرى – يقول النقيب وهو يرفع ذقن الجندي بيده ، عينا سباستيان كبيرتان وزرقاوان ، بحر من الطيبة يستكن تحت حاجبيه الكثيفين ، أخذت ضحكات الجنود تنحسر.

– تبلغ إحدى وعشرين سنة دون أن تفعل شيئًا؟ يا له من حظ!

ترتفع الضحكات من جديد ، يستمر سباستيان في البكاء ، يعلو شهيقه وزفيره مصاحبًا البكاء ، بينما يحاول السيطرة على نفسه حتى لا يكون بكاؤه مسموعًا بشكل يزيد على الحد ، الحقول الخضراء والهضاب المستديرة وصوت القطيع وهو يرتع : ترى العينان الزرقاوان لسبستيان المشهد العام لقريته ، يرى نفسه الآن جالسًا على حجر ، وعصاه بين يديه ، وصرته بجوار قدميه ، قضى أيامًا كاملة في هذا

السكون الذى لا تقطعه إلا الأجراس المعلقة فى رقبة أفراد القطيع والأسنان بصوتها الضعيف الأجوف ، أيام السحب البطيئة والبعيدة التى تجر ظلالها فوق حقول القمح وفوق الأشجار والهضاب ، تصل نظراته حتى الأفق ، وهناك تبقى وتسكن وتتسع حدقتا عينيه كلما قلت أشعة الشمس ، أما الآن فإن الجندى سباستيان يتطلع إلى خريطة ويبكى .

- صاح النقيب : سكوت !

قطع الجنود ضحكهم.

- لا أعرف .

- ولا الأكل ؟

ينفجر الضحك من جديد.

- سكوت ! هيا اصمتوا انظر يا سباستيان ، سوف يجعل الجيش منك رجلاً، سوف تتعلم القراءة، طبعاً لم تكن هناك مدرسة فى قريتك .

ينظر إليه سباستيان بتمعن دون أن يكف عن البكاء ، لا يفهم أيضًا ، فهو لا يدرك جيداً معنى أن يعرف المرء القراءة ، لكنه مقتنع أنه سوف يحدث له شيء فظيع ، شيء مكروه جداً، ربما كان مرضًا يجب أن يبرأ منه ، يجهل ماهية المرض ، يزداد شعوره بالتعاسة ، يشعر بأنه أكثر عزلة فى هذه القاعة الصغيرة ذات النافذتين اللتين يرى منهما البحر ، وهو بين زملائه الذين ضحكوا منه دومًا منذ أن وصلوا إلى المعسكر ، سواء من كيفية تنفيذ التعليمات أو طريقة كلامه ، أو أى تصرف آخر يصدر عنه ، يرى سباستيان نظرة النقيب بالقرب منه .

– فيقول سباستيان وهو يحاول الكف عن البكاء : لا .

– حسن ، حسن ، لنر يا سباستيان – يفرد النقيب جسده الصغير – انتبه جيداً لما أسألك: ماذا كنت تعمل فى قريتك ؟ هل كنت تعمل فى الحقل ، أو كنت ترعى الماشية، أو كنت تعمل فى ورشة أو .. ماذا كنت تفعل ، هل يمكن معرفة ذلك؟

مرة أخرى ضحكات الجنود ، الضحكات المنضبطة التى أمر بها النقيب، عند بعض الكلمات، وبعض النكات البذيئة، حتى يقطع هو نفسه هذه الضحكات بالكلمة التى تصل إلى ما يشبه الأمر العسكرى "سكوت" يسمع فقط فى هذه اللحظة نحيب سباستيان، وصوت الرافعة التى أخذت تدور وصوت دجاجات فى فناء المعسكر وصوت سيارة تعبر المكان أو صوت النقيب وهو يعود للسؤال ، إذ أخذ صوته يعلو حتى وصل إلى درجة الصياح عندما نطق اسمه :

– قُله لى يا سباستيان !

– كنت أعمل فى الحقل مع أبى وقبل ذلك كنت أعمل فى الرعى ، يشعل النقيب سيجارة ويعود إلى مكانه وراء المكتب ، هناك بعض الجنود الذين تعبوا من الحصة النظرية ، أخذوا ينظرون إليه وهم يحاولون أن يكتشفوا فيه أى إشارة تسمح لهم أيضاً بالتدخين ، أخرج النقيب نفساً من الدخان وقد استدارت فتحة فمه ، يصعد الدخان ببطء مكوناً أشكالاً غريبة ثم يزول فى تيار هواء يسحبه إلى النافذة ، تدخل الشمس من النافذة وتقع على الرؤوس الحليقة والزى الكاكى والمقاعد المتماثلة .

– لنر يا سباستيان – يقول النقيب – لنر فيما إذا كنت ستقوله لى مرة واحدة.

لا تبك مرة أخرى، هه ! اهدأ فأنت رجل ، لنر ، أين ولدت؟

– فى قرية باروسا .

– لا تبك .

– ذلك : أين تقع ؟ أهى فى دائرة مدينة باداخوث أو بالقرب من هناك أليس كذلك ؟

ينظر النقيب وهو ينتظر كلماته، ويريد أن ينتزعها من خلال قسماته وموقفه .

– قال أحد الجنود : إنها أرض الفلين .

تنطلق الضحكات العالية، يأمر النقيب بالصمت مرتين وفى النهاية تتم الاستجابة لأوامره ، يُرى هذه المرة غاضبًا بحق ، ويمكن أن يتعرض أحد الجنود لقص شعره القصير كإجراء عقابى أو يمضى عدة أيام فى سجن الوحدة ، ينام على الأرض دون مرتبة، حيث البراغيث ، والرائحة الكريهة الآتية من المرحاض المسدود .

– من كان القائل ؟ صوته عنيف .

لم يجب أحد ، ينظر سباستيان لزملائه صامتًا مذعورًا ومشفقًا عليهم .

– أقولها – لآ – خر – مرة ، من هو؟

بقى النقيب بلا حراك جالسًا خلف المكتب .

– أيها المساعد – يقول: يتقدم نحوه المساعد الذى ظل واقفًا حتى الآن بجوار الترابيزة إلى الصفين الأماميين.

– أنا القائل يا سيدى النقيب ! – قالها جندى صغير الحجم وهو ينهض.

قال آمراً: أن يقص شعره فوراً أيها المساعد.

فى الوقت الذى يرسل فيه المساعد الجندى نفسه للبحث عن الحلاق ، يستمر النقيب فى الحصة النظرية .

– يا سباستيان، يا سباستيان، يا بنى قل لى ما هو اسم موطنك، قلها!

أخذ سباستيان يغمض عينيه ويفتحهما عدة مرات وأخذ يزداد ذعراً بارتفاع صوت النقيب.

– لا أعرف.

– لكن تباً ! يعتدل قليلاً ويترك يديه تسقطان على المكتب ، وتمتدان بطريقة كوميدية تدل على الإحباط ، – أمضينا أكثر من نصف ساعة حتى تقول لنا ما اسم موطنك يا سباستيان!

"وطنى ، وطنى، وطنى .." ذات مرة – كان سباستيان طفلاً ، وكفّاه مليئتان بالعُقد ، نظراته زائغة غير معتادة على وجود الرجال ، وذلك لأنه عمل راعياً لعدة أعوام ، ينام فى الحقل كثيراً، ويقضى الأيام والأسابيع دون أن يتحدث مع أحد – ذات مرة عندما كان جالساً على حجر يحرس القطيع ، رأى رجالاً كثيرين يمرون ، يلبسون الزى الكاكى ، ويحملون بنادقهم على أكتافهم ، ويمشون جميعًا بخطوة موحدة ، يرددون جميعًا أغنية ، وعندما يغنونها تتردد كلمة "وطن" تذكر هذا عندما صاح

النقيب ، فعادت إلي دماغه تلك الموسيقى التى أخذ يترنم بها لوقت طويل بينما يرعى القطيع .

يظهر الحلاق على الباب ومعه ضحيته .

– هل يسمح لى سيدى النقيب ؟

– ادخل ، واجعل هذا الرأس أملس كأنه كرة بلياردو.

يجلس الجندى الصغير الحجم على أحد المقاعد وظهره لزملائه ، يرى سباستيان أمامه خريطة أوروبا ، أما الحلاق ، فهو جندى أيضاً، يقوم بلف خرقة حول رقبته وهى خرقة بيضاء متسخة الحواف العليا.

– لن تحلقها لى بالموس ، أليس كذلك؟ يغمغم دون أن يحرك رأسه.

– سأفعل ما يأمر به النقيب – يقول له الحلاق – فأنت تعرف الأوامر.

– وطنك إسبانيا ، إسبانيا ، إسبانيا ! يصيح النقيب ، عليك أن تحدد مكانه على هذه الخريطة ، هيا!

سباستيان لا يبكي ، إنه مذعور "سوف يقصون لى شعرى أيضاً" أخذ يفكر ، ينظر إلى الخريطة.

– حدد بإصبعك – يسمع صوت النقيب .

يضع سباستيان يده فوق جزيرة صقلية ، يضحك الجنود عندما يرون رد فعل النقيب .

– إلى أسفل، إلى أسفل ! يسمع.

ترتفع الضـــحكات وتغطّى على صـــوت المقص ، يحـــاول الجندى الصـــغـيـــر الحـجم أن يشـــهـد المنظر وهـو مطاطئ الرأس ، لا يـحـرك سباستيان إصبعه ، يرتعش إصبعه.

– إلى اليسار! يأتيه الصوت من الخلف .

ضحكات جديدة ، تزداد قوة، لكنه لا يرى إلا الألوان والعلامات والخطوط والنقاط ، سوف يبكى سباستيان ، يحرك إصبعه قليلاً ويضعه فوق جزيرة كورسيكا .

– إلى أعلى ، إلى أعلى – يسمع – لنر فيما إذا كنت تقدر على تحديد مكان قريتك على هذه الخريطة ، سكوت !

مزيد من الضحك .

يعرف الجنود الآن أن الأمر بالسكوت يعنى العكس تماماً ، يضحك النقيب أيضاً ، يغمض عينيه الضيقتين ، ويرفع كتفيه ويزم شفتيه ويفر منه صوت وضحكة متقطعة حتى لا ينفجر ضاحكاً .

يبكى سباستيان، يبذل جهداً ويعود إلى ما كان عليه ، لقد اتخذ قراراً ، أما الجندى الصغير الحجم فقد أخذ يلاحظ أن طول شـــعره يقل شيئًا فشيئًا ، يسمع الصوت الدؤوب للمقص ، يريد سباستيان أن يتكلم ، ينظر نحو النقيب ، إنه لا يتذكر أبداً أنه كان تعساً فى حياته مثلما هو الآن .

– يقول فى النهاية : لا أعرف .

كان قراره البكاء ، وأن يترك العنان لدموعه، يبكي بحرقة وبصوت عال وتنهدات شبه طفولية ، أما باقي الجنود والنقيب والمساعد فيضحكون بشدة، حتى أمر النقيب الذى دمعت عيناه من شدة الضحك: سكوت يطيعه الجميع ، يسمع صوت المقص من جديد.

– لكن يا سباستيان، تبًا – ما زالت هناك قهقهة قصيرة، جعلته يتوقف – مع أنه أمر جميل أن يعرف المرء أين وطنه ! اهدأ، هيا.

يقف أمام الجميع وهو يبكي ، يبذل الجندى الضئيل الحجم جهده فيرى رأس سباستيان بجبهته الضيقة وحاجبيه الكثيفين ، وقد حجبت إسبانيا من خريطة أوروبا ، بينما أخذ يلاحظ البرودة على رأسه ، برودة ماكينة الحلاقة التى جعلت رأسه كأنه كرة بلياردو .

***

DANIEL SUEIRO

دانييل سوييرو

ولد فى لاكورونيا (ديسمبر ١٩٣١) – حصل على ليسانس حقوق – عمل بالصحافة.

من بين مجموعاته القصصية (الاستقصاء ومصائب أخرى) (١٩٥٨) (المتآمرون) (١٩٦٤) طوال الأسبوع (١٩٦٥) .

وله أعمال قصصية منها روايته "هؤلاء هم إخوتك" (١٩٦٥) الليلة الأكثر سخونة (١٩٦٥) .

***

يوم أن ارتفع المد وارتفع

يرتفع مد البحر رويداً رويداً، وبشكل غير ملحوظ ، مثله مثل كل يوم ، لكن موعد الارتفاع يتأخر قليلاً يومًا بعد يوم ، يتأخر بالتحديد خمساً وأربعين دقيقة ، تصل الموجات رقيقة إلى الشاطئ فتبتل المزيد من سنتيمترات الرمل ، ثم تنحسر تاركة وراءها سلسلة إيقاعها القديم الذى لا يتغير.

هناك العديد من الأجساد شبه العارية ، والتى لفحتها أشعة الشمس بشكل قوى أو متوسط، ترقد مسترخية بلا حراك ، يشبه بعضها بعضًا ، على البساط الأصفر الضخم، تلفّها الألوان القوية والضباب ، هناك نسمة حقيقية لا تكاد تحرك العلم الأصفر ، الذى رفعه المصطافون بالقرب من حاجز الأمواج ، هم أيضًا المكلفون بقارب النجدة ، من حين لآخر تأتى موجة عالية بعض الشىء ، فتبتل منها السيقان والفُوَط التى وضعها من يعرضون أجسادهم لأشعة الشمس بالقرب من المياه ، فيقفزون وهم يضحكون أو يصيحون استغراباً أو ينسحبون ببطء وهم مغتاظون وقد جروا معهم الكراسى المنطبقة ، وأوراق الصحف التى تجعدت وابتلت .

يرتفع المد ، وعند بعض النقاط على الشاطئ، تتحول الموجات إلى اللون الأبيض ، برغوتها ، وتمتد كأنها عرف بشكل أفقى على الشاطئ ، ويتراجع الناس رويداً رويداً نحو الرمال الساخنة وبعض كتل الأحجار الوعرة القريبة من الطريق المطل على البحر ، يوشك الصيف على الانتهاء ، وبالتالى يتناقص عدد المصطافين، لكن لما ارتفع المد ووصلت موجات البحر إلى مساحات لم تبلغها قبل ذلك، فإن المصطافين قد تجمعوا فيما بقى من الشريط الضيق للرمال، وتحولوا إلى كتلة كثيفة من العرق ، لا يكاد يتغير لون المكان بسبب ضيق المسافات بينهم ، والناتجة عن اتجاه بعض المصطافين إلى المياه ، والسباحة وصراع الموجات وهم يتضاحكون أو يشعرون بالخوف .

كلما ارتفع المد زادت قوة الموجات، وأصبح صوتها واضحاً ، ورغم أنه كان مستلقياً على الرمال ومغمض العينين فإنه يسمع صوتها وهى قادمة من بعيد ، ترتفع همهماتها على امتداد البلاج الطويل كله ، تأتى

وئيدة ثم تتعاظم وتتفرطح، فى النهاية، مصطدمة أخيراً بالشاطئ محدثة ذلك الصوت العميق الوئيد والمستمر الذى يبدو أن لا نهاية له ، يسمع انحسار موجة متحولة إلى رغوة هامسة وطازجة على الرمال، ثم يسمع من جديد صوت موجة أخرى قادمة من بعيد ، ثم تقترب وتكون أكبر من سابقتها وصوتها أقوى عندما تتكسر.

يكاد يصمت صوت البحر من حين لآخر، ويبدو أن مستوى ارتفاع المد قد توقف لكن سرعان ما تأتى موجة أعلى من كل سابقاتها، وتكاد تغرق كل هؤلاء المستلقين بالقرب من المياه.

عندئذ تراجع الجميع بعض الشيء وازداد تجمعهم فى منطقة أكثر ضيقًا.

– علق أحد الرجال متسليًا وهو يرفع عينيه عن الصحيفة قائلاً : إنه مد قوى هذا الذى نراه فى نهاية الصيف.

كانت السماء صافية ، رائعة فى ذلك اليوم ، وبالقرب من قرص الشمس ظهر القمر أبيض وغير ناصع.

نظر الرجل الذى يقرأ الصحيفة إلى ساعته .

– قال : إنها الثانية عشرة والنصف، إنها ساعة ذروة المد ولن يرتفع أكثر فى هذا اليوم .

فى هذه الساعة بالتحديد تجمع الناس على الطرف الآخر للبلاج، وسمع كلام بشأن غريق أو أن أحداً من المصطافين كان على وشك الغرق ، ظل الجميع وقوفًا لفترة طويلة وهم يتأملون البحر وبذلك حجبوا

ما يحدث فى البحر عن أعين الذين كانوا فى المؤخرة ، ولما كان الموج مستمراً فإنهم وضعوا العلم الأصفر.

إذا ما كانت زرقة المياه قد تحولت إلى اللون الأخضر، فإن لونها أخذ يتعكر شيئًا فشيئًا ، إذ كان بلون الأرض، على امتداد مسافة كبيرة بالقرب من الشاطئ ، ثم يأخذ اللون الأصفر بعد ذلك ، ثم يكتسى باللون الداكن بعيداً عن الشاطئ ، ويتلاطم الموج .

كان هناك عدد قليل ممن بقوا فى الماء أو الذين كانوا يقذفون بأنفسهم إليه متوجهين برؤوسهم محاولين برشاقة إحداث فجوة فى تتابع الموجات ، أما أغلب الناس فقد فضلوا الانتظار بتعريض أجسادهم للشمس حتى يهدأ البحر وهذا يبدأ مع الجزر.

- لابد أن الصحف أخطأت اليوم بشأن موعد المد - قال الرجل عندما رأى أن الموجة الأخيرة التى كان ارتفاعها متراً واثنين أعلى من سابقتها، وهى تتقدم بشكل مفاجئ .

كان مداً قوياً لا يذكر له مثيل ، علق الكثير من الناس على هذا، وأخذوا يتراجعون قليلاً إلى الخلف ويجرون كافة أمتعتهم، فيقتربون أكثر من بعضهم ليتركوا مكاناً للماء.

تأتى الموجات الضخمة من بعيد، وهى تنزلق صامتة فتتفتح بطونها المظلمة وتمتلئ بالمزيد من المياه العكرة ، ترتفع الموجات وترتفع إلى عنان السماء كلما ازداد اقترابها، تحمل الرياح نتفًا متلألئة من قممها ، كل ذلك بعرض المحيط ، وعندما تتكسر بضربة واحدة ، وتخمد على آخر شريط رملى ، يسمع فى وقت واحد صوت قرع طبول قوية ، كأنه قادم من تحت الأرض ، ويمتد صداه القوى المكتوم بطول الشاطئ وعرضه.

ابتل المصطافون وابتلت فوطهم وبعض الملابس الأخرى وازداد ابتعادهم لدرجة أن بعضهم لجأ للجلوس على كتل الأحجار المائلة الخاصة بحاجز الأمواج ، خرجت الأغلبية الساحقة من الماء عندما رفعت الراية الحمراء على الصارى وأخذت ترفرف على رؤوس الجمهور المتزاحم ، أخذت تسمع من هنا وهناك صيحات تحذيرية ، النداء على الأطفال الذين تعبوا من الصراع على كسب جزء من الشاطئ عندما يرون أن الموجات تحاول أن تنتزعه منهم فى نوبات تراجعهم للخلف .

كان الأمر غير متوقع وغريب ، لكنه مُسلٍّ بعض الشيء ومقلق ، المصطافون الذين استقلوا بظهورهم على الرمال ، أو الذين جلسوا باسترخاء ، يحاولون الإفادة من الشمس فى الأيام الأخيرة للإجازات ويتأملون ، بمتعة غامضة ، العدوانية المفاجئة للمحيط، ويعلقون فيما بينهم ويحسبون آخر موجة يمكن أن تختتم هذا المد .

– علق أحدهم : لقد أخذ البحر بغضب – وأضحى خطيراً على من ينزلون إليه.

– قال آخر بهدوء : سرعان ما يبدأ الجزر – فلا يمكن أن يكون المد أكثر من هذا.

لكن المد كان آخذاً فى الارتفاع ثانية بعد الظهر، فى صورة موجات ضخمة منتظمة ومتعاظمة الحجم، وأخذ البحر يغزو المزيد والمزيد من الأرض بإغراقها ، وأخذ جلد المحيط العجوز يتحول من بعيد إلى تجعدات وأخاديد ، ويتحول إلى مجموعة من السنم الضخمة، حتى أنه – على مسافة متوسطة – تتحد الموجات بطول الشاطئ وترى عندئذ وهى

تقترب ببطء ، وصامتة فى البداية ، ترفع قمتها الرغوية والصابونية ثم تكبر وتكبر حتى تحول دون رؤية الأفق ، عندئذ يلف صوتها المزمجر وغضبها الجامح الشاطئ كله وهى تضرب الرمال بعنف .

كان المنظر عظيمًا حقًا ومثيرًا للإعجاب رغم خيبة آمال الكثيرين فى الاستمتاع ربما بآخر حمام على الشاطئ فى هذا الموسم ، إلا إذا ، وبشكل ارتجالى ضربت إحدى هذه الموجات الضخمة حاجز الأمواج بعد أن مرت فوق القلة القليلة ، التى بقيت على الشريط الرملى الضيق ، وعندما فاجأتهم الموجة وغطتهم مع حاجياتهم من الفوط والكريم الذى يكسو الجسم باللون البرونزى ، وأصبحوا غير قادرين على التنفس بشكل طبيعى ، حاولوا الطفو فوق الرغوات والطحالب ممسكين ببعضها لكن دون أن يتركوا ما بأيديهم حتى ولو كان تافهًا ، تظهر رؤوس وتختفى فى المياه أخرى، وتتحرك السيقان فى الهواء بين الشماسى والكراسى المنطبقة ، تحطم الصارى بسبب الضربات المفاجئة للبحر ، وابتلع الموجة الأخيرة بحاجز الأمواج وأخذت إلى البحر، فى انحسارها ، كومات من الملابس والمراتب الإسفنجية .

كان المصطافون ، سيئو الحظ، يستغلون الهدوء النسبى للموجات العنيفة ليلجأوا إلى الصخور القريبة ، أو يصعدوا إلى حاجز الأمواج ، وحاول بعضهم التأقلم هناك على الوضع الجديد وهم يتأملون، فأغرى الأفواه ، عنف البحر.

وسرعان ما غطت الأمواج الصخور الواقية، وأخذت تتعلق بسوء نية السور الخرسانى .

كان الوقت يمضى ولم يصل المد بعد إلى ذروته ليبدأ بعد ذلك الجزر ، حدث عكس كل هذا إذ كانت الموجات ترتفع وترتفع بدرجة غير معهودة .

نظر الناس إلى بعضهم البعض وأخذوا ينسحبون إما إلى منازلهم أو إلى الفيلات الصيفية أو إلى مطاعم بعض الفنادق ، يُلمح القلق فى نظرات هؤلاء الذين سارعوا بأخذ أطفالهم من أيديهم وجلسوا على موائد الطعام ترافقهم حاجياتهم ثم أخذوا يتناولون طعامهم .

جاءت موجة مختلفة عن كل سابقاتها وضربت ضربتها ، عندئذ التصق بعض من بقى من المصطافين بحاجز الأمواج ، أو ألقت بهم الموجة إلى السيارات أو إلى منتصف الطريق الأسفلتى ، لم تقاوم المقاعد المثبتة بالأسمنت الضربات القوية كثيراً ، ولا حتى النخيل العجوز ، الأمر ليس إعصاراً أو عاصفة فلم يسمع للرياح صوت ، وظلت السماء زرقاء ، والقمر رابط الجأش بلونه القصديرى وهو يمر بالقرب من قرص الشمس دون أن يحترق فيه أو يلمسه .

استمر ذلك المدّ الشهير لساعات طويلة، فتجاوز الشوارع الأولى وأغرق أبواب المنازل وأغرق الحراس ووصل إلى الشرفات ، وغطى المنازل المكونة من طابقين وحوّل ملاعب الجولف إلى برك ، وأغرق غابات الصنوبر ، ظلت الموجات المحمّرة التى بلغ طولها أكثر من عشرين متراً تقذف إلى الأرض ، طوال فترة المساء ، حبالاً من الرغوة القاتمة ، ومقابر من البلاستيك ، وكتلاً غير محددة الشكل من البترول وأسماكًا ميتة ضخمة العيون وألغامًا لم تنفجر وأجساداً خضراء اللون ومتآكلة لبشر أقدموا على الانتحار ، وأعضاء مكتوفة وأعشابًا خضراء .

لم يتـوقف المد حـتى حل الظلام، وعندمـا بدا أن البـحـر نظيف هدأت المياه دون أن تروح ضـحـيتـهـا ، هذه المرة ، أية حيـاة آدمـيـة . وأخذت تنحسر ببطء وهى صامتة.

وفى صباح اليوم التالى كان الجزر واضحًا وأخذ الناس يتأملون والغُصّة فى حلوقهم ، ما أحدثه من دمار.

***

RICARDO DOMENECH

ريكاردو دومنتش

ولد فى مرسية عام ١٩٣٨ ، درس الصحافة وفن الدراما ، ناقد أدبى وأحد أساتذة الجامعة ، له الكثير من المقالات والدراسات المنشورة فى العديد من المجالات المتخصصة ، له مجموعة قصصية عنوانها التمرد الإنسانى (١٩٦٨) كما أن قصصه القصيرة منشورة فى الكثير من المختارات القصصية ، وترجمت إلى عدة لغات .

***

ما بعد الحرب

يغادر الطالب ذو الشعر الأحمر صومعته، إنه ممشى طويل ، أبواب تفتح وتغلق ، أصوات ، وجلبة ، هرج المراهقين ، لون الحوائط الأبيض يساعد على مزيد من الضوء القادم من طرفى الدهليز ، كف الطلبة عن الحركة ، وكل واحد أمام صومعته ، بعضهم يرتدى بدلة زرقاء اللون ، والبعض الآخر يرتدى بلوفر ، تبدو الوجوه شاردة ، أما القليل منهم – البعض هنا والبعض هناك – فيتهامسون وهم يميلون برؤوسهم قليلاً ، يتأمل الطالب ذو الشعر الأحمر طالبًا آخر قمحى اللون ، عيناه سودوان كالفحم ، وكان متقدمًا بعض خطوات عن باقى الصف الذى هو فيه ، ويتمتم بشىء للطالب الواقف إلى جانبه ، يبدو أن هذا الأخير يعيره قليلاً

من الاهتمام ، ثم بعد ذلك يحملق فى الطالب الذى يقف أمامه ، وهو طالب أنفه مقوس ، دعك عينيه وأخذ ينظر إلى قدميه بشكل غير مفهوم ، أما الطالب الذى يقف مباشرة فى مواجهة الطالب ذى الشعر الأحمر فلا يلبس البدلة الزرقاء ، بدلة الزى ، ولا حتى البلوفر ، بل يرتدى جاكتة بها الكثير من الألوان وبنطلونًا واسعًا ، فى تناقض مع أغلب زملائه الذين يرتدون بنطلونات طويلة ، بدا أن الطالب ذا الشعر الأحمر على وشك أن يقول له شيئًا ، لكنه سرعان ما يمسك نفسه ويتجه بنظره نحو الجانب الآخر من الدهليز ، حيث يأتى أحد الآباء وهو يرتدى جلبابًا من الستان أسود اللون ، كث الحاجبين بارز الخدين ، أخذ يردد بين الحين والآخر كلمة : هيا ، هيا ، دون أن ينظر حتى إلى أى من الطلاب ، يربت على أكتاف بعض الطلاب، أو يرفع ذراعه معطيًا إشارات للطلاب الذين هم بعيدون عنه ، بدأ كلا الصفين سيرهما البطىء ، يسمع صوت الخطوات الرتيب والمستمر ، تردد بعض بلاطات الأرضية الصوت – تاك – تاك ، بشكل بديهى يقول إنها غير جيدة التثبيت ، يستمر القسيس ذو الحاجبين الكثين والخدين البارزين فى سيره ، يسير فى اتجاه مخالف لاتجاه سير الطابورين ، يسير الطالب ذو الشعر الأحمر ويديه فى جيوبه ، وبشكل مرتجل ، يتوقف فجأة الطالب الذى يرتدى البنطلون الواسع ، لدرجة أن الطالب ذا الشعر الأحمر كاد يصطدم به ، وبشكل غريزى يحاول أن ينسحب إلى أى مكان ، ويضع يده اليسرى على الحائط ، وضعها فوق جزء مكشوط ، وهو الآن ينظف نفسه، يضرب كلتا يديه ببعضهما فى حركة سريعة ، يظهر الدهليز الجديد ويبدو كأنه خط مستقيم لا نهاية له ، مثله فى ذلك مثل الدهليز السابق وله بابان ، باب فى كل جانب ، لكن درجة الضوء أقوى ، هذا الضوء يأتى من

الطرقة التالية التى تطل فى جانب منها على فناء رواق الإدارة وبالتحديد فإن ضوء الشمس يسطع على هذا الجانب من الدير ، وعلى الأرضية المصنوعة من البلاط الحجرى وبالتالى فهى ليست مستوية ، وتتكون هناك مجموعة من المستطيلات من الضوء يفصل بينها ظل الأعمدة ، هذه الأعمدة لها بدن رفيع وتيجان على أشكال نباتية ، أما البلاطات الحجرية الكبيرة فهى متآكلة ولذلك فإن الطالب ذا الشعر الأحمر يتوخى الحذر فى كل خطوة ، ومن الطابور الذى هو فيه يمكن أن يرى - وبالتأكيد يرى هو أيضًا فقد لفت وجهه - جزءا من الفناء : الأعمدة فيه أكثر حجماً وليست متراصة على شرفة حجرية مثل الطابق العلوى بل قائمة على قواعد ، أما التيجان فهى أكثر تعقيداً عن سابقتها إذ تتكون من تماثيل ورموز دينية ، ترى فى الفناء أيضًا الأشجار والنباتات والحشائش ، تسمع زقزقة العصافير التى تطغى على الصوت الرتيب والمكتوم الصادر عن خطوات الطلاب ، أخذ الطالب الذى يرتدى البنطلون الواسع فى السير قفزًا فوق الفواصل بين البلاط، دون أن يتمكن من ذلك ، الآن يسرع الأب ذو الحاجبين الكثين والخدين البارزين بين كلا الطابورين ، وعندما يصل إلى أقصى الدهليز ينظر خلفه، ويبقى ثابتًا بلا حراك ، وينظر فى كل اتجاه ، توقف الطالب الذى يرتدى البنطلون الواسع عن القفز ، وفى مكان متقدم فى الطابور الذى يوجد فيه الطالب ذو الشعر الأحمر حدث توقف مؤقت للمسيرة ، بحيث يحاول باقى الطلاب الآن السير بإيقاع أسرع محاولين استعادة الخطوة المنتظمة لهذا الطابور ، وسرعان ما عادوا إلى الإيقاع العادى ، الطلاب الذين هم فى محاذاة الطالب ذى الشعر الأحمر يغادرون الآن دهليز

الرواق ، وبعد عبور ممر صغير ينزلون على سلالم فيعلو صوت الخطوات ويصبح غير منتظم ، ترن كُحّة ، ليس السلم الرئيسى ، بل سلم من سلالم جانبية كثيرة توجد فى الدير ، إنه سلم حلزونى ، درجاته من الطوب ودرابزينه من حديد بزينة فى أعلاه إطار خشبى ، وطراز السلم يجعل الطابور يسير ببطء ، يهبط الأب ذو الحاجبين الكثين والوجنتين البارزتين من وسط السلم ، وقد رفع جلبابه الكتانى بعض الشىء - بينما يحمل مسبحة فى يد وكتاب القدّاس فى اليد الأخرى - ويسير ببطء أكثر من الطلاب ، وهو شديد الحذر فى كل خطوة ، كان الطالب الذى يرتدى البنطلون الواسع يهبط وهو يسند يده على درابزين السلم ، فجأة رفع يده وأخذ ينظر إليها ووجهه يعبر عن شعور بالتقزز وقال : قذارة ، بينما أخرج بيده اليسرى منديل الجيب ونظف يده اليمنى دون أن يكف عن التمتمة بكلمة قذارة ، بعد ذلك استمر فى هبوط السلم لكن دون أن يضع يده اليمنى على الدرابزين ، يدخلون نحو رواق الإدارة من جديد ، هم الآن فى الدور الأرضى ، ومرة أخرى يبقى الأب ذو الحاجبين الكثين والوجنتين البارزتين بلا حراك ، وأخذ يتأمل التقدم البطىء للطابورين ، الجميع صامتون يجرّون أرجلهم ، بعد ذلك يواصل السير بخطى واسعة ، ومن هذا الطابق تفوح بقوة رائحة الخضرة فى الحديقة ، وتبدو أبدان الأعمدة أكثر طولاً وسمكًا ، أما الأرضية فهى مثل الدور الأول عبارة عن بلاطات كبيرة من الحجر ، أما عدد الأبواب فأقل لكنها أكبر حجمًا ، يسير الطالب ذو البنطلون الواسع دون أن يأتى بتصرف يثير الانتباه ، أما من يفعل غير ذلك الآن ، فهو الطالب ذو الشعر الأحمر، إذ يقوم بالقفز فوق الفواصل بين البلاط لكنه سرعان ما يترك هذه التسلية ويسير بلا مبالاة .

وللوصول إلى المصلي حيث يتوجه الطلاب ، فإن المسار الطبيعي سيكون مغادرة هذه الطرقة والدخول في دهليز قصير ومظلم ، حيث يوجد المصلي في نهايته (وليس كنيسة الدير التي تخصص للقداس الكبير يوم الأحد وبعض المناسبات الأخرى) ، لم تكن ضرورية تلك اللفة شبه الكاملة حول الرواق الخاص بالإدارة ، ومع ذلك فهذا هو ما فعلوه ، عندما نزلوا كانت أشعة الشمس تدخل الطرقة التي كانوا يسيرون فيها ، وهي الآن تدخل الطرقة المواجهة لهم ، علق على ذلك الطالب ذو الشعر الأحمر مع الطالب ذي البنطلون الواسع ، بينما ذلك الأخير يسير وهو ينظر باستغراب ، يقول أحدهم : إلى أين نحن ذاهبون ؟ سمعت ضحكة هناك ، صمتت تعبيرات وجه القسيس ذي الحاجبين الكثين والوجنتين البارزتين ، ماذا يحدث هنا؟ يسأل بنبرة عالية جداً وغاضبة ، ينظر الطالب ذو البنطلون الواسع إلى الطالب ذي الشعر الأحمر ، وفي صمت يكرر بنظرته نفس السؤال ، يعود الطالب ذو الشعر الأحمر نحو الطالب ذي البنطلون الواسع ، الذي يسير خلفه ، ويكرر ماذا يحدث، بينما أخذ الكثير من الطلاب من كلا الطابورين ينظرون إلى بعضهم البعض باستغراب أو قلق ويسألون ماذا يحدث؟ وتزداد الهمهمات ، تسمع من جديد ضحكة هناك ، لم يتوقفوا عن السير ، أما الأب ذو الحاجبين الكثين ، فيعدو جيئة وذهاباً متسائلاً ماذا يحدث هنا ، ويكرر السؤال هل يمكن معرفة ماذا يحدث هنا ، احمر وجهه غيظاً وتعكر مزاجه ، يلقي بنظرات مهددة فاحصة ، ينظر الطلاب إلى بعضهم البعض بمزيد من الاستغراب ، تزداد الهمهمات، أما الأب فيقف في وسط الطرقة ويقول سكوت سكوت وهدوء من كل الناس، لا يتحرك أحد ! يتوقف الطابوران ، وبصوت أكثر ثقة، وبوجه أقل تعبيراً عن الغيظ يأمر:

حسن، انتظروا الآن، لا يتحرك أحد، ثم يتقدم بخطى واسعة فى الظل الكثيف للطرقة، ينظر إليه الطلاب فى صمت ، وعندما يرى هكذا، يخرج المرء بانطباع خاطئ بأن هذا الاتجاه الذى يسير فيه يمكن أن يؤدى به إما إلى بداية الطوابير أو إلى نهايتها ، وأيًا كان الأمر فإن الطلاب ظلوا بلا حراك ينتظرون وهم يتهامسون فيما بينهم ، سيطرت العصبية على الوجوه والنظرات ، حتى إن السؤال المكرر، يشبه كرة السلة : ماذا يحدث ، ماذا يحدث ، ماذا يحدث ... لا أعرف ، يقول الطالب ذو الشعر الأحمر للطالب ذى البنطلون الواسع ، همهمة وضحكات وجلبة ... اسكتوا ، تبًا ، قالها أحد الطلاب الذين يرتدون الزى ، لكن لم تفلح كلمته ، وفجأة يخيم الصمت من جديد، فى نهاية الطرقة بأكملها دون أن ينظر لأحد ودون أن ينبس بشىء ، وأخيراً يتوقف فى الطرف الآخر ، يصفق وعندما سمع الطلاب ذلك استأنفوا مسيرتهم فى الحال ، لابد أن أحداً يعرف ما حدث ، قالها الطالب ذو البنطلون الواسع ، يتحرك الطابوران بانتظام ، ويبدو أن التوتر قد زال بالكامل ، هناك فقط بعض الهمهمات التى يطغى عليها صوت الخطوات ... وبشكل ارتجالى ، ينظر ذو البنطلون الواسع إلى ذى الشعر الأحمر ، ينظر ويقول بفزع : إن الطوابير لم تتجه إلى المصلى، بل عادت إلى السلم الحلزونى ، وهى تصعد الآن ببطء وانتظام ، لا أفهم شيئًا ، يقول ذو الشعر الأحمر ، أما ذو البنطلون الواسع فيقول : ولا أنا، يا له من مشكل ، يصعد دون أن يسند يده على الدرابزين .

قبل أن يظهر الأب ذو الحاجبين الكثين والوجنتين البارزتين نازلاً من أعلى السلم بين الطابورين ، كان صوته قد سبق وسمعه الطلاب :

ألا يتحرك أحد ، ألا يتحرك أحد ، وألح على هذا الأمر ، وأخذ يتقدم نحو الرواق وهو ممتقع الوجه بينما أخذ الطلبة يتوقفون ، تزداد أمامى الصعوبات لفهم ما يحدث ، يقول ذو الشعر الأحمر ، أما الطالب ذو الأنف المقوس والعينين المحمرتين فيقول : هنا يحدث أمر ما ، ثم يضيف : يحدث شيء غريب جداً ، ينظرون إلى بعضهم البعض ، علامات جديدة تدل على الاستغراب ، همهمات جديدة ، تعليقات جديدة لكنها لا تتوقف .. يسود هرج ، وفجأة تسير الطوابير، وعلى السلم حيث يصعد ذو الشعر الأحمر وصاحب الأنف المقوس وصاحب البنطلون الواسع ... الخ .

لم يتم تلقى أية أوامر بهذا الصدد ، فلم يمر أحد الآباء هناك، لكن الاحتمال كبير فى أن يكون الأمر قد أصدره وهو ما زال بعيداً عن السلم ، وبالطبع فإن الطلاب الذين كانوا على الدرجات الأخيرة للسلم ، عندما استأنفوا السير - أخذوا يتحركون بشكل فيه تقليد لزملائهم فى المواقع الأمامية للطوابير وبحيث لا يرون من المكان الذى وصل إليه ذو الشعر الأحمر وذو البنطلون الطويل وذو الأنف المقوس .

ونتيجة لهذا - أى لتقليد كل طالب لسابقه فى الطابور - فإن الطوابير صعدت فى اتجاه طرقة الدور العلوى ، حيث أخذ ذو الشعر الأحمر يلمح ضوء المكان ، ومع ذلك فالطوابير لم تواصل سيرها نحو طرقة رواق الإدارة كما بدا ذلك بل اتجهت نحو اليسار ودخلت فى ممشى تحيط به صوامع على الجانبين ، وأن هذا الممشى يشبه إلى حد كبير تلك الطرقة الأخرى الواقعة فى الجناح الأيمن ، وخاصة عندما تتم مغادرة طرقة ورواق الإدارة ، إلا أن هناك فارقًا : ألا وهو أن

الصومعات غير مرقمة ، وهذا ما حدا بصاحب الأنف المقوسة أن يلفت انتباه من هم قريبون منه ، أدى ذلك إلى أن يأخذ الطلاب فكرة عن وجود مجموعة من الطرقات متشابهة موجودة فى هذا الجزء من الدير لم يدخلوها من قبل ، كم عددها؟ أهى كثيرة مثل الجانب الآخر؟ ربما افترض هذا الطالب ذو البنطلون الواسع ، لكن اتفق باقى الطلاب على أن التساؤل غير مجد، فالدليل واضح على كثرة عدد الطرقات هنا، وهى طرقات طويلة ، وهذا هو ما قاله بالفعل الطالب ذو الشعر الأحمر إذ لم يشك فى ذلك لا هو ولا زملاؤه .

يتقدمون ببطء وانتظام وقد هدأت أعصابهم جراء ما حدث قبل ذلك ، إذ يبدو أنه قد تم حل الأمر: فلم يكرر أى من القساوسة طلبه لهم بالتوقف ، ومن الضرورى الاعتقاد بأن واحداً منهم أعطى أوامره بأن يأخذ الطلاب المسار الذى هم فيه ، أيًا كانت نهاية المطاف ، يبدو أنه تم حل الأمر ؛ عبارة تناقلها الطلاب فيما بينهم فى صورة إشارات أكثر من الكلمات ، إذ إن حركة الطوابير ربما جعلت الطلاب يشعرون بأن عليهم السير فى صمت ، وأخيراً يسمع الصوت الرتيب للخطوات ، عاد الطالب ذو البنطلون الواسع إلى السير على شكل قفزات ، ما هى الأسباب التى حدت بهم للقيام بهذه اللفة – إنها لفة بالفعل ، ذلك أن أحداً لم يشك لحظة أنهم فى اتجاه المصلى لأداء الصلوات لليوم الثانى رغم أنهم أخذوا مساراً مختلفًا – افترض الطلاب أن من يقدر على شرح الأسباب إنما هم القساوسة والطلاب الذين هم فى المواقع الأولى للطوابير ، سنعرف ذلك، قالها الطالب ذو الشعر الأحمر ، يخيم إحساس بالهدوء والطبيعة على وجوه الأولاد وعلى سيرهم الطبيعى ... وفجأة يظهر ذو

العينين البارزتين ، أتى جريًا في نفس اتجاه الطوابير كانت آخر مرة رأوه فيها عندما تقدمّهم - وأخذ يصيح بكل ما أوتى من قوة : توقفوا ! توقفوا ! أستحلفكم بمحبة الله أن تتوقفوا ! شعر الطلاب بالهلع والفزع - ربما بسبب نبرة الكدر في أكثر من الأمر الصادر ، وقد جهلوا ما يحدث ، لكنهم ، وقد شعروا بأن الأمر خطير ، توقفوا في الحال بينما استمر الأب ذو العينين البارزتين في جريه وترديد ندائه بالتوقف بصوت فيه كدر: توقفوا ، توقفوا أستحلفكم بحب الله أن تتوقفوا ...

يختفي عن الأنظار في نهاية الممر، ويتحول إلى عباءة من الستان ، بينما أخذ الطلاب الذين هناك ينادون على زملائهم - بالإشارة والصوت - الذين هم في الطرقة التالية، ولا يرون من الموقع الذي فيه كل من ذي الشعر الأحمر والبنطلون الواسع والأنف المقوس ... ألخ . ولا يدري أحد في أي اتجاه ونحو أي مكان يتجهون .يبدأ الهرج من جديد والأسئلة التي لا تجد إجابة ، يضحك أحدهم ، لكن يصمت الآن بعض الطلاب ، وأخيراً تصمت الأغلبية العظمى وقد أصابهم الفزع لما يحدث . من هم في أول الطوابير؟ ربما كانوا يعرفون السبب وربما كانوا يتحملون بعض المسئولية فيما يحدث ، يسأل ذلك ذو الشعر الأحمر ، لكن ذا الأنف المقوس يذكره أننا لسنا في المدرسة بل نحن في الدير لأداء الشعائر الدينية طوال الأسبوع ، وبالتالي فنحن لا نتذكر بسهولة، من هم الطلاب الذين يسكنون الصوامع الأولى ؟ تعود الطوابير للسير بشكل ارتجالي ، يجر الطلاب أقدامهم بينما أخذ البعض يضحك والبعض الآخر ينظر بفزع .

توقفوا ، توقفوا ، إنه الآن صوت الأب ذى الحاجبين الكثين ، تتوقف الطوابير ، وبعد ذلك صفق الأب ، ويأمر بفض الطابور ، لكن لم يتحرك أحد ، أخذ يكرر الأمر الذى لا ينصاع إليه أحد ، خرج عن شعوره ، إحمر وجهه غيظاً وتوجه نحو طالب بدين وجهه غير معبر، وسأله : لماذا لا تنصرف سيادتك حسبما أقول ، فردّ عليه الطالب وهو خائف ويتلعثم : لا يمكننى ، لا يمكننى ، رفع يديه مهدداً كأنه يهم بضربه وانحنى عليه وصاح بعنف :قلنا انصراف ، فقال الطالب باكياً : لا يمكننى ، لا يمكننى ، ينظر الآخرون بترقب شديد .أخذ القسيس ، الطالب البدين من ذراعه وجذبه لكنه لم يستطع أن يخرجه من الطابور ، بينما أخذ الطالب يبكى ويصيح بأنه يؤذيه وهو لا يمكنه ، أخذ الطالب يكرر ذلك فى الوقت الذى يجذبه القسيس من ذراعه بكل ما أوتى من قوة ، وقد احتقن وجهه ، ظهر القسيس ذو العينين البارزتين والجبهة العريضة ، وتدخل بين الطرفين : اتركه ، ألا ترى أنك تؤذى الفتى ؟ وكأن الأب ذا الحاجبين الكثين قد ثاب إلى رشده فقال : أعتذر ، آسف ... فقال ذو العينين البارزتين : لا يجب أن نفقد هدوء أعصابنا ، ثم توجه إلى الطلاب بصوت عال متسائلاً : لماذا تأخرتم فى السير فى آخر مرة ؟ نظر الطلاب إلى بعضهم البعض ، يهزون أكتافهم ، واقتصر البعض منهم على القول بأنه فعل ما فعله ، أسوة بزملائه الذين هم أمامه ، وكأن القسيس ذا العينين البارزتين كان يتوقع مثل هذه الإجابة فربما سمعها من الطلاب الذين هم فى المقدمة فقال بلطف وحزم : فلنجرب الأمر من جديد ولتضعوا كل إرادتكم معى عندما أقول لكم انصراف ، الآن : انصراف : وصفق مرة واحدة ، بذل الطلاب جهداً ملحوظاً فى الانصياع لأوامره وتمايلوا كأنهم يحملون عبئاً ثقيلاً وأخذوا

يئنون ، لكن كانت هناك قوة خفية تمنعهم من مغادرة الطابور ، وبوجه متجهم قال لهم القسيس ذو العينين البارزتين ، بأن يتركوا الأمر ، يسأل أحدهم ماذا يحدث يا أبي ؟ فيتردد هو قبل الإجابة وفي النهاية يجيب بنبرة صريحة بأننا لا نعرف ، فيسأل ذو الشعر الأحمر من هم في أول الطوابير فيجيب الأب ذو الحاجبين الكثين بأننا لا نعرف أيضاً، فقد اختلط من هم في أول الطوابير مع من هم في آخرها حتى إن الطوابير أصبحت خطاً مستمراً لا ينقطع في كل طرقات ودهاليز الدير ، وما يحدث الآن هو أن الطوابير لا ينصرف منها الطلاب ، كما أنها تسير وحدها بشكل غير مفهوم ، بغض النظر عن التعليمات التي يصدرها القساوسة ، ورغبة الطلاب أنفسهم ، يتبادل نظرة مع القسيس ذي العينين البارزتين الذي يبدو – من عينيه البارزتين – أنه يؤنبه على كل ما قاله، وبنبرة تنم عن الندم قال ذو العينين البارزتين : لا تقلقوا – قالها كمن يريد أن يقول أي شئ ، ثم أخذ كلا الأبوين مسارهما نحو الأمام وقد لملم كلّ جلبابه الستان ، انتابت الطلاب البلاهة والفزع ، يحاول بعضهم الآن أن يخرج من الطابور بأن ثني جسده بكل قوة لديه لدرجة أنه حاول أن ينتزع نفسه باستعمال ساقه كوسيلة للخروج والاتكاء بيده على الحائط حتى يخرج ، يتخلّون عن المحاولة ، يجفف ذو الشعر الأحمر عرقه، وأخذ ذو البنطلون الواسع يبكي في صمت ويصيح الطالب البدين : ماذا يحدث لنا ، تسمع صيحات أخرى للطلاب من بعيد ، أما صاحب الأنف المقوس فيقول : ليتني أكون الآن مع والداي في المنزل ، لكنهم جاءوا بي إلى المدرسة الداخلية ... يأتي القسيس ذو الحاجبين الكثين ، هدوء ، هدوء يا أبنائي ، ينصحهم ، اهدأوا وسوف ينتهي ذلك

الأمـر فى الحـال لكن أغلب الطلاب لا يعـيـرونه اهتـمـامًـا ، ويواصلون صيحاتهم أو بكاءهم.

عظيـمـة هى سطوة العـادات ، إذ اسـتطاع الطلاب بعـد بضـع ساعات ، أن يتعودوا بدرجة ما على الوضع الجديد ، تتحرك الطوابير من حين لآخر ويأخذ الآباء فى إصدار الأمر بالتوقف جيئة وذهابًا ، ويتمكنون من إيقافها ، ويبدو أنهم استطاعوا السيطرة على الموقف خصوصًا بالنسبة للتوقف ، لا يمكنهم صرف الطوابير لكنهم قادرون على إيقافها إلى لحظة معينة ، ومن نهايات الطرقات والدهاليز يستخدمون أيديهم ، كأنها مكبرات صوت ، مبلغين الأوامر التى يصدرها القسيس العميد ، لمواجهة المتطلبات الجديدة بشكل عملى ، تلح التعليمات على ضرورة عدم التوقف عن أداء الشعائر الدينية ، وبناء على تلك التعليمات قام الخدم ، ومن يعملون فى المطعم ، وباقى طاقم الخدمة بعمل شبكة من مكبرات الصوت حتى يمكن ، بأسرع وقت ممكن ، استئناف محاضرات وعظات اليوم ، وهكذا حتى يتمكن الطلاب من حضور القداس غدًا إذا ما استمرت الأمور على ما هى عليه ، والأكثر من هذا : أنه وزع على كل طالب إناء للتبول ووسادة صغيرة وكيسًا به طعام من تلك الأكياس التى تستخدم عند الخروج فى رحلات ، وعندما تم تجهيز كل شىء ، شعر الطلاب بالهدوء ، فلا أحد يبكى فقد أسندوا المخدة إلى الحائط، وكيس الطعام فى يد وإناء التبول فى اليد الأخرى وأصبح كل واحد منهم مثالاً للامتثال للأوامر ، وكل هذا إنما هو نموذج للتنظيم العملى والفعال والأرضى ، لكن كانت هناك مشكلة ! ماذا سيحدث لو أقبل الليل وهم على هذه الحال ؟ هل يمكن للطلاب أن يناموا

أو أن تظل الطوابير فى سيرها دون أن تكون هناك مبررات لذلك ، ثم حل هذه المشكلة أيضًا ، فقد أمر الآباء الطلاب بأن يضعوا الوسادات على الأرض ويناموا وهكذا فعلوا ما أمروا به دون صعوبات ، وطوال ساعات وساعات جرى القساوسة فى الدهاليز والطرقات وهم يخشون أن تعود الطوابير للحركة من جديد ، لكن لم يحدث ذلك الأمر ، إذ نام الطلاب نومًا هادئًا وعميقًا ، فهم مجهدون ومرهقون بسبب ما مرّ عليهم أثناء النهار ، كان الأمر طبيعيًا لدرجة الكمال حتى إن بعض الآباء أهملوا دورهم فى الحراسة ، وذهبوا إلى صوامعهم ليناموا هنيهة وقد شعروا هم أيضًا بالإرهاق والتعب ، هل أنت متعب أيها الأب استيبان ؟ سأل الأب ذو العينين البارزتين الأب ذا الحاجبين الكثين ، نعم يا أب ماركوس ! مثل سيادتك ومثل الآخرين .. لكن ربما أن أسوأ شىء ليس هذا ، بل فى لحظات كهذه تنتابنى شكوك ، وأتساءل وأنا خائف ، فيما إذا كنا حقًا نقوم بواجبنا التربوى خير قيام أم لا ، فقال الأب ذو العينين البارزتين مقللاً من أهمية الموقف: إنك متعب يا سيدى ويجدر بك أن ترتاح ... فمهنتنا ستظل بذل أقصى الجهد ، وضع الآخر يده على جبهته مؤكدًا ما قاله الآخر: بذل أقصى الجهد، وهو يتوجه إلى صومعته مطأطأ الرأس .

***

J. M. MERINO

خوسية ماريا ميرينو

ولد فى ليون (١٩٤١) ، ألف فى الشعر والرواية والقصة القصيرة ، جمع أعماله الشعرية فى كتاب بعنوان : عيد ميلاد بعيداً عن المنزل (١٩٨٨) نشر عدداً من الروايات منها "رواية أندريس شوث" (الحاصلة على جائزة الرواية والقصة القصيرة) ١٩٧٦ - (لستُ كِتاباً) (١٩٩٢) ... وكذا ثلاثية أخرى مؤلفة من "ذهب الأحلام (١٩٨٦) - أرض المعبد المفقود (١٩٨٧) ، (دموع الشمس) (١٩٨٧) ومن بين مؤلفاته فى القصة القصيرة مجموعته "حكايات المملكة السرية" (١٩٨٣) ، ، (المسافر التائه) (١٩٨٩) .

***

ثلاث وثائق تتعلق بجنون خ.ل.ب

الوثيقة الأولى :

ربما كـان من التناقض الرهيب أن يكون يوم أمس هـو بداية هذا الموقف ، الذى قد لا يوصف إلا بأنه كابوس مزعج ، رغم أن كل البيانات التى لا علاقة لى بها قد توضح أن الأمر ليس حلماً .

أقـول ربما كـان من التناقض أن يكون يوم أمس ؛ إذ بدأ اليـوم بالنسبة لى وكل شىء يبشر بالخير العمييم : فبعد ما يقرب من ثلاثة شهور من المعاناة - الحادثة ، ثم المستشفى مع ما صحب ذلك من تدخل جراحى وليال طويلة من المطهرات والآلام ، ثم فترة نقاهة طويلة فى آخر المطاف ، وقد تحول جسدى إلى مصفاة من كثرة الإبر التى تدخل الغذاء إليه أو الأدوية - عُدت إلى المنزل وكنت أستيقظ وسط إحساس واهن بالاستقرار.

فتحت عينىّ ، وبعد لحظات الاضطراب الأولى ، أمام تغيير المكان الذى اعتـدت عليه ، فإن السرير ومـا يحيط به من ملحقات - المرآة الصغيرة ، والستائر الضخمة والأيقونة الفضية والبارومتر - أخذت كلها تدخل فى انسجام سواء فى الشكل أو الطول أو اللمعان ، وأصبحت على النمط الذى آنست فيه بسرعة نوعًا من الشعور بالراحة ، كان جسدى فى سلام ، أما أنا فقد استعدت خلابة مواقف مشابهة .

عشت آنذاك الوهن ، مثل ذلك الذى يعقب أمراض مرحلة الطفولة ، كان ذلك عندما تم تغيير الملاءات التى امتصت العرق ،

ولا ترتفــع حرارتى ، وأظل مستغرقًا فى التفكير بينما أسمع ، وأنا فى ضـوء الحـجـرة، الأصـوات التى تؤكد أننى فى المنزل مـثل : اصطكاك الأكواب وأزيز الأبواب ومقشة يسمع رواحها وغدوها بعيداً فى طرقات المنزل .

استعدت أيضًا – لكن دون أن أعى جيداً المصدر – ذلك التشبيه الذى يصف المخـدات كـأنهـا الخـدود ، المخـدات هى خـدود أخـرى ، غمـغمت ، وبعـد ذلك شغلت نفسى بطريقـة هادئة ، وبدون تسـرع إلا بغرض الإشباع الذاتى ، فى تذكر جذور ذلك التشبيه وتعريف ملمس المخدات على أنه يماثل الخدود – وقد ورد ذلك فى كتاب – أخذت تتضح مـعالم ذكريات تلك الأمسيات الخاصة بفترة النقاهة ، كانت ثلاث ليال على أفضل الأحوال حيث زال ارتفاع درجـة الحــرارة ، وآلام اللـــوز أو الأنفلونزا ، ومـقابل الخـلاص منها يجب تنـاول عـصـير الليمـــون والقراءة فى السرير.

كنت أطلب من والدتى الكتب التى تهمنى ، قصص المغامـرات ، وألف ليلة وليلة ، أو بعض الأجزاء الضخمة من موسوعة تضم الكثير، ومن بين ذلك قصة سيجفريد **Sigfrido** وبها بعض الرسوم التى لم أكن أمل النظر إليها، حيث يرى فيها البطل ، وهو يميل على أحد الينابيع ويمد يده ليأخذ بعض الماء وكأنه يريد أن يشرب، بينما نجد الخائن يقف وراءه فوق إحدى الصخور، ويرفع الرمح فى يده ، ويبدو المنظر وكأنه سوف يقضى على البطل .

وفى نهاية المطاف ، وبعد أن رفضت الذاكرة مواصلة الإشارة إلى بعض الكتب، أضـاء المكان بوضوح فى ذاكرتى ، إنه **Combray** ، فعند تذكر حالات الغَـفْـوَة أثناء الطفولة نجد المؤلف يتحدث عن خـــدود

المخدات ، فكرتُ ، وأعتقد أن مارسيل بروست Marcel Proust يطلق على المخدات "خدود الطفولة" لكن لم أكن متأكداً من ذلك، كما لن أكونه أبداً.

أدى الشك في أن يكون إلحاحي على موضوع ذلك التشبيه مبالغاً فيه إلى أنني قد أُجبر نفسي للتغلّب على كسلي اللذيذ ، وعلى ذلك نهضت من سريري ، وأخذت أبحث عن الكتاب لأزيل الشك باليقين ، كانت الشقة كلها هادئة كأنها السرير ، وفي الأرفف – التي تمتد في الممرات وفي معظم الحجرات – كانت الكتب مرتبة الواحد إلى جوار الآخر ، دون أن يحدث أي نوع من الخلل في اصطفاف الأجزاء .

ورغم أن محتويات مكتبتي مرتبة بشكل جيد فإنني أحتفظ في ذاكرتي بمعظم أماكن الكتب ، وبذلك توجهت مباشرة إلى المكان الذي من المفترض أن أجد فيه الأجزاء المختلفة للعمل ، ثم عدت إلى السرير وأنا أحمل أول جزء ، وأخذت أتصفحه ، وأنا واثق أن الموضوع كان في الصفحات الأولى حيث تلك الاستعارة التي تشبّه المخدات بالخدود .

وأساس هذا البحث حالة القلق التي أنا عليها، والرهبة التي تلفني ، وأنا أكتب هذه الشهادة على عجل قبل أن تظهر تباشير الصباح ، وبسبب ذلك تحول اليوم الذي تصورت أنه سيكون ألذّ يوم عندي بعد شهور من المعاناة، إلى المساحة الملائمة لكابوس ، إلا أنه لا توجد كوابيس في ظواهر الأشياء التي تحيط بي، كما أنني لن أعيش واقع السهّاد ، فالوجود الملموس للأشياء يظهر حضورها الذي لا يتطابق مع المتصوّر، كما أن الأصوات القادمة من الشارع تعتبر دليلاً مؤكداً أنني في حالة يقظة جيدة .

أقول بأننى عدت إلى السرير أحمل معى الكتاب، وحاولت العثور على ذلك التشبيه ، إلا أن جهودى ذهبت سدى ، وبعد فترة من الوقت قررت قراءة الجزء الأول من الرواية، وكان الدافع هو استغرابى الناشىء عن إعادة قراءة بعض الفقرات ، كيفما اتفق، بالإضافة إلى البحث المنظم عن الاستعارة، فقد بدا ذلك الكتاب أنه ليس ذلك الذى تذكرته.

لم يُبد هكذا ، ولم يكن هو ، ها هو الكتاب فوق الكومودينو وتحت بصرى ، إنه يتضمن مجموعة من الذكريات الشخصية ، وهى ذكريات تخلو من مغزى أدبى ، ذلك أننى كتبتها بعناية بحيث لا تبدو وكأنها عمل سردي ، وأفضل شيء في كتاب ذكرياتى هو أنه بفضل براعة المؤلف وتمكنه من تحريك أوتار بعض الأحداث التى مضت وتاهت عبر الزمن ، تحولت تلك الأحداث العابرة إلى واقع محدد وحقيقى وخالد .

لكن ذلك كان قد اختفى من النص ، كما أن حالة الذهول التى أنا عليها اكتشفت بعد ذلك أن العنوان هو الآخر مختلف، فالكتاب الذى أحمله بين يدى ألّفه مارسيل بروست على ما يبدو - ليس له نفس العنوان الشهير ، بل يحمل عبارة مقتضبة "مذكرات".

ويمكننى أن أقسم على أن ذلك الكتاب لم يكن ضمن الخمسة والثلاثين وأربعمائة واثنى عشر ألف كتاب ، التى هى محتويات مكتبتى ، ومع ذلك فهو مماثل شكليًا لكتاب ذكرياتى - سواء فى الشكل أو طباعة الغلاف وشكل الحروف، كما نشرته نفس الدار .

تَلَقّت دهشتى تأكيداً مخادعًا ، فبعدما نهضت وجريت مسرعًا للبحث عن باقى الأجزاء، تيقنت أنها تحمل العنوان الجديد، كما أن المضمون ليس سرديًا، بل كان تاريخًا رماديًا والتفاصيل التافهة فى

الحياة الاجتماعية لمجموعة من كبار البرجوازيين الفرنسيين فى نهاية القرن التاسع عشر.

وطبقًا لما يعنيه هذا الموقف فإن ذلك الاكتشاف المفاجئ دفعنى لمراجعة مكتبتى، فقد داخلنى شك مفاجئ فى أن يكون هناك بين الكتب الخاصة بى – فأنا أعتقد أننى أعرف كل الكتب بالعين المجردة أو اللمس – نصوص أخرى شديدة الغرابة مثل تلك النصوص ، بحثت عن بعض الكتب وأنا مازلت غارقًا فى تأملاتى ، وخاصة تلك التى أحببتها أثناء مرحلة الطفولة ، وأذكر هنا كتاب "جزيرة الكنز" لروبرت لويس استيفنسن ، واتضح أن "جزيرة الكنز" الخاص بمكتبتى – الذى يحتفظ بكافة الظواهر الخارجية لكتاب ذكرياتى – ما هو إلا حكاية جافة فيها الكثير من الإطناب ، وموضوعها القرصنة الإنجليزية من القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر ، وهى تعداد لنقاط الاتفاق ، وملاذ لهؤلاء الخارجين على القانون الذين كانوا يمارسون القرصنة .

كان الوقت فى منتصف فترة ما بعد الظهيرة، وتحول الهدوء الذى أنا عليه إلى بليّة ، فأعدت الكتاب إلى مكانه فى الرف وبحثت – خائفًا – عن الكتب الأخرى ، التى ساعدتنى فى تلك الساعات من طفولتى على التطواف بهذا العالم الجميل المقام من مجرد كلمات ، غير أن الحبكة الروائية والخيالية قد اختفت منها .

الكتب هى كما هى من حيث الشكل المادى ، وعندما يتعلق الأمر بما استطعت الاحتفاظ به على مدى سنوات طويلة – منذ نعومة أظافرى – فإنها تحتفظ بنفس الهيئة الظاهرية التى تؤكد تدهورها من جراء كثرة القراءة ، مازال فى هذه الكتب نفس المؤلفين ونفس

المترجمين عندما لا يتعلق الأمر باللغة الأصلية ، كما أن الرسوم الموجودة على الغلاف ونوعية الورق ونمطية الحروف كلها لم يطرأ عليها أى تغيير ، إلا أن المحتوى السردى تغير، وحل محله وصف أدبى للأحداث الواقعية ، التى تنسب إلى ميدان التاريخ وعلم الاجتماع أو علم النفس .

إنه نوع من التحول يصعب تصوره، فكل من هايدى توم ساير Heidi Tom Sawyer ولاثرو دى تورمس Lazaro de Tormes وروبنسن كروش Robinson Crusoe وشخصية تدعى هانز بيفال Hans Pfaall وإيفانوى Ivanhoe كل تلك الشخصيات لم تعد تعيش مغامرات درامية لتتحول إلى شهود تفقد معناها وأهميتها من خلال الوفاء الرمادى للمضابط .

تأملت الموضوع فترة وقررت فى نهاية الأمر البحث عن القصة التى يمكن أن تعيد إلىّ هدوئى وتتركنى تائهًا فى هذا الهَوَس الغامض ، والذى لا أعرفه حتى الآن إلى أى مدى يمكن أن يقودنى ، ففى عالم لا توجد فيه الروايات أو الأعمال الأدبية، أجد أنه من غير المجدى أن أجهد نفسى فى وضع وصف له ، لقد كان عندى بعض روايات من ذلك الكتاب وكان بعضها ذا قيمة عالية ، تناولت، وأنا متخوف، إحدى الطبعات التى فى حجم الجيب ، من تلك التى ظهرت حديثًا.

العمل هو نفسه من الناحية الظاهرية ، ومع ذلك لا يحمل عنوانًا مثل الرواية الخالدة ، نجد عنوانه "حياة ألونسو الكيخانو الذى يسمى بالطيب" هذا الكتاب يحكى ، بتفاصيل مملة ، الحياة المثالية لأحد النبلاء الذين عاشوا فى نهاية القرن السادس عشر ، ودرس الدين المسيحى ثم

مات وهو شبه قديس بعد أن أسس مستشفى ضخماً مخصصاً للمختلين عقلياً.

قضى ذلك الاكتشاف على ما بقى من ذلك الهدوء الذى كان قد أخذ يولد فى داخلى من جديد.

بعد الحادثة والأيام الطويلة التى قضيتها فى المستشفى، التى كنت أعيش فيها كوابيس كثيرة ، ورغم أننى كنت أتصور أن جهودى قد تؤدى إلى نوع من الإحباط، فإننى قمت فى الساعات التالية بمراجعة المئات من الكتب التى تحتويها مكتبتى ، وقد تبعثرت فى كافة أنحاء المنزل وكأنه قد وقع زلزال ، تأكدت أنه لا يوجد أى كتاب يمكن اعتباره رواية، كما لا يوجد أى ديوان شعر أو عمل مسرحى ، لقد اختفى كل هذا الذى يطلق عليه "الإبداع الأدبى" ظلت الكتب - كما سبق أن أشرت - لكنها خالية من أى مادة خيالية ، لم أجد الوقت المناسب لمراجعتها كلها لكننى أعتقد أنه ليس هناك أى أثر لخيال إبداعى على هذه الأرفف .

وحتى أستعيد هدوئى ، قررت الراحة لعدة ساعات وسبر أغوار مشاعرى التى تضربها سياط الضيق ، فكرت أن ذلك يمكن أن يكون حلماً ، غير أننى ، كما أشرت سلفاً، أشعر تماماً بكل ما حولى ، كما أن ما يحيط بى يفتقر لهذه الهالة التى تحيط بها لحظات الحلم .

وعندما اهتديت فى النهاية - فى محاولة منى للحفاظ على توازنى العقلى - إلى أنه لسبب ما لا يوجد فى كتبى ما عرفته مسبقاً كجزء من الخيال الأدبى ، وإذا ما أخذنا فى الاعتبار أن كل كتاب يعتبر فرداً من أسرة كبيرة ، فالأمر يجعلنى أشك فى أن ذلك الخيال الإبداعى قد

اختفى من الدنيا ، وصلت بتفكيرى لجرأة على تخيل أننى قد أتيت إلى عالم لا يوجد فيه الخيال الأدبى ، وربما كان السبب شيئًا لا أستطيع تصوره ، وقد يكون ذلك بسبب الحادث الذى ألم بى .

وفى إطار السلسلة المنطقية لذلك الافتراض بلغت من الخوف درجة خشيت معها أن كل ما أطلق عليه "أدبًا" ليس إلا نتاج الخيالات والشطحات التى تطوف بعقلى ، وما هو إلا خدعة معقدة ، تصورًها عقلى ، وربما ظننت أن تلك الخيالات كانت موجودة ومطبوعة فى الكتب ، وما كان مجرد شاهد ووثيقة يعكس الواقع المجرد لم يكن فى خيالى إلى حكايات اخترعت وتم سردها بطريقة خاصة .

غير أننى استبعدت ، فى نهاية الأمر، ذلك الاعتراض وفكرت فى الحدود المعقولة التى يمكن أن تصل إليها حالة الجنون عندى إن وُجِدت ، فمن خلال طريق الهوس ذاك، كان يمكننى تخمين كتاب ، مثل تلك الكتب ، ملىء بالخيال والسحر، وليس ذلك الخليط الذى يملأ رأسى ويتلألأ فى عقلى فى الوقت نفسه ، أعتقد أنه من غير المحتمل أن أعزو إلى الجنون والهذيان الحبكة والأساليب والموضوعات المتنوعة وتسمية الأجناس الأدبية أو كل ما يمكن أن يخطر على بالى فى هذه اللحظة وله صلة بالتاريخ والنقد الأدبى .

وإذا ما استيقظت فى عالم ليس فيه أدب ، فكيف حال الأمور خارج المنزل ؟ ففى عالمى الذى اعتدت عليه نجد جزءًا هامًا من كياننا ينتقل إلى عالم الرواية وإلى القصائد، وهذا الذى أطلق عليه أدبًا تحول لدى الكثيرين ، فوق القوانين والثقافات، إلى طريق سلمى للمعرفة وإلى ملجأ آمن ، لقد عودنا الأدب على التخيل وقضى نهائيًا على سطوة المبادئ.

أتأمل الشوارع ، هناك أحد ما يسير مُسرعاً وسط سكون الفجر ، يبدو لى أننى أراه فزعا ، وعندما يصبح الصباح سوف أتصل بأصدقائى وأحاول معرفة سرّ ذلك التغيير أو أن أستيقظ من الحلم الذى أنا فيه إذا ما كان كذلك .

إلا أنه إذا ما تأكدت مخاوفى واتضح أن الأدب لا يوجد هنا، فعلىّ أن أطرح فوراً إمكانية استعادة كل الأخيلة التى أتذكرها ، وبنفس الطريقة التى عليها صورة "بروست Proust ، والتى لم أستطع التوصل إلى فهم مغزاها أبداً، سوف أجد أن كل الأدب الذى عرفته سيمحى من ذاكرتى ويمكن أن يصل بى الأمر إلى الظن بأنه لم يوجد أبداً إلا فى دائرة الحدود غير الآمنة لأخيلتى ، كما سوف أحاول وصف فكرة حقيقية عن الخيالات التى أعرفها وتلك التى لن أتمكن أبداً من قراءتها بكل ما تتضمن من موضوعات ومعلومات عن الشكل الذى وضعها فيه المؤلف .

الوثيقة الثانية :

" خمسون ومائة رواية "

مواد شديدة الخصوصية والخطورة يجب أن توضع فى أرشيف به الكثير من عناصر الأمان وبأقصى قدر من التحفظ .

هناك عدد مكون من ٦٥٥ صفحة مقاس د/أ/٤ مكتوب معظمها بخط اليد أما الباقى فهو على الكمبيوتر ، وتتضمن تلك الصفحات (تسع وستون وليس مائة وخمسين، فقد تم الكشف عن النشاط) تخمينات يصفها المؤلف بأنها "روايات" ، وعلى أى الأحوال ما هى إلا حكايات متخيلة دون أن يكون لأى منها صلة مباشرة مع الواقع رغم أن بعضها

يتضمن عناصر تدل على نوع من نية الاحتمالية ، وكلها أو معظمها مثيرة للنفور سواء فيما يتعلق بالمضمون أو أخيلتها.

يتم وصف كافة النصوص، من خلال الدراسة المستخدمة فى التحليل الفنى ، والمرفقة بالملف ، وقد أمكن نسبة بعضها مباشرة إلى هوس المؤلف، ونذكر منها على سبيل المثال ذلك المتعلق بأحد فرسان القرن السادس عشر، الذى فقد عقله من كثرة ما قرأ من الروايات ويقوم، متعمداً ، بممارسات غير اجتماعية ، كذلك الحال نجده فى قصة سيدة عاشت خلال القرن التاسع عشر وهيأت لها قراءات من هذا النوع أنها يمكن أن تضرب عرض الحائط بالوفاء لزوجها ، نجد روايات أخرى تتحدث عن العلاقات بين الأفراد ويتم من خلالها إبراز مشاعر الحب أو الكراهية لدرجة مَرَضيّة وكذلك الوفاء والخيانة ، تكثر النصوص التى نجد فيها أفراداً معينين مستغرقين فى أوهامهم.

أما النشاز الذى أشرنا إليه مسبقًا فإنه يشغل فقرات عديدة ، ونذكر من ذلك بعض الأمثلة : هناك أناس قد تُوفوا منذ أعوام طويلة مضت، يظلون راقدين فى توابيتهم أثناء النهار ثم يغادرونها مستفيدين من ظلام الليل ليشربوا دماء الأحياء ، هناك أيضًا مدرّسون يعيشون جنون العظمة فَيُبعثون ويُعيرون الحياة لمجموعة من الأجزاء التى تنسب إلى جثث كثيرة فى جسد واحد، أو يتمكنون من التوصل إلى مركبات تثير انفعالاتهم ، ولكن من خلال شخص آخر ، هناك بعض المواطنين العاديين الذين يتحولون إلى حشرات ضخمة الحجم ، أو يتم التأكيد على أن هناك مكانا توجد فيه كل أماكن الكون حيث ترى من كافة جوانبها.

ورغم أن بعض الفقرات – وهى كثيرة – ترسم أنماطًا يمكن أن تعكس لنا منهاج حياة أو بعض العادات ، دون أن يغيب عن الذهن أبداً

ذلك الزيف المَرَضى ، ويصل الأمر ببعض الفقرات الأخرى إلى تَضمنَها عبارات قذف ، مثل وجود آلهة غريبة تتربص، وهى مختبئة فى الظلام ، أو فى هوة سحيقة، كما أن جُلّ تلك النصوص تتضمن، بشكل غير مباشر ، نوعًا من الاستخفاف الذى يصل لدرجة الاستهزاء بالدين والدولة ، كل هذا دون أن نضع فى الاعتبار أيضًا كثرة الحالات التى نجد فيها المذبذبين الذين ارتكبوا أخطاء أو جرائم دون أن يتعرضوا للعقاب الملائم .

الوثيقة الثالثة :

من مندوب الحكومة

إلى مدير مركز الصحة العقلية CESAMEN

أرفق لكم طىّ خطاب إلحاق المقيم الجديد ملفًا يتضمن كل سوابق الحالة ، وأعتقد أنه يكفى قراءة الوثيقتين الأولى والثانية للوقوف على الجوانب المبدئية للحالة ، وبالتالى يجب أن تُتخذ الاحتياطات والوسائل الكافية لعزله انفراديًا وتشديد الرقابة على العبارات التى يتفوّه بها أو يسطرها ، ويبدو أنها حالة خطيرة يمكن أن تتعرض لتدهور مؤلم وغير متوقع وخاصة إذا ما وضعنا فى الاعتبار أن المريض كان يتولى منصب مدير مكتبة الدولة قبل أن تظهر عليه أعراض الجنون . (توقيع غير مقروء).

***

MARINA MAYORAL

مارينا مايورال

ولدت فى محافظة Lugo عام ١٩٤٢ وهى الآن أستاذة للأدب بجامعة كومبلوتنسى (مدريد) ، لها بعض المؤلفات القصصية منها : "كانديدا ، مرة أخرى" (الحاصلة على إحدى الجوائز الأدبية ١٩٧٩) ، "على الجانب الآخر" ١٩٨٠ ... ومن بين مجموعاتها القصصية نذكر "الموت بين ذراعيه وقصص أخرى" (١٩٨٩).

***

عندئذ بدأ ينسى

كان ذلك عند محاولة سرد الأحداث ، وتحويلها إلى سلسلة من الوقائع، التى تعاقبت على مر الزمن ، ورسم بعض الشخصيات التى تصرفت بطريقة معينة ، فى هذه اللحظة أدركت أن فى الحكاية جوانب لم أتنبه لها عندما عشتها.

إنها تبدو مثل "قصة خالدة" قالت أختى ، أنا فكرت فى ذلك أيضاً منذ البداية، فقد واتانى انطباع - فى اللحظات الأولى - بأن ذلك شىء غير عادى ورائع ، وبمرور الوقت ومعايشتى للأمر أدركت أن الاختلافات مع فيلم أورسون ويلز Orson Welles ومع القصة القصيرة لـ دينسن

Dinesen هى جد واضحة ، فأنا لا تربطنى أية وجوه شبه بالبحار الساذج والجاهل ، نعم أنا شاب مثله لكننى لست دميمًا، وإذا ما أتيحت لى فرصة الاختيار ، فلن أختار لنفسى هذه المهمة ، كان يمكن البحث عن نمط قوى البنية الجسدية ، وهو ما يطلق عليه نموذج الذكورة ، أو ربما كان يجب البحث عن رجل على قدر أعلى من الذكاء ، أى عالم ذاع صيته ، أو فنان تنطق عنه موهبته ، غير أن ذلك سوف يزيد من الصعوبات بالطبع ، فالمشاهير عادة ما يتوخون الحرص ويتسمون بالبخل ، وربما فعلوا ذلك خوفًا من أى نوع من الابتزاز ، أو شعروا بأن الآخرين يستنزفونهم ، فالكثير منهم يضايقهم أن تؤخذ لهم صورة ، والأكثر من هذا جزء من ذاتهم ، لكن الأمر لم يصل إلى حد وجود رد فعلهم وكأن المرء يطلب منهم كُلية أو إحدى عيونهم، وعلى أى الأحوال فإن أيًا منهم سوف يكون الوصول إليه اقل صعوبة منى ، كما أن النتائج ربما هى نفسها أو أسوأ ، نعرف جميعًا أن العبقرية لا تورّث ، هناك حجج أخرى استخدمتها لتبرير اختيارها لى : التطرف خطر دائمًا ، وبالتالى كان من المناسب الوصول إلى موقف وسط ، أى العثور على رجل متوازن ذى صحة جيدة ، ووضعه جيد فى الحياة ولا تَعْتَوره أية تعقيدات ، كانت مسألة نقاط الالتقاء أحد الأسباب التى تم التعويل عليها ، يجب أن يكون شخصًا تشعر هى بالانجذاب نحوه فإذا ما كان عليها ، أن تقضى فترة غير مريحة فإن ترابيزة العمليات من الممكن أن تكون أكثر سخفًا ، بدا لى الأمر منطقيًا جدًا .

إننى أشعر بالخوف - قالت أختى ، عندما يظهر شخص بطريقة غامضة دون أن يدرى المرء من أين ظهر أو من هو مثل بحارة الأسطورة ، ميناء بعيد عند مغيب الشمس ، ونزول الضباب وحلول

الظلام، وهناك شخص يلوح لها بأنه يتبعها ... لكن الصباح كان مشرقًا هناك على الشاطئ ، كما أننا لسنا فى الهند أو هونج كونج ، بدا الأمر لها غريبًا ورومانسيًا، وقد احتارت بين ذلك المكان والجزر اليونانية ، غير أنها قضت شهر العسل فى هذا المكان، وقالت لى بأن ذكريات تلك الأيام الجميلة دفعتها إلى اختيار هذه المنطقة ، كانت هى نفسها التى اقتربت منى دون أية إشارات ، وكانت تتحدث الإنجليزية والفرنسية بطلاقة ، وبعضًا من الإسبانية .

هى بالفعل بطلة أسطورية، ولم يكن ذلك بسبب الغموض بل لجمالها: شقراء ، عيونها فيها زرقة عميقة ، وجلدها فيه سُمرة ذهبية تشع ضوءًا ، جسدها يتسم بالنعومة وصدرها مرتفع وغير مترهل ، سيقانها مستديرة وفخذاها طويلتان .. إنها نوع من الفانتازيا الجنسية – قال أخى الأكبر – وذلك هو ما كان يسمى "بالسويدية" على أيامنا ، غير أن "نورا" كانت بهذا الشكل ، أضف إلى ذلك أنها لم تكن ضخمة ، كما لم يكن لها أى وجه شبه بذلك الشباب المتخنث ، كان شيئًا رائعًا وأتصورَ أن ذلك هو السبب الرئيسى الذى دفعنى إلى التعاون فيما بدا لى – بعد أن حَكَتْهُ – إنه شيء عظيم وعادى فى الوقت ذاته ، نورا تريد أن يكون لها طفل لكن زوجها، الرجل الذى يكبرها كثيرًا ، كان عقيمًا ، وفكر كلاهما أنه بدلاً من اللجوء إلى التلقيح الصناعى ، يمكن اللجوء إلى طريقة قريبة من الطرق الطبيعية ، يجب عليها البحث عن شخص مناسب ، مع عدم الإفصاح عن شخصيتهما وذلك تفاديًا لمشاكل يمكن أن تطرأ فى المستقبل ، ومن هنا يُفهم سر تحفظها – بذلك يختفى الغموض – فى الإفصاح عن جنسيتها واسمها وعمل الزوج وأية بيانات أخرى يمكن أن يستخدمها الأب الطبيعى للوليد فى تحديد مكانها إذا

ما عنّ له اللجوء إلى نوع من الابتزاز مستقبلاً ، بدا لى الموقف رصينًا وعمليًا عن أى وثيقة أخرى تتضمن التنازل ، وهى وثائق لا تسهم إلا فى مزيد من تعقيد الموقف ، وقد قالت لى إن الأمر الأساسى يكمن فى التزامى الأخلاقى فى قبول هذا التعامل وبالتالى لا تستطيع أن تمضى فى تنفيذ الأمر دون أن تحصل على كلمة شرف ، أعطيتها كلمتى ولم أحاول البحث عن ماهية شخصيتها ، أى أننى تصرفت تصرفًا نبيلاً على الطريقة الإسبانية حسبما قالت لى أختى ، أو أننى تصرفت يحدونى الكبرياء كما قالت لى زوجة أخى .

أما أخى الأكبر فكان يرى الأمور بشكل مختلف ، فهو يرى أن نقاط الالتقاء والجاذبية إنما هى طُعم شائع ، فلم تختر نورا لأنثى شاب واعد وذكى بدرجة أو بأخرى ، كما أننى معافى ومن أسرة ميسورة الحال ، بل لأننى أبله، لقد نطق بلفظة ساذج لكن لوحظ أنه كان يريد أن ينطق بأبله ، إذ يمكن أن تكون نورا امرأة لعوبًا ، وتستخدم حكاية الطفل لتحصل منى على مال فى المستقبل ، مما لا شك فيه أننى قصصت الحكاية بشكل سيئ ، أو أننى لم أفكر أنها يمكن أن تفعل ذلك ، ومن الممكن أن يكون هناك شىء من الغيرة فى تعليقه ، فقد سار فى حياته على أنه الذى ينتصر دائمًا ، ولا يدرك لماذا اختارتنى نورا، رغم أنه كان على الشاطئ فى ذلك اليوم ، ورغم كل شىء ، فمن المؤكد أننى لم أستطع نقل الإحساس بالثقة - الذى يتولد من نورا ، فليست من أولئك النساء اللاتى تخصصن فى التهام الرجل، وإذا ما كانت كذلك لم أكن لأجرؤ ، أريد القول أننى لم أكن لأقبل المشاركة فى الموضوع ، نورا تحب زوجها وتحترمه فهى زوجة طيبة وسوف تكون أمًا جيدة للوليد: فهى حانية ومرحة وهادئة ، وسوف تهب ابنها

الأمان فى حياته ، وتتمتع بقدرة عالية على الإنصات لدرجة تستنفر معها حب البوح بالأسرار ، ويشعر المرء وهو إلى جوارها بالرغبة فى الكلام وأن يسرد عليها المشاكل ، لكن أخى لم يدرك الأمر بعد ، أى أنها كانت تعترف لك حتى لا تلقى عليها أية أسئلة ، ومن المؤكد أنك حدثتها عن كل الأسرة .. عن كل الأسرة؟ بالطبع لا ولكن عن معظم أفرادها ، لقد حدثتها عن امرأته، وسألتنى نورا عن السبب الذى لم أتزوج من أجله حتى الآن ، فكانت تظن أن العزوبية لا تتسق مع شخصيتى ولا مع سماتى الطبيعية – هكذا قالت – ولهذا حدثتها عن زوجة أخى .

فى بداية الأمر لم تكن توجه الأسئلة من باب الفضول، بل اهتماماً منها فى معرفة شيء عن أسرة ابنها ، كانت تريد أن تعرف أى شيء يمكن أن يؤثر عليه فى المستقبل ، فيما إذا كان هناك استعداد فطرى لأى مرض أو سلوكيات غريبة ، وفيما إذا كانت تتوفر فينا مواصفات خاصة للقيام بنشاط معين أو ميول فنية خاصة ، سعدت كثيراً حين عرفت أننى كاتب ، وهنأت نفسها على حسن اختيارها وأن عينها فاحصة – كانت تقول ، وأخذت تتنقل تدريجياً للحديث عن أشياء أكثر حميمية .

لكن الشيء الذى يصعب فهمه ، هو أنها غادرت المكان دون وداع ، وقد قالت لى فى الليلة السابقة على رحيلها "إلى اللقاء غداً" لكننى عدت فى اليوم التالى ووجدت المنزل مغلقاً ، البوابة الخارجية وبوابة المدخل والنوافذ وكل شيء ، إنها امرأة شديدة الحذر – قالت زوجة أخى – لقد أحست أنك بدأت تحبها فأغلقت الباب أمام هذا الطريق ، فالشخص العاشق لا يميل إلى استخدام العقل ولا يحترم الوعود ، ولو استمر الأمر بعد ذلك قليلاً، لكننى بدأت فى البحث والتقصى لأعرف من هى ، ومن أين أتت وكيف يمكن العثور عليها من جديد ، ألن أحاول ذلك ؟ ألن

أفصح لها عن عميق مشاعرى وحبى الذى أخذ ينمو من ضيقي من تحوّل الطفل المشترك بينهما إلى طفل رجل آخر ؟ لست أدرى من أين خرجت زوجة أخى بهذه الأفكار ، لست أدرى فيما إذا كان ذلك ضمن الحكاية التى سردتها أو أنها تخرج بتلك الأفكار من حكاية أخرى يعرفها كلانا ، ربما كانت على حق وأن ذلك يمكن أن يكون تفسيراً لرحيلها المفاجئ دون وداع ، وربما هناك ما هو أكثر من ذلك ، ربما أحبتك نورا - تقول أختى - ولم تكن تريد خيانة زوجها، وذلك للحيلولة دون أن يمر بلحظات ضيق، عندما تسلم نفسها لرجل آخر ، إنه رجل شديد الوثوق بزوجته ، وفى وفائها له ، وحبها ، وفى مشروع الحياة المشتركة ، وقادر على أن يتركها تختار الرجل الذى سيجعلها تحمل منه لتنجب طفلاً ، ويمكن أن يفهم أنه أمام رجل بهذا الشكل لم تشأ أن تخيب ظنه - تقول أختى - إنه رجل غير عادى إنه خوان لاناس J. Lanas يقول أخى الأكبر : لقد جاءت هذه المرأة لتقضى أجازتها وعندما تعود تجعله يظن أن الطفل هو من صلبه ، يا لها من امرأة! لقد لعبت بكليكما ، وأتساءل فيما إذا كان هناك شىء من هذا القبيل فيما قصصته ، وربما كانت المفاجأة وخيبة الأمل والغيظ والألم أمام رحيلها غير المتوقع لها صدى فى الكلمات التى كنت أتحدث بها ، وربما كان أخى الأكبر يُضْفى على ما أقول تخمينات تتعلق بحكاية أخرى لا يريد أن يعرف عنها شيئًا.

إن حكايتى ، التى عشتها، تنتهى أمام ذلك الباب المغلق، لكن كل واحد حاول البحث عن النهاية التى تروق له - من المحتمل أن تعود - تقول أختى - وسوف يدرك زوجها أنها عاشقة لشخص آخر، ولن يقبل بالتضحية بها ، إنه رجل طيب وكريم وأكبر منها سنًا ومتفهم ، ويمكن

أن تقص عليه نورا كل ما حدث، وما تشعر به، فهي تعرف أنه سوف يتفهم الموقف ، كما هي عادته دومًا ، وسوف يقول لها أن أهم شيء الآن هو أن تهدأ وترتاح حتى يولد الطفل في ظل ظروف جيدة ، وسوف يكون هناك متسع من الوقت لحل أية مشاكل ، فهي حرة في اتخاذ القرار الذي تريد ، وفي الوقت الذي سيعني هو بها ، ويكون ودودًا معها ويضع يده فوق بطنها ليسمع كيف يتحرك المولود ، وسوف يضحكان سويًا يفكران في وضع اسم له ، وبعد مرور تسعة أشهر سيكون الأمر مجرد ذكرى رومانسية - قالت زوجة أخي - وعندما يكبر الطفل ويحاول الأصدقاء البحث عن وجود شبه بينه وبين والده فسوف يتبادلون نظرات ماكرة ومسلية ، وتقول أختي إنها حانية ، وسوف يتذكرون شاكرين صنيعك ، بمعنى أن ذلك الضيق غير مفهوم ، فقد كانت رائعة ، وقد انتهى الأمر نهاية غير مكلفة بالنسبة لك ، أما الابن فمن يدري من سيكونان أبواه ، يقول أخي وإذا ما كانت هذه هي نهاية القصة فلا عليّ أن أشكو ، وفحوى الأمر أنه تروق لي الكتابة الأدبية ، وإضفاء اللمسات الجمالية على الأشياء ، وأصور نفسي على أنني شخص مهم وواثق من أنني سوف أكتب رواية أو قصة قصيرة - تقول زوجة أخي - لكنها تشبه كثيرًا "قصة خالدة" قالت أختي ويجب البحث لها عن نهاية مختلفة - كأن تعود هي ، أو أن تُسرق منها كروتها الائتمانية - قال أخي الأكبر ، أو أن كل شيء لا يعدو أن يكون حلمًا - تقول زوجة أخي ، أو كان خدعة .

وعندما انتهيت من سردها كانت قصة مختلفة، ولست أدري فيما إذا كانت أقرب إلى الواقع أو أنها على العكس من ذلك بعيدة عنه ، لا يهم ، لقد كنت في حاجة لأخرجها من داخلي ، وتحويلها إلى شيء

موضوعى يمكن التعامل معه ، أى : أننى كنت آخذ حمام شمس على الشاطئ فاقتربت منى فتاة شقراء ، وأقول بعد كتابة ست صفحات : كان المنزل مغلقًا والبوابة الخارجية والنوافذ وكل شيء ، والآن لست ذلك الرجل الذى يشعر بخيبة الأمل أو الذى يحاول - دون جدوى - استعادة شبح أو مجرد فهم ما حدث ، إنه شخصيتى ، إننى أعيد قراءة قصته ، وأقوم بتصحيح بنيتها وتفاصيل أسلوبية أخرى ، أعيد قراءتها على أختى التى تقول بأن النهاية لا تروق لها ، أما زوجة أخى فهى تبتسم وتقول : كنت أعرف أن ذلك كان مجرد حكاية ، ألا تريد أن تشعل غيرتى ؟ أما أخى الأكبر الذى يقول لى أننى أبله لأننى أخذت أقلب أمرًا على وجوهه المتعددة ومع ذلك لن أخرج منه إلا بفائدة قليلة .

على البحار أن يقلب الأمر على وجوهه المختلفة - فربما سيقصه فى بداية الأمر على زملائه فى العمل ، كانت امرأة جميلة جدًا عيونها خضراء كأنها البحر وشعرها ذهبى ولم ير فى حياته امرأة بهذا الجمال ، وعندما ترك البحرية قص ذلك على امرأته ، الوصول إلى الميناء وهذه الشخصية التى تلوح له والمنزل الرائع الفخم ، وسيقصها على أبنائه عندما يكبرون ، كان الزوج رجلاً ذا سطوة وواسع الثراء ، لكنه لا يستطيع إنجاب الأطفال ، ويقصها على أحفاده ، منذ سنوات طويلة وفى بلد من البلدان البعيدة .. ذات يوم سمع، وهو فى إحدى الحانات، أحد البحارة الذين وصلوا لتوهم إلى الميناء يقص حكايته ، الخادم الذى كان يلوّح له بين ضباب بداية الليل ، والقصر والمرأة الرائعة الجمال، والعيون الكهرمانية والشعر الطويل الأسود كأنه ظلام الليل. ، عندئذ بدأ ينسى.

***

LUIS MATEO DIEZ

لويس ماتيو دييث

ولد فى بلدة بيابلينو Viallablino (ليون) عام ١٩٤٢ - يقيم فى مدريد - حصل على ليسانس الحقوق ، شارك فى تأسيس المجلة الأدبية Claraboya التى ظهرت للوجود خلال الستينيات ، صدرت له مجموعة من الكتب كان أولها مجموعته القصصية "مذكرة الحشائش" Memorial de hierbas (١٩٧٣) ثم صدرت له مجموعات قصصية أخرى وروايات منها "الساعات الكاملة" (١٩٩٠) و"ملف الغريق" (١٩٩٢) نذكر من بين مجموعاته القصصية أيضاً " جمرات أغسطس" (١٩٨٩).

***

العم قيصـــر

إذا ما كنت أحتفظ فى مخيلتى بذكريات تفصيلية عن أقربائى - فكما تقول الكلمات المأثورة بأنه لا توجد ذاكرة أسرية أكثر حرصاً ، أكثر من ذلك اليتيم الذى يتسم بتمسكه وحرصه على القليل الذى لديه ، وإذا ما كان كذلك فإن معناه يمكن أن تكون له دلالات كثيرة من بينها أنه محروم من أهم الأشياء - فإن أكثرها قوة هو ذكرياتى عن العم قيصر رغم أن ذلك مرّ بحياتى - ولا أقول بحياة الخالة إيريا Eria - كأنه سحابة صيف .

كنت أول من عرفه فى القرية فى فترة ما بعد الظهيرة عندما كنا ذاهبين للبحث .

كنت الوحيد الذى قال له مع السلامة، فجر يوم من شهر فبراير حيث كان الجليد يشحذ تهديداته كأنه سكين مفتوح.

قال لى نفس الشيء تقريبًا عندما عرفته، وعندما مضى ، وكان يثق فىّ ثقة غير عادية منذ أول لحظة - وقد شعرت فى الحال بذلك الإعجاب الذى أخذت ملامحه تتجسد فى التعبير عن شكره ، ثم تمتد وتتشعب تلك الملامح بلا حدود، فلا شيء فى الحياة أكثر كرمًا من اهتمام الآخرين باليتيم ، فهو يشعر بالمفاجأة وهو أن أحدًا مشدود الانتباه إليه .

اقترب منى ذلك الرجل الفارع الطول والشديد النحافة - كانت جدتى أوريليا تصفه فيما بعد بأنه "النبّوت"، بعد أن غضبت وانتابها الكثير من الظنون ، بسبب التعجيل بزواج الخالة ، التى كسبها إلى صفه - وأنا أقوم بملء الإبريق الفخار من النبع لأحمله بعد ذلك إلى الحصّادين .

كان المساء - في أغسطس - يمتلئ بالشفق كأنه الحريق، وأول شيء لفت انتباهى فى العم قيصر هى تلك الابتسامة التى تشع من عينيه ، والتى تجعل المرء ينسى خشونة الوجه الذى كسته لحية لم تحلق منذ عدة أيام ، وملابسه المتسخة كأنه متسول .

- عجبًا يا روسيو - قال لى وهو يداعب شوشتى الشقراء، والتى لم تكد تغطى جبهتى ، فكأنها خصلة غريبة فى رأس حليق - هل يحلقون لكم شعركم فى هذه النواحى أيضًا على طريقة عرف الديك؟

نظرت إليه وكأننى كنت أريد التعرف على بعض الأفراد من الأقرباء ، الذى عاد لتوه من مكان لا يعلمه إلا الله؛ فقد كان من الصعب عليّ حتى تلك اللحظة تصور أن ذلك الرجل غريب عني : فلمساته الحانية وكلماته التي يسبقها اللقب ، الذى سوف ينادينى به ، كانت تتأتى وتصدر عن ثقة غير مرتجلة، إنها ثقة تعلن عن نفسها، ويتم قبولها بشكل تلقائى .

– كيف حال الفتيات فى هذه القرية؟ – سألنى بعد ذلك وهو يأخذ الإبريق الذى لم يكن قد امتلأ عن آخره بعد – أتمنى لو كن رقيقات وفيهن عذوبة مثل تلك المياه – قال ذلك بعد أن تناول جرعة كبيرة منه.

وبعد ذلك بستة أشهر، أى فجر ذلك اليوم من شهر فبراير الذى أمطرت السماء فيه الكثير من الثلوج ، كنت أنتظر العم قيصر فى الجزء الخلفى للحظيرة، وذلك بعد أن أخرجت المُهرة من الإسطبل وأسرجتها مثلما طلب مني .

كانت هناك خيوط من الضوء تنفذ بصعوبة من الأفق الذى يختفى خلف الجبال وتجعل الجليد يتحول إلى قطرات ندى تتلألأ فوق الحشائش المتجمدة .

قفز العم من نافذة الحجرة التى كانت تنام فيها الخالة إيريا Eria مطمئنة، فأمسك بشجرة الخوخ ونزل من فوق أغصانها ، ثم أتى إلى المكان الذى كنت أنتظره فيه دون أن يحدث جلبة ، وأخذ يربت على المهرة حتى تهدأ ، وبعد ذلك قام بتزرير معطفه، وقبل أن يأخذ اللجام الذى أعطيته إياه رمقنى بنظراته للحظة وهز رأسه بينما كان يداعب شوشتى .

– عجبًا يا روسيو – قال – لابد أن ترفض هذه الموضة فى قص الشعر، فأنتم يا فتية هذه القرية يجب ألا تقبلوا ذلك .

امتطى صهوة المهرة ، وقبل أن يبدأ بحثها على الجنب البطىء رفع يده اليمنى إلى صدغه.

– لا تنس يا روسيو فأنا لم يكن لى ابن أخ أكثر طيبة منك .

ما حدث هو أن ذلك الرجل الفارع الطول ، والبالغ النحافة، والذى لم يعرف أحد من أين هو آت ، سرعان ما تعود عليه الناس ، ولم يعد من الغرباء ، فقد كانت نواياه واضحة منذ البداية وتتلخص فى بقائه فى القرية ، لدرجة أنه لم تكد تمضى عدة أيام حتى كان الناس يتحدثون عما كان عليه من صلابة وهمة وطيب معشر وحسن خلق ولباقته الواضحة فى الحوار.. يشارك فى الحصاد حتى نهاية الموسم وينتقل من منزل إلى آخر، ويلقى بيد المساعدة لمن هو فى حاجة إليها، رغم أنه قد لا يتمكن من تقديم الأجر اليومى المناسب .

وعندما عدت لرؤيته من جديد فى أول يوم أحد ، كان قد حلق ذقنه وارتدى ملابسه المكوية بما فى ذلك القميص الأبيض واتجه إلى الكنيسة وكان يتحدث إلى الجميع ويحييهم ، وكان القس السيد / إيرمنيو Herminio يطلبه ليؤدى بعض الترانيم ضمن قداس أقيم على روح أحد الموتى فقد أدرك الجميع أنه عذب الصوت وأنه كان يعزف على الأرغن الصغير والأكورديون كما كان يعرف الطقوس الكنسية جميعها .

– أتعرف يا روسيو أن قريتك تعجبنى ؟ قال لى هذه العبارة فى ذلك الصباح عند الخروج من القداس، الفتيات هنا رقيقات، ويعرف المرء ذلك بمجرد رؤيتهن .

وفى المساء كانت فرقة الـ Ciclones الموسيقية ترافق حلبة الرقص فى الجُرف - بعزفها مقطوعات فيها القليل من التنويع لدرجة أنها جميعًا كانت تنتهى برقصة تشبه موسيقى باسو دوبل Paso doble ، ويتم تكرار ذلك طوال المساء حتى التاسعة ، ومن يوم أحد إلى اليوم الآخر وكأن هذه الموسيقى التى لا مناص منها تنزلق على شريط الزمن دون فكاك منه ، كانت الفرقة تتوقف وقتًا طويلاً عن العزف للراحة ، وأثناء ذلك تسمع بوضوح تنهدات ، تنبئ عن الشعور بالارتياح ، أما نحن ، معشر الفتيان ، فكنا ننتهز هذه الاستراحة وندخل إلى المنصة التى يتواجد فيها الموسيقيون ونُحدث بالآلات بعض الألاعيب : بأن نضع سنبلة مستعرضة فى فتحة الساكس مستغلين غيابهم فى الكانتين المرتجل لتناول بعض المرطبات .

كانت أول مرة أسمع فيها عمى قيصر وهو يعزف .

لقد تركه الموسيقيون يصعد إلى المنصة ويجلس هناك وحده ويحمل الأكورديون دون أن ينطق بكلمة لكنه يحتمى بتلك الابتسامة التى لم تفارقه أبداً ويصعد ببصره إلى أعلى وكأنه يحاول لقاء الذكريات الخاصة بقطعة موسيقية معينة ، بدت قامته أطول وهو يقف هناك على المنصة ، وسرعان ما بدأ ينثنى فى حركات متمايلة تنبئ عن تموجات وتمايل منفاخ الأكورديون .

أُصبنا جميعًا بالذهول، وقد سيطرت علينا سحريّة الموقف الناجمة عن الانفعالات التى أحدثتها تلك المقطوعة الموسيقية، التى لم نسمعها تُعزف بهذه الطريقة أبداً ، وبعد ذلك أخذ بعض الفتية والفتيات يرقصون ، وأخذ العم قيصر يتنقل من مقطوعة إلى أخرى ، وفى كل

مرة ، يعلو التصفيق الذى يشكر العازف ، وعندما نزل من فوق المنصة وذلك حتى يترك المجال للفرقة الموسيقية لمواصلة العزف ، كنت أنا فى انتظاره ومعى أصدقائى ، فاقترب منى وربت على رأسى ، قبل أن يذهبوا به إلى الكانتين ، - يا روسيو - قال لى : سوف أعلمك كيفية العزف على الأكورديون .

استطعت تعلم العزف على هذه الآلة، مثلما تعلمت أشياء كثيرة بدأ هو فى تعليمى إياها ، وفى يوم زفافه - الثامن عشر من نوفمبر - وعند تناول الحلويات، أثناء الوليمة التى أقيمت لهذا الغرض، قام العم قيصر بالعزف لأول مرة على الأكورديون الذى أهدته إياه خالتى ، والتى كانت عروسًا سعيدة إلى جواره لدرجة أنها لم تكد تلقى بالاً لبكاء الجدة التى أخذت تتذكر الجد بيرن Verin طوال والذى كان قد توفى منذ ثلاثة أعوام بينما يشعر بالألم وهو يرى أن بناته الثلاث لم يتزوجن بعد .

- لقد توفى المسكين - كانت الجدة تقول ذلك وهى تلتهم الدموع وحلوى Hojaldres - وفى قلبه ذلك الهَم ، وبعد ذلك تتزوج ثلاثتهن الواحدة تلو الأخرى فى كل عام ، وبعد دفنه نحضر حفلات العرس وحفلات التعميد .

أتذكر بوضوح كيف أن عمى أخذ الأكورديون وقد اعترته حمرة ولمعان، بعد أن قبّل خالتى ، وتلمسّه لحظة قبل أن يضعه على صدره ، وقبل أن يصمت الحضور ، ثم عزف بعد ذلك عدة مقطوعات أخذ يمتد أثرها بعد ذلك إلى الكئوس على الموائد فى دندنة إيقاعية .

- سوف أهدى هذه المقطوعة إلى روح حماى وتكريمًا لحماتى فمن يقطف آخر ثمرة فى الشجرة لابد أن يكون شخصًا شكورًا قبل كل شىء - قال عمى هذه العبارة وهو ينظر إلى جدتى .

كانت هذه هى المرة الأولى التى أسمعه يعزف مقطوعة "حصار سرقسطة" كانت أصابع العم قيصر تتنقل على أصابع الآلة وكانت الدبلة التى يضعها فى إصبعه البنصر تشع وميضًا عارضًا كأنها ذهب مشتعل ، يحدث ذلك فى أعلى درجات التوتر فى هذه المقطوعة البطولية .

لم أعرف – فى حقيقة الأمر – أن ذلك الرجل كان يغازل خالتى ، رغم أننى قد شهدتهما مساء ذلك اليوم (الأحد) من شهر أغسطس وهما يرقصان على أنغام مقطوعات عديدة، ثم يرافقها إلى منزلها ، وبعد ذلك ببضعة أيام وجدتهما يسيران وحدهما مستغرقين، عندما كنت ذاهبًا إلى الحقل لأعود بالأبقار ، كانا يسيران فى طريق ضيق يربط بين الحظائر التى فى الحقول وشاطئ النهر.

– إنها أرقهن جميعًا يا روسيو – قال ذلك عندما رآنى وهو يمسك بخصر خالتى تضحك ضحكة فيها شىء من السعادة والعصبية.

وبعد ذلك رأيتها ذات مرة عند سور البستان ، كانت خالتى تحاول أن تتخلص من عناقه، أما هو فكان يصر فى إلحاح ، أخذت خالتى تجرى ، أما هو فكان يناديها متضرعًا ، رأيتها وهى تمر من جانبى وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

وفى هذه الآونة أخذت أسمع النقاش الدائر بين خالتى وجدتى ، وكانتا تجدان صعوبة فى التزام الصمت عندما ترياني ، الصمت يعترينى وأتخيل ما يجرى ، وذلك الغضب الذى تكظمه جدتى وقد أخذت تفقد الأمل .

– لن يكون لصًا – سمعتها تقول ذلك ذات يوم – لكن لا وظيفة ولا دخل ، كما أنه ليس هناك أحد يمكن أن نعرف منه ، من خلاله ، شيئًا عنه ، هل يمكن للرجال أن يضربوا فى الأرض هكذا كأنهم الكلاب ؟

فاضت دموع الجدة وسط بحر من الانفعالات، التى لم تستطع كبح جماحها ، انتهى العم قيصر من عزف مقطوعة "حصار سرقسطة" وسط تصفيق وصفير المدعوين، فنهضت من مقعدها لتقبّله.

– يا بُنىّ – قالت هذه الكلمة بصوت فيه نبرة من يعترف بسر ويعتذر عما فعله – يا ابنى .

عندئذ قام عمى قيصر – الذى جاء إلى المنزل فى ذلك الصباح وقد حمل معه أغراضه القليلة التى كانت لديه – وترك الأكورديون تحت رعايتى وأخذ العروس لمراقصتها ، أما أنا ، فقد بقيت جالسًا وأنا أحمل تلك الآلة الضخمة اللامعة على ركبتىّ ، لكن دون الجرأة على لمس أصابعها وكأنها تحولت إلى صندوق سحرى ملىء بالحياة ،

– سوف تتعلم يا روسيو – وهذا ما يقوله لك عمك، وما هو مطلوب هو أن تستهويك الآلة.

تعلمت ولكن بشىء من الصعوبة ، كان صبره علىّ لا ينفد ، مثل دردشاته فى الكانتين أو فى المطبخ أثناء الليالى الطوال التى لا تنتهى – فى شهر ديسمبر – إذ كان يتناول العصير، بينما الجدة والخالة تطرّزان أما أنا فقد جرفتنى تلك الحكايات والذكريات الكثيرة .

وفى اليوم التالى لليلة الزفاف كانت الجدة عصبية ، وهى ترقب السلم المؤدى إلى حجرة العروسين .

– لم ينزلا – قالت له عندما دقت الساعة التى فى حجرة الطعام الحادية عشرة والنصف .

وبعد هنيهة نادت علىّ ، فقد جهزت فنجانين كبيرين من الشيكولاتة وكوبين من اللبن وطبقين من الخبز المحمص وعجائن مقلية Frisuelo ووضعت كل ذلك على صينية .

– خذ – أمرتنى – سوف تدق الباب وتقول لهما بأن ذلك هو طعام الإفطار ، فقد كان أمامهما متسع من الوقت للنوم .

وهذا ما فعلته ، أطلّ العم قيصر برأسه ليأخذ الصينية، كان يرتدى البيجامة.

– قُل للجدة بأننا سوف نظل فى هذه الحجرة لعدة أيام دون أن ننزل، وكل ما نريده هو ذلك الذى أتيت به ، وقل لها بألا تُعد أى أطعمة أخرى ، ما نريده هو الشيكولاتة والخبز المحمّص والعجائن المقلية ، ولكن عليك أن تأتى لنا بعد ذلك بالكوز الخشبى Jicara وآنية كبيرة مملوءة بالحليب الطازج بدلاً من هذين الكوبين .

قضيت الأيام الثلاثة التالية صعوداً ونزولاً بالصينية ، لم أر أثناءها الخالة إيريا أو حتى أسمعها ، أما العم قيصر ، فكان يطل بحذر وهو يرتدى البيجامة.

– شكرًا يا روسيو – كان يقول – كيف حال الجو فى هذه الفترة ؟

كانت الجدة تزداد عصبية مع مرور الأيام وخاصة عندما كانت تأتى بعض الجارات أو بعض خالاتى للتهنئة .

– هذا الرجل – كانت الجدة تهمهم – وتلك الفتاة لا تقولوا لى إنه أمر معقول أن يختبئ المرء بهذا الشكل .

– علينا أن نتحمل شطحات العروسين يا سيدة أوريليا.

– لقد شربا خمسة عشر كوزًا وهذا كثير.

في ذلك الصباح نفسه نزل العروسان من الغرفة، ولم تكن الجدة تفعل شيئًا أكثر من التنهد لتظهر لهما موقفها الذي لا يفهم ما يجري؛ في هذه اللحظة أخذني عمي قيصر على الدراجة لنقوم بجولة حتى الطاحونة.

– سوف أطلب منك معروفًا كبيرًا يا روسيو، كما أنني أطلب منك أن تجعله سرًا.

شعرت أن الاحترام والإعجاب الذي كنت أكنهما له قد قوبلا بعرفان مضاعف، فلم يكن هناك عندي أفضل من القيام بمساعدته في أي شيء.

– إنك تتجول كثيرًا في تلك النواحي، أي خارج القرية وتتعرف من يأتي، ومن يذهب من أهلها، وعليك أن تبلغني في الحال عندما ترى أي غريب على تلك القرية أيًا كان، اللهم إلا إذا كان من الشحاذين، أتفهمني؟ وعليك أن تتعرف أين هو، وتقول لي ذلك، إن الحياة يا روسيو تجعل المرء لا يثق في الغرباء، وسوف تعرف ذلك عندما تكبر.

لم نعد للحديث في ذلك أبدًا، فلقد أقبل الشتاء بقسوة وكأنه حيوان متعب، وأصبحت الأيام وئيدة وثقيلة على تلك الأشجار، والحقول الوحيدة التي سقطت عنها أسمالها، كنت أنفذ ما طلبه مني عمي قيصر بالحرف الواحد، فلم أغفل أبدًا، وأنا ألهو وأمرح مع أصدقائي خارج القرية.

– تقضى اليوم بطوله تسير هنا وهناك – كانت جدتى تنهرنى – متى يحين الوقت الذى قد تدرك فيه وتنتبه لما يقال لك ؟

كنت أقضى الكثير من الأمسيات – بعد خروجى من المدرسة – مع عمى الذى كان يقضى وقته مشغولاً بإصلاح أى شىء .

– هذا الصغير يسير خلفك طوال اليوم كأنه ظلك .

– اتركيه فأنا لم يكن عندى مساعد أبداً .

لم أر أى غريب طوال ذلك الوقت ، ثم نزل الثلج ليباعد المسافات ويترك القرية وقد رست تائهة فى السهول ، وبين الحين والآخر يتخذ عمى وخالتى قراراً بالبقاء طوال النهار، وأعود أنا للصعود إليهما بالصينية يصاحبنى توبيخ مُرّ من قبل جدتى .

– هذا يعنى أن كل شىء قد زاد عن حده .

وذات يوم خلال شهر فبراير، وعندما كنت أجرى وراء أحد الأرانب البرية، من تلك التى تفقد توازنها من شدة بياض الجليد، اقترب منى إميليو الراعى ، الذى كان عائداً من الـ Soto بعد أن قام بتسليم بعض الخراف .

– هناك رجلان – قال لى : لا أرتاح لشكلهما ، وكانا يسألان عن شخص ما ، ويمكن أن يكون ذلك هو عمك قيصر ، ولا أظن أنهما من أقربائه أو معارفه.

وجدت العم قيصر فى الحظيرة فأبلغته بما سمعت، لم يكن من الصعب تخمين مغزى حالة القلق التى اعترته فجأة لكنه سرعان ما استعاد ابتسامته.

– هذا يسعدني يا روسيو – قال لي وهو يجذبني من شوشتي : أما الآن فما عليك إلا أن تسدى لي المعروف الأخير ، وهو أكثر سرية مما قبله ، فعليك أن تسرج لي المُهرة وتنتظرني هناك .

لم يخالج النوم جفوني طوال الليل ، وأخذت الرياح تعصف بالجليد ، كان عُواء الرياح قادمًا من الجبل كأنه صيحات طويلة لكائن جائع ، راقبت خيوط الضوء الواهنة وأنا خلف النافذة ، كان الضوء يفتح طريقه ببطء بين الظلال المتجمدة .

لم يترك عمي قيصر شيئًا لأي أحد، ومن جانبي لم أعلق لأحد بشيء عن هذا الهروب السرّي ، كانت آلام عدم عودته من جديد في انتظاري يرافقها الشعور القوي بالمرارة من أنني أصبحت يتيمًا مرة أخرى أكثر من أي وقت مضى.

أصاب المرض خالتي إيريا ، كما رافقت جدتي عندما طُلبت للحضور، خلال الأيام الأولى من شهر مارس، إلى معسكر الـ Soto وهناك استقبلنا النقيب بخليط من البشاشة والكدر.

– ما سأقوله لك يا سيدة أوريليا ليس شيئًا طيبًا – حذّر.

لم تعد الجدة تبكي منذ أيام طويلة مضت وكأنها استسلمت بألم وحنق ، وكرست كل وقتها لتلك الابنة التي يصعب إخراجها مما هي فيه من غمّ وهمّ.

– إن كل البيانات المتوفرة لدينا يا سيدة أوريليا – قال النقيب وهو يراجع محتوى أحد الدوسيهات – تقول بأن ذلك الرجل الذي كان زوج

ابنتك ليس اسمه قيصر فرادى ريجيرال ، بل هو أرسينيو جايتان فلوريث ، ومن الأخبار المتوفرة لدينا عنه خلال السنوات الأخيرة، نستنتج أنه تزوج سبع مرات فى خمس محافظات .

رفعت الجدة رأسها ورمقت النقيب بدمعتين تعبران عن الغيظ تترقرقان من مآقيها.

– ألن تقبضوا عليه ؟ سألت بينما يداها المرتعشتان تبحثان عن المنديل.

– لدينا شكوك قوية – قال النقيب – تقول بأن ذلك الرجل رحل على ظهر سفينة أبحرت من مدينة بيجو Vigo خلال الأسبوع الماضى ، فإذا ما كان الأمر كذلك وتمكن من عبور المحيط فإن الأمر سوف يكون غاية فى الصعوبة .

***

LOURDES ORTIZ

لوردس أورتيث

ولدت في مدريد عام ١٩٤٣ ، وتشغل اليوم منصب مدير المدرسة الملكية العليا لفن الدراما ، كتبت الشعر والمقال والرواية، ومن مؤلفاتها: "الكتابات السياسية لـ لارّا Larra (١٩٦٧) ومن بين رواياتها : الأسرة (١٩٨٩) قبل المعركة (١٩٩٢).

***

مرآة الظل

ذات صباح تاه في المرآة ، كان عليه أن يعثر على نفسه، ذلك أن تلك الليلة كانت ليلة ميلاد المسيح ، وإلا فلن يصل في موعد العشاء ، يتصور ماذا سيكون عليه الوجه العَكِر للعمة مارتا : "إن أسوأ شيء في هذا الفتى هو أنه لا يحترم التقاليد" ، لكن الأمر السيئ في داخل المرآة هو أن الجلبة تصل إلى الداخل، وقد خفت حدتها بما في ذلك وقع الدربكة والترانيم الخاصة بأعياد الميلاد ، وبينما يسير وهو يُبعد عن طريقه نوعًا من خيوط العنكبوت من الزجاج، والتي كانت تلف ذلك الممر الضيق بغلاف كأنه جو هوليود، أو كأنه صحراء جليدية شاسعة ، بدا له أنه يسمع صوتًا كأنه صوت الجليد المتصور أو الإيقاع الرتيب لأغنية "Ande ande, la marimorena, ande, ande..." ، (يا مرحبًا ، يا مرحبًا ،

مرحبًا بمريم السمراء، يا مرحبًا) وأخذت العصبية تنتابه فهذه هى ليلة الاحتفال بمولد المسيح، كما أن داخل تلك المرآة قد تحول إلى دهليز من الصعب الفكاك منه ، كان يرى وجهه منعكسًا على حوائط الدهليز مع بعض التشويه مثلما هو الحال فى مرايا "حارة القط (*) Callejon del Gato كما أخذت تظهر ملامح وجوه أخرى حوله تفتح فمها وتردد هذه العبارات من الأغنية "على بوابة بيت لحم ، هناك نجوم وشمس وقمر.." ربما لو تراجع إلى الوراء .. الغاية تكمن فى البحث عن المخرج ، إلا أنه من ناحية أخرى أخذ يشعر بالراحة ، وهو فى الداخل محاط بتلك الوجوه التى تفتح أفواهها الضخمة ، كما أنه كان عليه أن يعترف أنه لا يكاد يفضل المشاركة فى العشاء الأسرى تلك الليلة ، كان الوضع مختلفًا قبل ذلك ... إذ كان يحضر وهو يرتدى البنطلون القصير ، وهو يضرب على الدربكة بجوار ماكيت ميلاد المسيح ، وكان يمكنه أن يرى الصندوق الكرتونى وهو يحتوى على قطع الحلوى التقليدية (Turroin) وقد تم ترتيبها ترتيبًا جيداً بما فى ذلك الغُرَيِّبة وحلوى عجائن المكسرات ، كان فى الصندوق أربع قطع من كل صنف على الأقل ، كما كان يرى التكشيرة التى عليها مارجاريتا، تلك العجوز الشمطاء ذات الأسنان الكبيرة ، "إنه لظلم بيّن، فعندما يحين وقت تناول الحلوى أكون قد فقدت شهيتي و..." وعلى ذلك بدأت هى بصندوق الأحذية الخاص بها ، وسرعان ما حذا الجميع حذوها : إنه التوزيع العادل للبقرات السمان خلال فترة ما بعد الحرب ، وطوال ما يقرب من

(*) عنوان أحد الإبداعات الأدبية لبايى إنكلان V. Inclan أحد عمالقة الأدب الإسبانى فى بداية القرن العشرين.

شـهـر كنت أفـتش فى الصـندوق الكرتونى حـيث تأخـذ حلوى "التّـورّون" المصنوعة من جوز الهند فى الاصفرار ، أما المصنوعة من صفار البيض فقد كانت تخرج منها زيوت كثيفة تكسو جـدران الصـندوق بالبـقع ، إلا أن الأنواع الجـيـدة من الحلوى أخـذنا نعـهـدها بعـد ذلك ، أى بعـد سنوات ، لكن لم يعـد أحد يقـترب من الصندوق رغم أن به كل شىء : العشـاء الفاخر والوفير الذى يتضمن شرائح الخنزير الملّح والجمبرى وهو يغطى مسطحات الكثير من الصوانى ، بالإضافة إلى أنواع مختلفة من النبيذ تم اختيارها بعناية ، وكانوا يتركونه ليجرّب شيئًا منها، وفى الوقت ذاته يشرب الجميع لدرجة السُكر، كما أن العمة مارتا كانت تفقد توازنها وتبرق عيناها ، وتغنى فى النهاية بنغمة حزينة مرددة أغنيات من أرضـها، بينمـا هن يضـحكن ويرقصن ، وتمتد السـهرة ويسـعد المرء.. ، كنت أراهم من خـلال مـا تـعكسـه المرآة .. سـعـداء يأكلون ويضـحكون ويغنون، كما أخذت نبرات الحوار تأخذ طابع الدعابات غير الرصينة ، وها هى العـمة مـارتا قد توردت وجنتاها، وأخذت تضع أصـبعـها فوق شـفـتيـها وتنظر للأطفـال وتقـول " إن هناك مـلابس منشـورة" وتتـعـالى القـهقهات ، وكُن يدعون أصدقاءهن ... صديق مـخـتلف فى كل عـام ، "لم يكن ليمـضـى اللـيل وحـده" كمـا كانوا يلـعـبون ألعـابًا تسـتخـدم فيـها الملابس ، وكانوا يرقصـون التـانجو ويغنون على إيقـاع مـوسـيقى "البـوليـرو" "bolero" ، أمـا الآن فقـد أخـذ المـشى ينحـرف وأصـبح هـو يافـعًا ، بل رجلاً ، كمـا أن الموسيقى تبعث على النعاس : " لكن ، انظر إلى الأسـماك وهـى تشرب من مـاء النهر .. انظر كيف تشرب .." تنطفئ بعض الشـموع بينمـا هن يواصلن الغناء ، غير أنه لا يكاد يلاحظ وجود الرجـال ، أمـا العشـاء ، الوفيرة أصنافه ، فقد وضع على المائدة مغطيًا

الفـراغـات التى تُحْـدِث الظلال ، وهـذه الأخـيـرة أخـذت تمتـد فـى الوقت الراهن إلى ذلك الممشَى الزجاجى ، كأنها أشباح تحضـر حفل الأكواب المكسرة والأحزان ، "ليالى عيد ميلاد المسيح تبعث على الكآبة".

كـانت تقـول ذلك العـمـة مـارتا يرافقـهـا هؤلاء الذين لا يمكنهم أن يكونوا، ويأخذ الجميع فى تذكر طرائف الأيام الخوالى : كانت تفعل ، وكـان يقـول ... هل تذكرون عندمـا .. أخـذ المـمـشى الذى لا نهـايـة له يضيق ، كان يعرف أن عليه أن يهرب ، ذلك أن العمة مارتا لن تغفر له ذلك إذا لم يحضر حفل العشاء ، لم يعد هناك "ماكيت" بل هناك شـجرة يقل حجمها كل عام وكأنها مصنوعة من البلاستيك ، أصـبـحت شـجرة بدون مـلامح خـاصـة ، حيث الكرات الملونة وأضـواؤها المتـقطعـة ، كن يواصلن الغناء من قلوبهن ، وبصوت أعلى من ذى قبل ، وتكثر النـغمات فى أصواتهن ، كما أن العمة مـارتا تحرك رأسـها: "كانت أمـى تقول: البنات يزدن العدد أما الأولاد فـينقـصـونه ... هناك أسـر جـديدة ، وكل واحدة تحـتفل بليلة عيد الميـلاد"، أمـا العشـاء ، الكثيرة أطباقه ، فـقد أصبح لا شىء ، وخرج عن إطار الزمن ولم يعد كما كان .

ها هى لاورا فى المرآة بجمـالها وحـيويتـهـا تقطب جبينهـا وتبـعد نفسـها عن يد خيرمـان وتؤكد أن العشاء الفاخر شيء آخر : أطبـاق جديدة ومطبخ جديد ورقة فى وضـع الطعام فى الأطباق.. ، والكثير من الزخرف ، أخذ الممشى الزجاجى يضيق الآن بشدة، فقد امتلأ بقشر الجـمـبرى الذى تدوسـه الأقدام ، وكـذا بأوراك الرومى وقطع المعـجنات بالمكسرات Mazapan (مرزبان) وبقايا النبـيذ فى كل الأكواب التى " لم يشربها أحد " ... ونحن لن نذهب ولن نعود مرة أخرى ، كنت أعرف أنه إذا ما استمر بى الحال هكذا وأنا فى الداخل فسوف أبلى ، وكل ما فى

الأمر هو بذل جهد ، وكسر حالة السعادة هذه ، والهروب من النافذة ومن الظلال ، أغمض عينيه وقبض كفه ، وفى لحظة واحدة وجد نفسه فى الحمام وهو يحمل ماكينة الحلاقة فى يده ورأى وجهه وقد كان عليه طبقة من الصابون ، وعندما بدأ يصفّر مترنمًا بأغنية "يا مرحبًا، يا مرحبًا، يا مرحبًا" أدرك أن كل هؤلاء الذين لم يحضروا كانوا يصفرون معه، ثُم نما فجأة .

***

J. M. MILLAS

خوان خوسيه مياس

ولد فى فالنسية عام ١٩٤٦، يعيش فى الوقت الحاضر فى مدريد ، نشر له العديد من الروايات منها "رؤية الغريق" ٧٧٩١ - البستان الخاوى (١٩٨١) الورقة المبللة (١٩٨٣) ... كما نشرت له مجموعة قصصية بعنوان "ربيع كله حداد" وقصص أخرى (١٩٩٢) .

***

ربيع كله حداد

توفى عنها زوجها خلال الربيع، وقد غذّى ذلك الموت هروبًا يبدو أنه كان يحدث فى أعماقها، وأحيانًا ما يظهر فى صورة الإحساس بالسعادة، وأحيانًا أخرى بالتعاسة .

كان اسمها إيلينا Elena ، إيلينا جراندى (*) لكنها كانت صغيرة الحجم وخفيفة كأنها تنهيدة ، وربما لم يترك النضج ومرور السنين بصماتها الضخمة على جسدها.

(*) grande (كبير).

ورغم أنها تبلغ من العمر ثلاثة وأربعين عامًا فإنها كانت تحتفظ بملامح فتاة شابة وتحاول أن تحافظ على تلك الملامح ليلاً ، أمام نفس المرآة التى شهدت فيها كيف أخذ الشباب يعد عدته للرحيل ، "نحن معشر النساء تظهر علينا علامات الشيخوخة من خلال الشفاه"، قالت ذلك لنفسها يوم جنازة زوجها، عندما عادت إلى منزلها، وقد تحررت من ثقل الموت ، لكنها كانت تشعر بوطأة عقدة لا تكاد تصل إلى حد الضيق ، إلا أنها تلازمها كأختها الصغرى ، وعندما خلدت إلى سريرها – وقد تحررت من الأقرباء والأصدقاء الذين يعبرون من خلال نظراتهم عن خوفهم من تركها وحدها – أدركت أن تلك العقدة قد لا تختفى أبدًا ، أو تنزاح عن صدرها ، وربما كان عليها أن تتعود على التعايش معها ، مثلما كان الآخرون معتادين على عضو تعويضى أو جسم صناعى تم وضعه فى الأحشاء ويقوم بمهمة مراقبة المراحل المختلفة لنهايتها ، هذه الكتلة التى تقارنها هى بالعقدة، لم تكن فى واقع الأمر إلا انعكاسًا لأمر يقينى : يقين الموت الذى ورثته عن زوجها، بالإضافة إلى باقى الميراث من المنزل والمعاش والسيارة والأسهم والرغبة فى الحياة، التى تزداد قوة بنفس درجة الإحساس بوجود هذا الورم الذى أخذ شكل العقدة .

ابتسمت وهى تحملق فى السقف ، وتمسك بين أسنانها أحد أطراف الملاءة – مثلما كانت تفعل فى طفولتها – وتفكر فى أن الأمان الذى تشعر به، والمتمثل فى أنها سوف تموت لم يكن إلا نوعًا من الحمل الغريب، وهو حمل يستمر لفترة غير معروفة لـ (ثلاثين عامًا أو خمسة وثلاثين على أفضل حال) وأنها سوف تلد جثة ، إلا أنها قد لا تتمكن من رؤيتها ، وبدا لها فى هذا المقام أنها تمكنت من أن تكون شبيهة بالآخرين ، فقد كانت إيلينا تعتقد حتى ذلك الحين، أن الموت لم يكن

إلا شيئًا يحدث للآخرين ، وبالنسبة لها فعليه أن يرتب لها الأمر بطريقة مختلفة .

لم تنم فى تلك الليلة الأولى ، لكنها نهضت وكأنها قد ارتاحت، ومستعدة من فجر أول يوم للسير على روتين جديد، تشعر به بطريقة غامضة كأنه شكل من أشكال السعادة القائم على أساس أنها أصبحت فى نهاية المطاف حرة ووحيدة .

يا له من نجاح - فكرت - وهو تمكنّها من المقاومة طوال سنوات عديدة أمام الرغبة التى كان يعبر عنها زوجها فى إنجاب الأولاد ، وهو أمر لم تكن تريده على الإطلاق ، يا لى من إمرأة غريبة - فكرت - فكل النساء ترغبن فى أن يكون لهن أبناء فى مرحلة من مراحل حياتهن .

خرجت من الحمام ونظرت إلى نفسها فى المرآة وهى عارية ، ها هما ثدياها لم يعتريهما الترهّل ، وربما كان ذلك بسبب صغر حجمها ، لكن رغم صغر الثدى فإن الحلمتين كانتا قويتين سواء فى الشكل أو اللون ، كانتا من القوة بحيث تجعلان الرجال يصابون بالجنون ، أما كتفاها فكانا متهدّلين بعض الشىء وربما لهذا السبب يمكن أن تلمح بقايا فترة الصبا التى تولد فى المثلث المكون من العيون والأنف ثم يسقط بنعومة متجهًا إلى البطن ، مستودع الكثير من الأمور الغائبة المرغوبة ، عندئذ صعدت على كرسى من الخشب وأخذت تتأمل صورة ساقيها والعانة التى تكسو مساحة ضخمة ، تشعر بالفخار والزهو لغزارة الشعر، رغم أنها كانت تخجل منها فى الماضى ، فقد هدتها خبرتها مع الرجال إلى القبول بها عن سعادة .

تحاشت القيام بالالتفاف لتشهد عَجُزها، ذلك أنها لم تكن أبداً راضية عن هذا الجزء من جسدها، وبدا لها من غير المناسب التأكد من ذلك الإحساس هذا اليوم .

نزلت من على الكرسى وأخذت تعبث بشعر رأسها وتغمغم "الجسد ، الجسد هو الشيء الوحيد الذى نملكه، أما الذكاء والروح فهما نتاج نظرات الآخرين".

التقطت فرشاة الأسنان بطريقة آلية، ووضعت فوقها شيئًا من المعجون ، وعندما أدخلتها فى فمها شعرت بشىء لم يحدث لها من قبل ، نظرت إلى الفرشاة فأدركت أنها الخاصة بزوجها ، وعندئذ شعرت بأنها كسيرة الجناح ، وبكت وهى مستندة إلى حافة الحوض ، كان بكاءً فيه عنف عاطفى لم تستطع أن تعيشه خلال الأيام السابقة ، سواء كانت أمام جثة زوجها أو أمام الوجوه التى تعلوها التعاسة، من الأهل أو الأصدقاء ، فربما كان هؤلاء ينتظرون هذا النوع من الفضفضة لكنها لم تكن قادرة إلا على تقديم صورة ظاهرية له .

وعندما انتهى النحيب غطت جسدها بروب الحمام ، وعادت إلى حجرة النوم وانزوت فى أحد أركان السرير وأخذت تحملق بناظريها فى المرآة الضخمة للتسريحة، وهى تنتظر أن يتولد قرار فى داخلها ، أخذت أشعة الشمس تدخل أحد أركان الغرفة وكأنها مصدر ضوء مسطّح تتوافر فيه القدرة على أن يعكس جزءاً من الضوء، بدون حجم، تسبح فيه جزئيات صغيرة من مادة، وسرعان ما توافقت معها إيلينا ولو لبرهة ، ثم أخذت جهاز التليفون من على الكومودينو واتصلت بوالدتها.

– يا ابنتي – سمعت هذه الكلمات الآتية من الجانب الآخر بعد أن عرفت صوتها – لم أتصل بك حتى هذه اللحظة خوفًا من إيقاظك ، غير أننا قلقون جداً عليك لدرجة ..

– أنا بخير يا أمي، أنا بخير، انظرى ، سوف أقضى اليوم خارج المنزل، فعليّ القيام بكثير من الالتزامات، وأريد أن أطلب منكم معروفًا .

– ماذا تحتاجين ؟

– أن تأتى مع الشغّالة أو مع من تريدين وتنتهزين فرصة بقائى خارج المنزل لتأخذا متعلقات لويس .

فقالت الأم معترضة – لكن يجب أن تكونى حاضرة لنعرف ما الذى تريدين الاحتفاظ به.

– لا أريد الاحتفاظ بشىء فى هذه اللحظة يا أمى – أجابت إيلينا بنبرة تنم عن فقدان الصبر والتضرع – أريد أن يأخذ أى واحد حُلله وماكينة حلاقته وأحذيته و ... فرشاة أسنانه . كل شىء .

– لكن حماتك سوف تريد الاحتفاظ ببعض المتعلقات .

– تحدثى أنتِ معها أعطها ما تريد ، أما باقى الأشياء فيمكن لك الإلقاء بها أو حفظها فى إحدى الخزانات .

– حسن يا ابنتى ، لا تنزعجى ، يجب أن تكونى هادئة، تناولى الحبوب التى أعطاها لك والدك، أما أنا .. فأقول لك كل هذا، ربما لن يكون من المفترض أن تُظهرى موقفًا فيه جفاء شديد، فأنت تعرفين أنه لم يتم تشريح جثة لويس، فالطبيب الذى كان يرعاه هو صديق لوالدك .. لكن .

انتقلت حزمة الضوء المسطّحة إلى التسريحة وبدا أنها تنغرس فى المرآة كأنها سكين ، هذه المرآة شهدت السنين وهى تذهب بشباب إيلينا ، العوالق تهيم من مكان إلى آخر وكأنها تبحث عن مخرج لها ، أما هى فكانت تنصت إلى تحذيرات والدتها، وتعرف أن ذلك هو الثمن الذى عليها أن تدفعه مقابل عدم قيامها بالمهام ذات الطبيعة العملية ، فهى أمور لم تكن تروق لها كثيراً.

شعرت بقوة غريبة عندما وضعت السماعة وعزت ذلك إلى أنها جد مختلفة ، جد مختلفة عن والدتها وعن باقى النساء اللاتى ارتبطت بهن طوال حياتها ، إذن أسهمت المكالمة التليفونية القصيرة لتأكيد واقع - هو اختلافها عن غيرها - ربما لم تكن مسئولة عنه، غير أنها لم تكن مستعدة للتنازل عنه .

بدت لها مظاهر الربيع كثيرة جداً ، عندما خرجت إلى الشارع ، كانت تعيش فى أحد الأحياء الراقية الذى يعج بالكثير من الأشجار والتغيرات المناخية ، هو حىّ يبدو وكأن فصول العام تتوقف عنده لتقوم بعملها، وإحداث تأثيرها بشكل خاص بالمقارنة بمناطق أخرى قاحلة فى المدينة حيث لا نكاد نلحظ قسمات الربيع ، وبعد ذلك يهل الصيف - فكرت - وسوف نتأمل الخريف قبل أن ندخل من بوابات منزلنا الحقيقى : الشتاء ، وسوف أكون وحيدة ومُجرّبة ، وحيدة وحرّة، وحيدة وسعيدة أو تعيسة ، لكننى وحيدة وحيدة وحيدة ... نطقت كلمة "وحيدة" مرات عديدة لدرجة أنها كوّنت بها سلسلة من الأصوات فقدت معناها ، وبعد ذلك عادت إلى البوابة الرئيسية ، وكأنها نسيت شيئًا ونزلت فى المصعد واتجهت إلى موقف السيارات ، غمغم الرجل العجوز المكلف بالحفاظ على السيارات ببعض كلمات العزاء ، اقتربت إيلينا من السيارة الخاصة

بزوجـها ، وأخـذت تتـأملها عـدة لحظات بشـوق وحنين، كـان يمكن لأى شـخص غير ذلك الرجل العـجوز أن يلاحظهمـا ، كانت سيارة من النوع الجـيـد مـثل باقى الأشـيـاء التى امـتلكاها ، بما فى ذلك الحب ، فـى السيارة ، مارسا بعض العواطف المجنونة ، ملأت عليها حياتهما فى فترة من الفـترات ، كانت إيلينا تـعرف تلك السـيارة تمامًـا ، كما تعرف غرفتها ، فمن خلال تلك النوافذ كانا يتأملان المشـهد العام والشوارع والمدن ، كمـا عـاشـا بداخلها لحظات مـتـعـة لا تعـوّض ، إنها لحـظات جـنون لا تتكرر ، كـان جسـدها أثناءهـا يتـأقلم على المسـاحة الموجـودة وعلى مطالب لويس الغـريبة، وذلك للوصـول إلى أقصى حد من المتـعة ، وعندمـا كـانت تصلح من هندامـهـا وتفـتح عـينيـها بعض الشىء وجـدت المفـاجأة فى الخـارج: منظر الجليد والحـائط المتسخ للجـراج ، وواجـهـة كاتدرائية ، وأمطارًا رعدية .. كانت السـيارة عبارة عن فقاعة واقية ، مقاعدها من الجلد ، أما السجائر فكانت فى متناول يدها ، كانت تطوف بالسيارة فى العالم والحياة مع هنيهات تخصص لمتعة الحب .

– غمغم الرجل العجوز وهو يقف خلفها : إنها سيارة جيدة .

– أريد أن تتولى سيادتك أمر بيعها بـأسرع وقـت ، أما الثـمن فلا يهم كثيـرًا ، وعلى كل حـال سـوف أعطيك عشـرة بالمائة من السـعر الذى تحصل عليه .

كبح العـجوز شعوره بالطمع، ثم عادت إيلينا إلى الشـارع من جديد حيث أخذت تاكسى وتوجهت إلى وسط المدينة ، لقد حـجزت مـوعدًا عند كوافير مـختلف عن ذلك الذى كانت هـى زبونته ، ورغم أن الموعد لم يحن بعـد ، فـقـد قـررت قـضـاء الوقت المتـبـقى بالتـسكع ومـشـاهدة فـتـرينات

العرض حتى تشعر أنها حرة تملك قياد نفسها وقياد الشوارع، تملك حياتها رغم أنها قد تكون حياة كئيبة إلا أنها حياة تخصها هى أولاً وأخيراً ، وبعيدة عن احتياجات الآخرين وعن احتياجاتها هى .

جرّبت أنماطًا مختلفة من السير، وكذا أنماطًا أخرى من التحرك داخل المحلات، وأخذت تتدرب على شخصية جديدة: كانت فى لحظة ميلاد، كانت تلد نفسها ورغم أنه لم تكن هناك مُتع ملحوظة فى هذا المخاض فإنها تصورت أن المسألة لا يكمن جوهرها فى هذه النقطة بل فى مجرد ولادتها لنفسها ورؤيتها لنفسها وهى تولد .

لاحظت بعد فترة قصيرة أن بعض المارة يحدقون ببصرهم فيها بشكل يتجاوز حدود الحياء وكأنها كانت تشد الانتباه لشىء ما ، توقفت أمام إحدى الفترينات وراقبت وجهها الذى تراكمت عليه متاعب الليالى الماضية إلى جوار المريض ، بدا لها وجه فى حالة سيئة، لكن يمكن استعادة حيويته ببعض الراحة وبعض المساحيق والكريمات الضرورية ، لمست شفتيها التى لم يكن عليها أى من الدهانات ، وفكرت مرة أخرى فى أن الهرِم يدخل من خلال الشفاه ، وبعد ذلك لاحظت عينيها والهالة المرتسمة حولها ذات اللون الرمادى ، كانت المنطقة الخاصة بالعينين ملتهبة بسبب البكاء ، ومن يرونها يقولون عنها إنها امرأة كانت تبكى منذ وقت قصير، وهى امرأة حسنة الملبس لكن وجهها يحمل علامات الإرهاق .

دخلت أحد محلات بيع العطور واشترت نظارة شمس ، لم تكن نظارة من النوع الشعبى ، بل كانت من أفضل الماركات ، كما أنها مناسبة لوجهها، جرّبتها أكثر من مرة وطلبت من البائع أن يُسدى نصحه لها .

فقال :

– تبدين سيادتك كممثلة ، ممثلة تحاول التخفى .

– أبدو كممثلة – كررت – أى نوع من الممثلات؟

أجاب الموظف وهو يشعر بشىء من المفاجأة لهذه الإجابة – لست أدرى – ممثلة قديمة .

فسألت :

– مثل جريتا جاربو مثلاً ؟

– فقال الموظف وكأنه شعر بنوع من الإلهام – هو ذلك ، سيادتك تذكرينى بصورة رأيتها لجريتا جاربو فى "سوبر ماركت" ، كانت تضع نظارة مشابهة على عينيها .

شعرت إيلينا بالمفاجأة عندما سمعت سعر السلعة، فحتى هذه اللحظة لم تكن قد اشترت هذه السلعة الكمالية، وكانت تجهل أن التصميم وقلة الوحدات المُصنَّعة قد تجعلها غالية إلى ذلك الحد ، وعلى أى الأحوال، قامت بسداد الثمن ، ووضعت النظارة على عينيها، وخرجت للشارع من جديد، وأصبحت مختلفة الآن عن ذى قبل، فكل شىء ، سواء ضوء الشمس والمنظور الجانبى للأشياء وحركة المرور ، بدا أقل حدّة ، أما هى فكانت تتأمل بعضٍ جوانب ذلك الواقع ، الذى تضاءل من منظور جانب آخر، أى من خلال النظارة ، ابتسمت وهى تقف أمام إحدى الفترينات ، كانت الحياة غريبة ، فلقد كانت إيلينا لا تثق أبدًا فى الناس الذين يضعون النظارات الشمسية على عيونهم إذ تعتبر أن هناك من يريد إخفاء عينيه عن باقى الناس ، وأنه يفتقر إلى الحنكة اللازمة ،

ليخفى نواياه ولكن بطريقة مختلفة ، كانت تحاول هى وزوجها لويس معرفة طبيعة هذا النوع من البشر .

فكانت تقول :

– انظر إلى ذلك ، إن النظارة تساعده حتى يسترق النظر إلى النساء على هواه ، لكن النظارة لا تخفى شيئًا اللهم إلا عينى عصفور.

– يا امرأة – كان لويس يقول معترضًا – هناك من يضع النظارة ليحمى عينيه من الشمس .

– هذه هى مهمة الحواجب .

وصل بها الأمر خلال الصيف الماضى إلى تصنيف كل صداقاتها بناء على هذه النقطة – النظارة – وصنّفت هؤلاء الذين يضعون هذا الحاجز المتحرك فى خانة واحدة أطلقت هى عليها "الآخرون" .

تبتسم الآن وهى تفكر فى أنها أصبحت من هذا الصنف ، جرّبت النظر إلى الشمس بشكل مباشر وتأكدت أن لا أذى قد لحق بها ، شعرت بالجوع فدخلت إحدى الكافتيريات حيث لا يزالون يقدمون طعام الإفطار ، هناك امرأة عجوز إلى جوارها على طاولة البار، تقوم تلك المرأة بغمس العجائن المقلية **Churros** فى فنجان شيكولاتة بحرص ومتعة، لدرجة استلفتت انتباه إيلينا ، وعندما اقتربت من النادل خلعت النظارة وطلبت نفس الشيء ، تحوّل الواقع فجأة إلى واقع فظ ، فالنادل وجهه مليء بالبثور والعجوز لها شنب ، عادت لوضع النظارة من جديد ، فاستعادت الأشياء إيقاعها الهادئ ، نظرت حولها وهى تشعر ببعض الخجل لجوعها، وبالتحديد رغبتها فى تناول المعجنات المقلية مع

الشيكولاتة ، بينما لم يمض على وفاة زوجها لويس إلا وقت قصير ، لم تر وجها من الوجوه التى تعرفها.

عاودت العجوز النظر إليها من جديد، كما ظهر على وجه إيلينا ملمح المتعة عندما وضعت فى فمها أول لقمة.

– هذا المكان هو أفضل الأماكن التى تقدم هذه المأكولات.

– معذرة ؟ أجابت إيلينا وهى تميل نحو العجوز وتكبح جماح الدافع الغريزى فى خلع النظارة لتتحدث معها.

– هذا المكان يقدم أفضل عجائن مقلية، وكذا السكر الجلاسيه وكل شىء، أما الشيكولاته فتُعَد يدويًا وليس عن طريق الماكينة كما يحدث فى العديد من الكافتيريات .

فقالت إيلينا : آه .

انقضت بضع لحظات، ثم عادت العجوز للكلام :

– يسعدنى كثيراً أن أرى سيادتك تستمتعين بنفس الشىء الذى أتناوله ، لى ابنة فى مثل سنك ، لكنها لا تدرك أن أهم شىء فى حياتى هى هذه اللحظة ، أسعد كثيراً بتناول العجائن المقلية مع الشيكولاتة .

أبدت إيلينا اهتمامها بتلك المتعة، وخففت بعض الشىء من نبرات ملامحها حتى تثق العجوز، ورغم ذلك لم تستطع أن تخلع النظارة حتى تظهر عيناها.

– الشباب بصفة عامة – أضافت العجوز – يظنون أننا معشر العجائز ليست لنا متع، وأن الشىء الذى يليق بنا هو الموت ، وانتهى كل شىء ، لكننى أعيش وأنا أفكر فى هذه اللحظة ، فالعجائن المقلية

والاستماع إلى الراديو هما سلواى ، فعندما لا أستمع إلى الراديو أتناول العجائن المقلية ، والعكس صحيح، يفكر الناس أن أفضل شيء هو ما يستمتعون هم به لكن هناك متع أخرى .

رمقت إيلينا العجوز من خلال نظارتها، وفكرت لحظة فى الطريقة التى تطيل بها الحوار ، بدا أن تلك المرأة لديها مفاتيح هامة عن الحياة ، وربما كانت الحياة - من منظور النضج - ليست إلا الحصول على المتع البسيطة، التى يسهل الوصول إليها ، ومع الرعاية ومرور الزمن يمكن أن تشكل تلك المتع محور وجود له مضمونه ، وقالت:

- هل تأتين سيادتك إلى هنا كل يوم ؟

- كم كنت أود ذلك - ردت العجوز : كنت أفعل ذلك عندما كان زوجى حيًا ، كنا نأتى إلى هنا كل يوم فى الصباح والمساء، أما الآن فلا أستطيع المجيء إلى هنا إلا ثلاثة أيام أسبوعيًا، لأنى أقبض معاشًا ضئيلاً ، ومع ذلك فإننى أعيش وأنا أفكر فى هذه الأيام الثلاثة وفى هذه اللحظة التى أدخل فيها الكافتيريا وأطلب العجائن المقلية مع الشيكولاتة ، إنك تفهمين ؟ .

- أعتقد ذلك - أجابت إيلينا حائرة .

- لكن ابنتى لا تفهمنى .

- أنا أيضًا أرملة - قالت إيلينا وهى تعتبر أن هذا الاعتراف هو نوع من التعبير عن الصدق الذى يكسر القيود ، كانت هذه هى أول مرة وهى تستخدم هذا التعبير متحدثة عن نفسها - أرملة - واعتبرت الأمر وكأنها تولد بسرعة كبيرة .

- أنا أرملة - كررت ذلك وفكرت فى معنى هذه الكلمة الغامضة : امرأة مات عنها زوجها ، هى امرأة وجدت نفسها وحيدة فجأة رغم أنها تستمتع بالمزايا التى نجمت بسبب جثة زوج ميسور الحال: التأمين على الحياة، والمعاش المرتفع والمنزل والمدخرات والأملاك المختلفة ، "أنا أرملة ميسورة الحال وشابة، أنا أرملة يمكن أن تنفق الكثير من الأموال فى شراء نظارة شمسية".

- إنه لأمر مؤسف - قالت العجوز وهى تجهز على الشيكولاتة - لابد وأن سيادتك أرملة منذ وقت قصير .

- منذ يومين - أجابت إيلينا وهى تشعر بالوحشة وقد اعترتها الرغبة في البكاء وفكرت أن مرحلة النضج قد بدأت لديها كأرملة فى الوقت الذى أخذ فيه جسد لويس ينضج كجثة ، وأضافت : يا له من أمر غريب .

فقالت العجوز:

- أرينى عينيك من فضلك .

نزعت إيلينا النظارة دون حذر ، فظهرت العينان المتعبتان لكنهما غير دامعتين .

- لقد بكيتا كثيراً ، هاتين اللؤلؤتين - أضافت العجوز - لكن عليك أن تأكلى يا ابنتى ولا تخجلى من تناول الطعام .

وضعت إيلينا النظارة على عينيها من جديد وقطّبت جبينها ، لم يرق لها أن تحادثها العجوز هكذا بدون كلفة ، للتعبير عن حزنها "إنها تريد أن أدعوها إلى الإفطار" فكرت .

دفعت قيمة ما تناولته وخرجت إلى الشارع ، لم تشأ أن تباعد عن خاطرها فكرة أنها تضع نظارة شمسية على عينيها ، كان يبدو أن هذا الشيء هو الذى سيغير حياتها ، سوف أضع النظارة أيضًا فى المساء وليلاً - قالت لنفسها - وسوف أشاهد التليفزيون وأنا أضعها.

اعترفت فى محل الكوافير بأنها أرملة ، لكن ذلك كان بنبرة أخرى ، كانت تتوفر لدى الكوافير الذى أخذ يعنى بها في المحل ، القدرة على التقليل من شأن هذه الجوانب القاتمة ، واستحث إيلينا على الصمود فى هذا الموقع مدة طويلة.

فقال :

- الأرملة الشابة توحى بأشياء كثيرة.

- أى نوع من الأشياء؟ سألت إيلينا وكأنها تتسلى .

فرد الكوافير :

- أشياء سوداء ، لها أبعادها وجوانبها التى لم تكتشف بعد ، هذا إذا ما سمحت لى التعبير بهذه الطريقة .

- لقد عبرت سيادتك بشكل جيد - أجابت إيلينا.

- وملابس داخلية غامقة، ربما تميل بعض الشىء للحمرة، الأمر الذى يؤكد وجود الحزن، وهذا يمكن أن يكون مثيرًا من منظور معين .

- إن سيادتك لشاعر - قالت إيلينا وهى تبتسم ابتسامة عريضة ، كانت تشعر براحة شديدة .

- أنا فنان - اختتم الكوافير - أما الآن فما على سيادتك إلى أن تخلعى النظارة .

أطاعت إيلينا، لكن الواقع لم يعد عدوانيًا ، بدا المكان وكأنه دار لبيع الدُمى أو كأنه رَحِم ، وفيه يوحى كل شىء بالهدوء سواء ألوان الحوائط أو الزى النظيف الذى يرتديه الموظفون ، وبينما يجرى لها مساجًا رائعًا فى الرأس تذكرت ملابسها الداخلية، وأنها كانت تقوم بشرائها من المحلات المخصصة للشباب نظرًا لصغر حجم جسدها ، وتذكرت أنها اشترت طقمًا أسود اللون ، لترتديه أثناء تشييع جنازة لويس ، ويمكن لشابة فى الخامسة عشرة من عمرها أن ترتدى هذا الطقم ، تشعر أنها شديدة الجاذبية ، أخذت مزاجيتها التى انبسطت أساريرها تفكر فى الجنس، لكنها تعرف أن ذلك سابق لأوانه ، هناك أصابع ناعمة كانت تلامس وجهها بطريقة منهجية ، أما رائحة الدهانات فقد أدخلت عليها شعورًا بالعذوبة لدرجة أنها مالت إلى النعاس ، لكنها لم تَنَم لأنها تريد أن تشعر بمتعة أن أحدًا يلمسها ، وأنها تدفع ثمن ذلك ، وعندئذ طلبت أن يشمل التدليك يديها .

" على أن أواجه خورخى" فكرت وهى مغمضة العينين : "والأفضل أن يتم ذلك اليوم بدلاً من الغد" خورخى عشيقها ، وقد كانت لها به علاقة قوية استمرت لفترة طويلة تحولت إلى "العشق" ، أدت علاقتها به إلى دعم زيجتها بلويس ، كان يروق لها أن تتنقل بين هذا وذاك ، وفكرت فى أن الاحتفاظ بعلاقتها بالاثنين فى وقت واحد كان مجالاً لتجربة تنفع كلا الطرفين ، ومع ذلك زادت وطأة ثقل خورخى فى حياتها خلال الآونة الأخيرة الأمر الذى أثار فى إيلينا التخيلات الأولى حول موت لويس وكأن وجوده أخذ يشكل عقبة فى طريق علاقتها بخورخى ، أما الآن – ولم تكد تمضى حوالى ثمان وأربعين ساعة على موت لويس – فإن علاقتها بخورجى فقدت أية أهمية ، ومن الأفضل مواجهته بذلك – فكرت .

قال الكوافير وهو يبتسم ابتسامة رضا : ها نحن قد انتهينا.

عادت إيلينا من هذا الحلم الذى بقيت فيه وأخذت تنظر فى المرآة - أصبحت امرأة أخرى، وأخيراً، أصبحت امرأة أخرى ، فقد تم تقصير شعرها - الذى لم تقصّره منذ نعومة أظافرها ، لقد أصبح شعرها قصيراً جداً على الجوانب وعلى مؤخرة الرأس ، أما على الجبهة فكانت هناك خُصلة تنسدل وكأنها طبيعية ، هذه الخصلة تعطى انطباعاً معيناً ، فكأنها لفتى قلق ، شعرت هى أنها مثله ، أما الوجه فقد زالت عنه ملامح الإرهاق بفضل التدليك والدهانات ، كما أن عينيها زالت عنهما أعراض البكاء بفضل قطرة معينة .. اقتربت من المرآة .. قالت :

- الشفاه - يلاحظ مرور السنين على شفتى .

- يجب أن تعتنى سيادتك بهما - أجاب الكوافير - وأعطاها دهاناً له "أثر السحر" لتستعمله ليلاً .

- كل ليلة - أكد - وألا يخطر ببال سيادتك أخذ حمام شمسى دون حمايتهما بورق السجائر، تذكرى ذلك ، وعندما تأتين فى المرة القادمة لزيارتنا سيكون عمرك قد نقص ثلاثة أعوام إلى الوراء ، آه ، وألا تضعى مساحيق حتى يوم غد أو بعد غد ، من الأجدر أن يأخذ الجلد متنفساً كافياً من الوقت .

وضعت إيلينا النظارة الشمسية وعادت للنظر فى المرآة ، هى امرأة أخرى ، طلبت جهاز التليفون واتصلت بمكتب خورخى واتفقت معه على تناول طعام الغداء .

لم يتعرف خورخى على إيلينا حتى أشارت هى إليه وهى جالسة على المائدة ، كان المطعم مليئًا برجال الأعمال لكن إدارة المطعم خصصت لهما ركنًا بعيداً بعض الشىء .

– ماذا فعلت بنفسك ؟ سأل وهو يهم بالجلوس .

– لقد تغيرت ، فأنا امرأة أخرى ، ردت إيلينا بهدوء يثير القلق .

الارتباك والحيرة يبدوان على خورخى ، غمغم ببعض الكلمات القليلة التى حاول من خلالها التعبير عن عزائه لوفاة لويس ورجاها أن تخلع النظارة .

– لا ، لا – قالت – عيناى محمرتان من كثرة البكاء .

كان خورخى مثيراً للغرابة ، فقد لاحظت إيلينا أن خورخى كان خائفًا من الموقف الجديد ، لقد فكر فى أن الموقف الجديد الذى هى عليه يمكن أن يغير علاقتهما، يخشى إذن أن تجبره إيلينا على التخلى عن زوجته ، وهذا الخوف دفعه إلى ترديد بعض العبارات التى بدت لإيلينا – من موقعها – أمراً مسليًا ، ومع ذلك فعندما أدرك أنها تحاول أن تمحو أثره من حياتها بدلاً من الالتصاق به غيّر موقفه ، أدى التباعد الذى أبدته إيلينا إلى إثارة رغبته بشكل كبير.

– هل تريدين أن نذهب إلى أحد الفنادق؟ سألها وهما يتناولان الحلو.

– لا أريد أن نذهب إلى أى مكان يا خورخى – هل نسيت أن زوجى قد توفى منذ وقت قصير.

– هذا لا يبدو – أجاب بقسوة وهو يراقب التسريحة الجديدة لإيلينا – انزعى النظارة من فضلك .

خلعت إيلينا النظارة بشىء من التعبير عن فقدان صبرها ووضعتها على المائدة ، إلا أنه لم يكن تصرفًا ميكانيكيًا، فقد راقبت كيف أن ذراعها يرتفع ثم شعرت بعد ذلك بملامسة الذراعين ومدى ثقل النظارات الشمسية – سمعت أيضًا النقرة الناعمة وهى تضعها على مفرش المائدة .

ثم قالت :

– أعطنى سيجارة .

فأجاب :

– عيناك غير محتقنتين .

– لقد وضعوا لى قطرة فى محل الكوافير ، أعطنى سيجارة من فضلك .

دخّنا فى صمت وكأنهما فى انتظار أن يتخذ الموقف مسارًا نهائيًا ومرضيًا لكليهما ، كانت إيلينا تفكر ، فى واقع الأمر، فى النظارة – وفى الفائدة الجديدة التى اكتشفتها حديثًا من خلالها: خلعها أو وضعها فى لحظات معينة أثناء الحوار ، وكذلك اللعب بذراعيها وهى موضوعة على المائدة ، خمنت أنها قد اكتشفت لغة جديدة من خلال هذه الحركات ، وقررت أن يدخل الروتين فى علاقتها الجديدة مع هذا الشىء .

لابد وأن خورخى لاحظ أن اهتمام إيلينا لم يكن منصبًا عليه ، قال :

– لم تستخدمى نظارات شمس من قبل ذلك ، وها هى الآن تبدو كأنها أهم شىء فى حياتك .

– إنها أول شيء اكتشفته بنفسي – أجابت بإيماءة فيها شيء من اللامبالاة .

– انظري يا إيلينا – أضاف – من الطبيعي أن تكوني عصبية وغريبة في تصرفاتك ، فلقد تعرضت لخسارة هامة ، وقضيت أيامًا طويلة إلى جوار إنسان يحتضر ، أعرف أن ذلك أمر قاس ، فقد تحملت احتضار والدي وقد أثر ذلك فيّ تأثيرًا كبيرًا ، إنك لا تدرين مدى أسفي لعدم وقوفي إلى جانبك في هذه اللحظات العصيبة ، أما الآن فيمكنني مساعدتك ، ولو شئت ننتظر عدة أيام ثم أتصل بك ، وبإمكاني الآن الاتصال بك في أي وقت .

وضعت إيلينا النظارة على عينيها ثم سألت:

– أيمكن أن تتزوجني ؟

– تعرفين أن ذلك غير ممكن – أجاب وقد عاد إليه موقف غير الواثق ، الذي كان يعيشه في البداية – فلم تطرح هذه الإمكانية أبدًا في علاقتنا .

– لكنني الآن أرملة .

– اخلعي النظارة من فضلك.

– لا أريد ذلك، أنا الآن أرملة ، وقد قلت لي ذات مرة إنني إذا ما كنت حرة سوف تترك أسرتك ، وها أنذا على هذا الوضع ، هل ستترك أسرتك ؟

بدت الحيرة على خورخي نظرًا لعدوانية الطرح ، يريد الهرب ويريد البقاء أيضًا وقد أثارته التجديدات التي أدخلتها هذه المرأة ، لاحظت

إيلينا انفعاله ، خلعت نظارتها من جديد وهى تجرّب حركة أخرى ، قالت :

- هل صحيح أن الأرامل توحى بأشياء كثيرة ؟

- ماذا تريدين أن تقولى - سأل .

- انظر - أضافت وهى تريه النظارة الشمسية - إنها نظارة قاتمة كأنها أرملة ، لكن الأذرع عندما تفتح وتغلق تبدوان كأنهما ساقان طويلتان لامرأة ، وعند نهاية الساقين هناك مفاجأة ، وهى مفاجأة ذهبية فى هذه الحالة .

أخذت تفتح ببطء ذراعى النظارة وأظهرت له أن فى آخرها المفصلة المذهّبة التى تربط الأجزاء ببعضها .

- لقد أصبت بالجنون - قال خورخى - ولم يتمكن من إخفاء انفعاله من هذه اللعبة .

- أنا مثل تلك النظارة - قالت - لكن المنطقة الذهبية عندى يصعب الوصول إليها .

- سوف أتصل بك قريباً يا إيلينا .

- لا تفعل ذلك فسوف أخرج من المدينة لبعض الوقت - كذبت عليه .

كان الوداع غريباً وغير متوازن مثله مثل بداية اللقاء، إلا أن إيلينا شعرت بأنها تحرّرت من ذلك العبء الذى لم يعد يثير متعتها .

عندما أخذت التاكسى وعادت إلى المنزل فكرت أنه ربما من المناسب لها أن تسافر إلى الشاطئ لقضاء بعض الوقت ، فوجودها فى

المدينة قد يعرضها لمكالمات غير مناسبة وزيارات لا تحتمل لتقديم العزاء لها ، وكذا ملاحقة الأبوين، وسوف يعمل الجميع على مطاردتها خلال الأيام القادمة لإدخال السعادة عليها، لكنها لا تود أن تكون سعيدة فى هذه اللحظة الراهنة على الأقل ، كانت تريد مراقبة نفسها والنظر إلى نفسها وترى قدرتها على تحمل الوحدة ، وأى جدوى ستعود عليها منها ، كانت تطمح إلى ملاحظة مرور الشهور والحياة وهى تتأمل كل ذلك من خلال نظـــرة مــن وراء الزجاج القاتم وبعيدة عن أشـــواق عنيفة ، ورغبات غير نقية ، وصلات عاطفية كانت تقود دومًا إلى التبعية للآخرين .

توصلت إلى حلّ لبعض المسائل العملية خلال اليومين التاليين، فقامت بالتوقيع على بعض الأوراق وسيطرت على حساباتها المصرفية، وقامت بحجز حجرة فى أحد الفنادق المطلة على البحر المتوسط ، أما السيارة فقد بيعت فى نفس اليوم الذى عرضت فيه للبيع، وبالتالى كلّفت محاميها بتولى عملية نقل الملكية وتركت له المستندات اللازمة بعد أن وقّعتها.

لم تشأ أن ترى السيارة أو تودعها رغم أنه قد بقيت بها متعلقات شخصية خاصة بها هى ولويس ، هذه الأشياء جمعها البواب وحفظها فى صندوق كان مآله حجرة المتروكات فى المنزل .

ودّعت والديها تليفونيًا ، أما والدتها فقد قامت بآخر محاولة لها ، قالت :

– يا ابنتى أنا ووالدك من أنصار أن تدخلى المستشفى حتى تستوعبى كل ما حدث ، وتذكرى أن أزماتك كانت متوافقة دومًا مع فترات توتر غير عادية .

أجابت إيلينا على والدتها بشيء من الجفاء وأشارت إليها إلى أنها لا يغضبها أن ترى ابنتها بعيدة عنـها، إما أن تكـون في المستشـفى أو بعيدة ، فكرت .

– هل عندك حبوب كافية أو أقول لوالدك حتى يرسل لك تذكرة طبية؟ سألت الأم في نهاية الحوار.

– عندي الحبوب يا أمي وهو الشيء الوحيد الذي أعطيتماني إياه طوال حياتي ، لقد ادخرت حبوبًا كثيرة تكفيني حتى نهـاية العمـر ، لا تقلقي .

ظلت شهراً كاملاً على الشاطئ تقيم بالقرب من قرية صغيرة، يعمل أهلها في صيد الأسماك ، وعادة ما تذهب إليها لتناول وجبة خفيفة كل يوم بعد الظهيرة ، حركة السياحة ضعيفة، فنحن في نهاية شهر مايو وبداية يونيو ، وبالتالي كان الهدوء مطلقًا ، مارست إيلينا حياة بسيطة ، فقربها من البحر والحبوب التي وصفها لها والدها ، خفّضا من الضغط ، مما جعلها تنام لساعات طويلة وتستيقظ متأخرة، ودائمًا ما كانت شغوفة بالنظارة القاتمة الموضوعة على الكومودينو ، وأول شيء تفعله في الصباح يتعلق بهذه النظارة ، إذ تضعها حتى وهي ذاهبة إلى الحمام ، وتجعل المياه تتساقط على الشنبر وعلى الزجاج ، ثم تجففها بعد ذلك باستخدام منديل ورقي ، ولا تنزعها عن عينيها طوال النهار اللهم إلا إذا أرادت أن تلعب بها وتمارس بعض الحركات لتغازل نفسها ، وصل بها الأمر إلى استخدام النظارة بسلاسة، سواء كانت تستخدم اليد اليمنى أو اليسرى ، لكن كل يد كان لها معنى مختلف ، فعندما تنزعها باليد اليسرى فهذا يدل على أن حالتها المزاجية ليست على ما يرام ، ورغم أنها تحاول ألا ينتابها الكدر فقد كان مزاجها يتعكر

فى بعض الأمسيات ، فتقاوم ذلك بتناول أحد الأدوية المهدئة التى تذيبها فى كأس كونياك .

تأخذ حمام شمس كل صباح على حمام السباحة فى الفندق ، لم يكن يروق لها النزول إلى الشاطئ ، تفيد من تلك الساعات السابقة على طعام الغداء بالراحة والقراءة ، قرأت بعض الروايات البوليسية التى لم تترك لديها انطباعًا خاصًا ، وأكثر شىء أعجبها قصة قصيرة لمؤلفة إنجليزية ، نصحها بقراءتها موظف محل بيع الكتب فى الفندق ، كانت عبارة عن قصة امرأة تهوى الذهاب إلى الغابة وإغماض عينيها أمام الأشجار وتظل فى سيرها المعتاد ، تأمل أن تختفى الأشجار يومًا ما ، مثلما تفكر النعامة فى أن العدو قد ذهب عندما تضع رأسها فى الرمل ، ومن الطبيعى أن تلك المرأة تقضى حياتها وهى تتخبط فى جذوع الأشجار، وبذلك كان وجهها وجسدها ممتلئين بالرضوض ، ومع ذلك لم تتوقف عن عزمها عن البحث بأن تضيف أنماطًا جديدة من السير ومواقف عقلية جديدة إزاء الغابة ، هذه المواقف تترجم فى جروح جديدة ورضوض ، أخذت كلها تأخذ اللون الغامق الذى عليه لحاء الشجر ، وفى يوم من الأيام تغمض عينيها بكل ما تملك من قوة وتأخذ فى السير بجنون متوجهة إلى مجموعة من أشجار الصنوبر العتيقة ، وفى اللحظة التى تشعر فيها المرأة وتحسب أنها قد قطعت المسافة التى تباعدها عن الصنوبر، ولم تجد أى عقبة ، تواصل جريها دون أن تصطدم بشىء ، ولاحظت أنها لم تصب بأى إرهاق ، فى هذه اللحظة تفتح عينيها وترى أنها دخلت ، فى نهاية المطاف ، إلى فراغ مختلف ملىء بالنور وليس به أشجار ، يمكن لها أن تركض فيه للأبد دون الشعور بالألم أو الإرهاق .

وبعد هذا الوصف بعدة صفحات يلاحظ القارئ أن المرأة قد توفيت إثر اصطدامها بشجرة أثناء ركضها المجنون ، وأن الفراغ الجديد الذى استطاعت الوصول إليه هو الموت ، أدت هذه النهاية إلى شعور إيلينا ببعض الأسى وخيبة الأمل ، لكن هذه القصة القصيرة أعجبتها وأوحت لها ببعض الأفكار تسلت بها أثناء فترة الراحة قبل أن تخلد للنوم .

كانت متعة القراءة تحت شعاع الشمس تجديداً فى حياتها ، لكن لم يكن يخفى عليها أنها تدين فى ذلك للنظارة ، فقد كان زجاجها ممتازاً لدرجة تمكنها من التوجه ببصرها إلى السماء ، فى منتصف النهار ، دون أن تشعر بأى أذى ، كما تحمى شفتيها بورق السجائر مثلما نصحها الكوافير ، وقد تحسنت حالتها بفضل هذه التوصية واستخدام الكريمات .

تخصص فترة ما بعد الظهيرة للذكريات والحلم، تجلس فى شرفة أحد البارات المواجهة للميناء الصغير وتطلب شيئًا من السمك وكوبًا من البيرة، فى هذه الفترات تتذكر الفترة التى كان يحتضر فيها لويس – زوجها – وتكوّن بعض الأحكام التى تعضد موقفها أمام اللحظات التى تسبق الموت ، تبتسم وهى تفكر فى أنها فاجأت الأقرباء والغرباء برباطة جأشها خلال تلك الأيام الصعبة ، فقد ظل لويس فى حالة غيبوبة ثلاثة أيام متواصلة ، قبل أن تفيض روحه ، كانت إيلينا ترى فى هذه اللحظات أن المرض قد فقد هيبته ، فقد كان مرضًا لا ينجم عنه أى ألم ، وقد تحول جسد لويس خلال الأيام السابقة على موته إلى مجرد وعاء تُضخ فيه المستحضرات الطبية التى لم تكن تحدث أى أثر إلا تغييرا فى إيقاع الحشرجة وهو يتنفس ، سيكون عليها أن تنسى تلك الحشرجة ، فما زالت قادرة على أن تشعرها بالذنب ، وأن تزيل من ذاكرتها آخر

لحظات تلك الحشرجة ، فقد كان لديها انطباع بأن تلك هى نوع من التعبير عن الذات ، ووسيلة لقول لا .

والشىء المثير للغرابة أنها عندما تعود لتتذكر تلك الواقعة فإنها تبدأ من النقطة التى أدخل فيها لويس المستشفى، لكن ليس قبل ذلك ، أحيانًا أخرى كانت تتوه ببصرها فى الهواء ، وعندما كانت تتأمل حركة طيور النورس وقد أثارتها عودة المراكب تتذكر السيارة التى بيعت، والتى قضت فيها ساعات سعيدة مع لويس ، وفى هذه الحالات لم تكن تتذكر لويس بل تطوف الأشياء فى مخيلتها ، أى السيارة ، وكأن هذه الأخيرة هى الوسيط بينها وبين المتعة مثلما هو الحال فى النظارة ، فهى وسيط بينها وبين العالم المحيط .

وذات مساء تصورت أنها امرأة تبلغ ثلاثة وأربعين عامًا - بعد أن شربت ثلاثة أكواب من البيرة بزيادة كوبين عن المعتاد - وأنها تعيش فى قرية تطل على شاطئ البحر ، فهى تعنى فى الصباح بشئون المنزل وبالحيوانات التى فى حوزتها ، أما بعد الظهيرة فتذهب إلى البحر لتقوم بصيد السمك ، وتظل على هذه الحال حتى مغيب الشمس ، ثم تعود لتجلس على باب منزلها ، وتقوم بإعداد الخضراوات للعشاء ، وهى ترى أبناء الجيران يمرحون فى الشارع ، وترد تحية المارة الذاهبين والغادين ، كانت الحياة تسير بعيدة عن سرها ، كانت خالدة .

كانت فكرة الخلود ، أو ربما أكواب البيرة (فقد تناولت فى هذا اليوم قرصين زيادة عن الجرعة المعتادة) تحدث فى نفسها بعض الكدر ، الذى تحول إلى عقدة استقرت فى صدرها إلى جوار تلك العقدة التى تنمو بشكل غير محسوس فى داخلها ، والتى هى بذرة نهايتها هى ،

نظرت إلى السماء بغية الاحتماء من هذا الهجوم الضعيف من قبل الكدر وتأملت الحركة غير المنتظمة التى عليها طيور النورس ، لكن الكدر أخذ يكبر ويتحول إلى دوائر تطوف حول المركز فى صدرها ، تصورت نفسها فى هذه اللحظة أنها أحد طيور النورس، وقد ساعدتها النظارة الشمسية تصور هذا الأمر ، فقد شعرت أن وجهها قد اختفى وراء الزجاج بينما تعلو هى - دون أن يلاحظ أحد ما يحدث - حتى تصل إلى ارتفاع شاهق ، ومن هناك تأملت المائدة التى كانت جالسة إليها بدون روح، لكنها تموّه اختفاءها بمساعدة النظارة الشمسية ، "لم يلاحظ أحد شيئًا" - فكرت واستمرت تحوم متجهة نحو مجموعة من طيور النورس كانت على وشك أن تحط على متن مركب صغير ، وعندما اقتربت من الطيور لاحظت أن الكدر لم يختف منها بعد، بل أخذ يتحول إلى شىء آخر ، إنها تعانى الآن من كدر تعيشه طيور النورس، ولم تدر أيهما أسوأ ، لاحظت فى المجموعة أنها كلما زاد اقترابها وجدت حركة رفض يتم التعبير عنها بهزّ الأجنحة بطريقة غريبة ، ولا يحمل أى ترحيب ، ورغم هذا حَطّت على المركب بجوار باقى الطيور، وأخذت تنقر بقايا سمكة، وعندئذ زادت مظاهر عدم الترحيب ، غير أن إيلينا ظلت فى مكانها لترى إلى أى درجة يمكن أن يصل أمر الرفض ، وفى هذه اللحظة تقدم أحد الطيور ونقرها نقرة سريعة أحدثت بها جرحًا فى رقبتها ، فتملكها الغضب الشديد وهجمت على الطير المعتدى ، واستطاعت بنقرتين ماهرتين أن تفقأ عينيه، ثم أمسكت به بين مخلبيها وأخذت بمنقارها تفتح فجوة نحو القلب ، وها هى الآن تلاحظ أن عدوها أكبر منها سنًا بكثير ، كان تأثير الجزء العلوى من المنقار فعالاً : إذ ينفذ بين الريش واللحم وكأنه سكين مخصص لذلك الغرض ، وعندما

شفت غليلها، ابتعدت عن الطائر الذى مات وقد تبعثر ريشه ، وفى هذه اللحظة رأت أن باقى الطيور تهرب من شهوة انتقامها ، كما أنها هى الأخرى طارت وما زال يطاردها ذلك الضيق الذى لا تستطيع السيطرة عليه واتجهت إلى أعلى المائدة التى تتناول عليها طعامها الخفيف ، رأت هيئتها على الحال الذى تركتها عليه ونزلت نحوها بخفة ، وبعد أن سكنت جسدها نحو المركب فشهدت كومة ريش ودم ، وقد علق أحد عمال المطعم وهو قريب منها :

– لم أر فى حياتى عنفًا بهذا الشكل بين اثنين من طيور النورس، ولم يصل الصراع أبدًا إلى حد القتل ، لقد كان أمرًا فظيعًا .

طلبت إيلينا كوب ماء ، زال عنها الضيق .

عادت إلى الفندق فى تلك الليلة وهى تشعر ببعض الترنّح، فحاولت مشاهدة التليفزيون باستخدام النظارة وبدونها ، لكن أهدابها تنطبق على بعضها ، ورغم ذلك تستيقظ من جديد وهى تشعر باستغراب لا تعرف سببًا محددًا له ، وأخيرًا قررت الذهاب إلى الحمام والاستعداد للنوم ، وعندما أخذت تنظف أسنانها بالفرشاة لاحظت أن هناك طَعْما على اللثة غير معتاد ، فنظرت إلى الفرشاة ولم تلاحظ أى شىء غريب ، وعلى أى الأحوال فمنذ أن امتدت يدها إلى فرشاة زوجها الميت خطأ ، فإنها فى كل مرة تشعر بشىء من التهديد ، الذى لم تستطع تفاديه وقالت : "هذه القُدْرَة اللعينة على التذكر بلا هوادة تستكنّ فى الذاكرة".

ربما قامت بهذه الطريقة بتشغيل ماكينة الذكريات فطافت برأسها صورة جنازة لويس فقد حدث أثناءها شىء غريب لم تتذكره حتى ذلك

اليوم ، كانت الشمس ساطعة ، ورغم ذلك لم يكن الجو حاراً وذلك لوجود نسمة هواء باردة تهب من الجبال حيث سقطت هناك ثلوج خلال الأيام الأولى لشهر مايو ، كانت تقف عند أحد جوانب القبر يرافقها والداها وحمواها ، وتراقب بشيء من الفزع خطوات إنزال التابوت إلى الحفرة ، أما باقى الأقرباء والأصدقاء فقد ظلوا واقفين خلفهم فى مجموعات ، محتفظين بمسافة معقولة تفصلهم عن المجموعة الأسرية ، بدا حينئذ أنه تم إقرار نوع من التدرج التلقائى ، الذى يحدد درجة الألم ، وهكذا فإن درجة الاقتراب من القبر ترتبط بشكل مباشر بدرجة القرب من المتوفى .

كانت إيلينا ترتدى تنورة سوداء وجاكيت أسود ، ورغم أن هذه القطعة الأخيرة هى جزء من طقم آخر إلا أنها تنسجم مع التنورة ، الجاكيت بصفين من الأزرار يكونان نوعًا من المثلث عند منطقة الصدر بحيث إنها عندما تصدر عنها تحركات معينة يفتح المثلث بعض الشيء ويمكن أن يرى طرف الملابس الداخلية ، ولهذا وضعت منديلاً فوق ذلك المثلث ، تذكرت أنها اشترت من أحد المحلات الكبرى - قسم ملابس الشباب - طقمًا أسود من الملابس الداخلية عبارة عن سروال وسوتيان ترتديه فى ذلك اليوم ، كانت القطعتان خفيفتين للغاية إلا أن ارتداءهما للمرة الأولى جعلها تشعر بهما على جسدها مثلها مثل أى شيء جديد ، فالتكيت الخاص بالسوتيان يلتصق بظهرها بخفة ، وعندئذ تتذكر أنها ترتدى طقمًا شبابيًا يتسق تمامًا مع أبعاد جسدها.

تودّ لو لم تلبس الشراب الحريمى ، لكن والدتها قالت لها إن ذلك غير مناسب ، وأثناء ذلك تولى العمال أمر إنزال التابوت ، بعد ذلك وقف القس عند الجانب المقابل للقبر ، وإلى جانبه مساعده يرتدى الزى المعتاد

ويمسك بين يديه شيئًا ذهبي اللون يستخدم في هذه الطقوس ، احتفظت إيلينا بنظراتها إلى أسفل معلقة على التابوت بينما يقرأ القس صلواته ، ابتعد العمال بعض الشيء عن الدائرة وكانوا يحتمون من أشعة الشمس باستخدام أيديهم وكأنها جافة مُتعبة ، في هذه الأثناء رفعت إيلينا عينيها وشهدت القس ومساعده إلا أن جسد المساعد ليس له ظل، فبدا لها أمرًا غريبًا.

وبينما ترقد هي الآن في حجرتها بالفندق بعد يوم مليء بالحركة تأسف كثيرًا لعدم تأملها هذه الجزئية، وذلك حتى تتأكد فيما إذا كان الأمر يتعلق بمجرد خداع بصري أو أنه شيء غامض ، "إن مسائل من ذلك النوع – فكرت – تحدث كل يوم لكن حواسنا لا تدركها".

المحصلة العامة لتلك الأيام إيجابية للغاية، فقد عادت إيلينا إلى المدينة وقد استعادت صلابتها وأصبحت بشرتها قمحية اللون ، كما أن هناك نوعًا من الرضا عن عَجزها ، لم تتخل أبدًا عن ميلها لإقامة علاقات جديدة ، فالفرص متاحة أمامها، غير أن الميل لم يظهر عليها ، وبذلك لم يحدث أي صراع في داخلها فيما يتعلق بهذا الجانب .

كانت تشعر بأنها مستعدة لتعيش مرحلة الشيخوخة وحدها، وقد فتحت أمامها إمكانيات جديدة ، لكن لن تجري وراء تلك الفرص ، ذلك هو ما تنتظره من الحياة : سلام بعيد عن أية تبعيات قديمة تجلب لها المعاناة والسعادة في الوقت ذاته ، وكل شيء قد يكون سعادة في المستقبل ، باستثناء ما قد يتأتى من بعض مناطق الوجود التي لا يمكن السيطرة عليها ، إلا أن معها نظارة الشمس لتدافع عن نفسها من تلك المناطق غير المريحة في الواقع ، كما أنها تتوفر لديها بعض الميول

وبعض العادات الروتينية التي اكتسبتها أثناء إقامتها على الشاطئ لاستخدامها فى هذا الغرض وأن عليها الآن أن تتقنها وتؤقلمها على جو المدينة وكذا شقتها.

وأول شيء فعلته عندما عادت هو الاطلاع على البريد ، الذى سلمه لها البواب بحركة تنم عن التضامن ، وسألها فيما إذا كانت تريد بيـــع أو تأجير المكان المخصص لها فى موقف السيارات ، شعرت إيلينا بوخزة ألم فى المنطقة التي بها العقدة عندما أدركت أن عليها أن تحل مشكلة عدم وجود السيارة ، "السيارة ، يا لها من مدلولات تحملها الأشياء" فكرت ، أمرت أن يعلن عن بيع المكان فهى تعرف أن بقاءه سيمثل فتحة وجرحًا فى حياتها يجب عليها أن تتعايش معه لكنها ترفض أن يأخذ الجراج أبعادًا أكثر من المعتاد .

كانت معظم الرسائل عبارة عن كشوف حسابات مصرفية ورسائل تعزية وصلت إليها أثناء غيبتها ، كما وجدت أيضًا سبعة أو ثمانية مظاريف مكتوبة بخط اليد وهو خط غير جيد وقد أرسلها بعض الحرفيين المتخصصين فى الرخام والجرانيت، كانوا جميعًا يعرضون عليها خدماتهم فى إعداد شاهد قبر لزوجها، شعرت بطرافة إحدى الرسائل إذ كان اسم محل الحرفى "رخّام إيرو" (رخام الحديدى) أو هناك آخر أرسل لها قائمة أسعار تتعلق بالحفر على الرخام ، وبهذه الطريقة عرفت بوجود أنواع مختلفة من الخطوط "خطوط موشورية من البرونز الأسود" و"خطوط محفورة بالتفريغ" و"خطوط عادية من البرونز الأسود" ، كانت تكلفة تنظيف النوع الثانى من الخطوط تصل إلى سبعة آلاف بيزتة ، تتساءل عن ماهية ذلك النوع من الخطوط، وأثناء ذلك أدركت أنها نسيت تمامًا واجبها فى تغطية وكسوة قبر زوجها بالشكل المناسب ، حيث

ستدفن هي أيضًا إلى جواره يومًا ما ، وَضُحَ لها أن كل هؤلاء الحرفيين توجد محلاتهم في شارع قريب من المدافن وبذلك لم تقرر اختيار واحد بعينه.

استقلت تاكسي صباح اليوم التالي واتجهت إلى ذلك الشارع، كانت المحلات متجاورة وحتى تصل هي إلى أي من مكاتب تلك المحلات عليها أن تعبر صحنًا مليئًا بالأتربة وكتل الرخام ، وعادة ما كان هناك كلب ينبح ، وأخيراً قررت دخول أحد تلك المحلات ، ومن المؤكد أن صاحبه خبير في التقنيات التجارية حيث المحل مختلف عن الآخرين ، يوجد بالمحل فترينة على الشارع، كما لا يلاحظ وجود أي أثر لأعمال تجرى ولابد أن الورشة في مكان آخر، أطلت إيلينا على الفترينة وتأملت العديد من التوابيت والشواهد الخاصة بطاقات الدفن ، وصلبانًا رخامية وحجرية ، دخلت المحل وتركت الموظف يسدى لها النصح ، اتضح أنه ابن المالك .

– لقد قام والدى بتحديث هذا المحل – قال ذلك إجابة على سؤال وجهته له إيلينا – أما الآخرون فما زالوا يعيشون في العصر الحجرى .

هذه الجملة الأخيرة جعلت إيلينا تبتسم – نظراً لوجودها محاطة بالأحجار – مما جعل الموظف يوجه لها الشكر على ذلك ، وأخيراً توصلا إلى اتفاق وحررت له إيلينا شيكًا بالمبلغ وتسلمت في المقابل فاتورة تم تصنيف محتوياتها بدقة .

عندما غادرت المكان شعرت بنوع من العرفان نحو نفسها، لأنها قامت بهذا الواجب الأخلاقي الذى تشعر به حتى الآن نحو الميت ، وقفت

على قارعة الطريق باحثة عن أحد التاكسيات ، كما شعر قلبها بخفقة ناجمة عمّا كانت عيناها تشاهده لدرجة أن ذلك كاد أن يُسْقطها أرضًا: ها هى سيارة زوجها فى الشارع تقترب منها يقودها شخص لا تكاد تحدد ملامحه بسبب انعكاس أشعة الشمس ، خلعت نظارتها وتابعت ، حائرة ، مسار السيارة التى وقفت إلى جوارها ، خرج منها رجل ضخم الجثة يبلغ الخمسين من العمر ثم دخل نفس المحل الذى خرجت هى منه .

ظلت إيلينا واقفة على الرصيف بضع لحظات وكأنها تنتظر قرارًا لا يتعلق بإرادتها ، وأثناء ذلك عادت ضربات قلبها لتأخذ إيقاعها المعتاد ، وعاد تنفسها إلى الوضع الطبيعى ، وحتى لا تستلفت الانتباه أخذت فى السير فى جانب آخر دون أن تغيب السيارة عن ناظريها، وهى فى انتظار خروج صاحبها من المحل ، لم تعرف السر فى انتظارها ، لكنه قرار من تلك التى يصعب على المرء أن يجد لها تبريرًا وعليه أن ينصاع لها بتواضع واستغراب ، ومع ذلك كان الوقت يمضى دون أن يظهر ذلك الرجل ، وأصبح من غير المريح إطالة فترة الانتظار ، وفى نهاية الأمر دخلت المحل من جديد وقد اعتراها بعض التردد ، ودون أن تحدد لنفسها ما الذى عليها أن تفعله آملة أن يلعب الواقع لصالحها رغم أنها لا تعرف ماهية ذلك .

اقترب الفتى عندما رآها تدخل وسأل :

– هل نسيت شيئًا؟

أجابت دون أن تقول كلمة أخرى غير : لا

تردد الفتى عدة لحظات ، ثم قال:

– هل أصابك مكروه ؟ فوجهك ممتقع .

– نعم – أضافت هى – إننى أشعر بشىء من الغثيان .

ذهب الفتى خلف فترينة العرض وأحضر كرسيًا.

جلست إيلينا وهى تبتسم معربة عن شكرها ونظرت حولها ، لم تر صاحب السيارة ، قال الفتى :

– سوف أبلغ والدى .

وبعد هنيهة ظهر ومعه ذلك الرجل البدين الذى كان يقود السيارة، اتضح أنه رجل لطيف المعشر وحلو الكلام .

– لا تقلقى يا سيدتى – قال وهو يبتسم ابتسامة فيها حماية – فأحيانًا ما يؤدى القيام بهذه المهام المؤلمة إلى الذكريات المرة – هل كان المتوفى والدك ؟

– لا ، بل كان زوجى – قالت إيلينا وهى تخلع النظارة لتقدم عينيها لرجل مجهول .

– أنا آسف ، آسف – قالها وملامحه تعبر عن الألم الذى بدا أنه صريح ثم أضاف فى نبرة فيها شىء من المرح – لكن الحياة تمضى ، اسمحى لى أن أدعوك إلى تناول فنجان من الشاى فى مقهى بالجوار وهذا سيساعدك على أن تكونى أفضل .

خرجا وسارا معا نحو أحد البارات ، وتبادلا بضع جمل قصيرة ، الرجل يدعى لويس ، الأمر الذى جعل إيلينا تضع النظارة على عينيها من جديد لتخفى انفعالاتها لهذه الصدفة الجديدة ، وفى النهاية أصر على أن يذهب بها إلى منزلها فوافقت .

عندما دخلت إيلينا السيارة شمت رائحة معتادة عليها ، وشعرت بكل شيء يمكن أن تستثيره حاسة الشم، عندما تصل إليها رائحة خاصة تتعلق بفترة من حياة المرء ، نظرت إلى لويس الرجل الضخم الجثة والرقيق الذى يقود السيارة ولم تستطع أن تباعد عن نفسها إشارة تعبر عن الودّ الذى أخذ يتحول أثناء السير إلى مغازلة قَبِلها الرجل بتلقائية .

اتفقا على اللقاء يومًا آخر، وبالفعل دعاها إلى تناول طعام الغداء مرتين دون أن يحدث تقدم فى العلاقات بينهما فى هذا الجانب أو ذاك ، كان يروق لإيلينا أن تظل فى السيارة أطول فترة ممكنة.

– إنك تقود بشكل ممتاز – تقول مفسرة :

أما هو فكان يشعر بالرضا ويقوم بالسير فى أماكن جديدة تطيل مدة اللقاء قبل أن يتركها عند منزلها .

– تستخدمين النظارة – يقول هو – مثلما تستخدم النساء الأخريات الملابس ، وفى كل مرة ترفعينها عن عينيك يواتينى الإحساس بأنك تخلعين ملابس .

– هذا ليس جديداً جداً – كانت تجيب.

– أتفق معك في أن العبارة ليست كذلك، لكن ما تشير إليه هو الجديد.

– وهل يروق لك؟

– كثيراً يا إيلينا.

هكذا أخذت الأيام تمضى يغازل كل منهما الآخر فى غير عجلة من الأمر ودون تساؤل أو غاية مثل أى شىء يمكن توقعه من علاقة متقطعة وغير مستمرة .

كان هادئ الطبع لا يميل إلى السرعة أيًا كانت طبيعتها، الأمر الذى جعل إيلينا تغير من بعض مواقفها، فخلال الأيام الأولى كانت عيناها منصبتين على السيارة، وإذا ما كان هو يهمها فى شىء فالسبب الوحيد هو السيارة ، لكن مع مرور الأيام أدركت أن لويس والسيارة أصبحا وحدة مرغوبًا فيها ، ووصل بها الهوس لدرجة أنها بدأت تلاحظ عليه مواقف وحركات وعبارات تماثل تلك التى كانت لزوجها "أو لم يكن ذلك هوسًا؟" كانت تتساءل : هل هناك بينهما ملامح مشتركة - إضافة إلى الاسم والسيارة - أى بين لويس الميت ولويس الحى ؟ هل يتجسد الأموات فى الأحياء .

وذات يوم ، فى بداية شهر يوليو، قال لها لويس بأنه سوف يرسل بأسرته خارج المدينة أى إلى منزل يمتلكه فى الجنوب .

- وسوف يكون لدينا وقت وفير - قال - إذا ما أردت.

نظرت إليه إيلينا من خلال النظارة ، وأجابت بصوت فيه نبرة غريبة.

- نعم ، أريد - وأضافت على الفور، لكن عليك أن تأخذنى فى نزهة خلوية بالسيارة نذهب فيها إلى أماكن نائية لم تطأها قدمك قبل ذلك .

فى ذلك الأحد ارتدت إيلينا تنورة قصيرة وفضفاضة وبلوزة خفيفة

من نسيج ناعم ينزلق من بين الأصابع، كما كانت تتحرك على جسدها كأنها الماء فوق مسطح من البلاستيك ، أما الملابس الداخلية فكانت طقمًا من اللون الأبيض – المقاس الشبابي – له نفس المواصفات الخاصة بالبلوزة ، أدت بها هذه الإثارة إلى تذكرها لحظات أخرى من حياتها، الأمر الذى جعلها واجمة للحظات – تناولت قرصين لتهدئة نفسها ونزلت إلى الشارع وسارت مسافة ناصيتين فشهدت السيارة واقفة فى المكان الذى تواعدا على اللقاء فيه ، خلعت النظارة عندما دخلت السيارة ، ووضعتها فى الشنطة الأمامية :

– إلى أين نحن ذاهبان ؟

– إنها مفاجأة ، أغمضى عينيك واستمتعى .

كانت الثانية عشرة والنصف صباحًا ، المدينة خالية من المارة وكأنها ظهر عريان ، أغمضت إيلينا عينيها وأمالت ظهر مقعدها ثم نامت بعد وقت قصير ، وذلك بفعل الأقراص المهدئة بعد أن قضت ليلة متوترة ، لم يداعب النوم فيها جفونها .

أيقظها لويس بعد ذلك بساعتين وقد ظهر أمام عينيها مشهد غريب ، لقد كانا فى منطقة مرتفعة وبالقرب من وهدة يمكن أن يُشهد خلفها، وبوضوح سهل ضخم خال من الزرع ، وفى الخلف، هناك نهر واسع المجرى يأخذ منحنى ثم يتوه فى الأفق ، أما المشهد خلفهما فهناك مجموعة من الأشجار التى تخفف من وقع المنظر وتعتبر مسقط هواء يهب بقوة وذلك لما يشاهد من قوة اهتزاز الأشجار.

– من أين خرجت به؟ سألت إيلينا .

- ماذا؟

- هذا المنظر؟

- من أحد الأدلة السياحية.

- إنه مثير.

- مثلك أنت يا إيلينا.

انحنى عليها فى هذه اللحظة وقبّلها دون شغف ظاهر، أخذت إيلينا تبحث عن وضع مناسب وانتظرت حتى يكون حجم لويس فوق جسدها.

قالت :

- لا تنزع النظارة عن عينى .

قام برفع التنورة الخفيفة وداعب جسدها فى الوقت الذى كان يقبلها على شفتيها.

سألت إيلينا :

- لماذا تفعلون ذلك أنتم معشر الرجال ؟

فرد بسؤال:

- ماذا تقولين ؟

- تمارسون الحب ، لماذا ؟

- خوفًا - قال- وأنتن معشر النساء ؟

- نحن، من باب الصداقة، الصداقة فقط .

وبينما هما ملتصقان، وقبل أن يفصح جسداهما عن مكنونيهما ، أحست إيلينا بشعور غريب ، لأنها كانت تظن أنه لويس زوجها الذى يداعب أجزاء جسمها بمهارة ، كذلك عندما شعرت أنها قريبة من حافة الجنون، طافت على ذهنها ذكريات قصيرة وغامضة لم تستطع أن ترصدها ، لكنها كانت تشير إلى ضلوعها وفى وفاة زوجها .

تركت السيارة وهى تشعر بالحيرة وقد ذهلت عن نفسها فأصلحت من هندام تنورتها وبلوزتها ، وبعدها بلحظات خرج لويس وقد اعترت ملامحه الجدية وقطب جبينه.

سأل:

- ماذا حدث ؟

عادت إيلينا جرياً إلى السيارة وبحثت عن النظارة التى فقدتها أثناء العناق ، وضعتها على عينيها ، نظرت بعيداً، بعيداً عن هذه الهوة ، سألت:

- لماذا تسمى لويس .

كان لويس على وشك الإجابة عندما لاحظ أن إحدى العجلات الأمامية للسيارة تستقر فوق قطعة حجر مسننة وفرغ ما بها من هواء ، عندئذ أخذ يصب اللعنات على السيارة، وهى لعنات كان يطيب له أن يصبها على إيلينا، أخذ يركل السيارة ويلقى عليها بعض الحجارة، وأخذ يدق فوقها بكفيه الغليظتين فهو رجل يعمل فى حرفة النقش على الرخام ، ظلت إيلينا ساكنة بلا حراك وهى تضع نظارتها الشمسية تتأمل المشهد ، على بعد أمتار قليلة، بالقرب من الوهدة.

وعندما بدا عليه الإرهاق، قالت إيلينا بنبرة بدا أنها صادرة عن امرأة أخرى:

- عليك تغيير العجلة .

أطاع لويس دون أن ينطق بشيء ، لكنه كان يعامل السيارة بعنف كلما وجد شيئًا معطلاً ، بدا عليه الإرهاق عندما انتهى عمله ، وعندئذ اقتربت إيلينا من حافة الهاوية ونظرت إلى الأفق وقالت بصوت متهدج .

- هيا تعال إلى هنا.

كان لويس مستسلمًا لها بالكامل، اقترب منها أخذت وجهه بين يديها وقالت:

- لا تلمسنى ، فأنت تجعلنى أتوه .

ابتسم ، وعندئذ أخذ يعترى الغضب صوتها، وهو غضب يذكرها بوضعها عندما كانت إحدى طيور النورس، ودفعت به إلى الهاوية بكل ما أوتيت من قوة ، لم تتحرك النظارة من مكانها.

كانت الشوارع ما زالت مقفرة عندما عادت إلى المدينة ، قادت السيارة حتى محل الرخام وتركتها أمام الباب ، وبعد ذلك استقلت تاكسى وعادت إلى منزلها ، تشعر بالجوع والرغبة فى النوم ، وعندما أكلت ونامت كان الأحد يوشك أن يؤذن بالرحيل وحلول يوم الاثنين .

وعمومًا.

***

SOLEDAD PUERTOLAS

سوليداد بويرتولاس

ولدت فى سرقسطة عام ١٩٤٧ ، درست الأدب والصحافة، ألفت عدداً من الروايات من بينها " قاطع الطريق ذو التسليح القوى" (١٩٧٩) – الجميع يكذبون (١٩٨٨) أما مجموعتها القصصية فقد نشرتها عام ١٩٨٣ وهى بعنوان "مرض أخلاقى".

***

حكايات قديمة

كان إرنستو ، زوج أختى الصغرى السابق ، يتصل بى هاتفيًا مرات عديدة وذلك ليبلغنى بتطور الحالة العصبية التى عليها أختى ، وكان يفضى إلىّ بأسراره ويفرج عن همومه ، وينتهى به الحوار إلى أن يطلب منى محاولة تهدئتها وفهمه، وهو الذى انفصل عن أليثيا بشكل رسمى منذ عامين ، ولم يكن يستطيع العيش دون أن تراقبه ، لقد تحولت حياته إلى جحيم .

كان إرنستو يعيش مع روسانا ، هى فتاة ترغب آنذاك فيِ أن تصبح ممثلة واستطاعت الحصول على ما تريد بعد ذلك بأعوام، لكن أخذت تعيش مع رجل آخر ، أخذا يعيشان فى أبيليس Aviles منذ ما يقرب من شهرين ، فعندما هرب إرنستو من أختى استطاع الحصول على وظيفة مدير قسم الكيماويات فى واحدة من تلك الشركات التى تلوث البيئة ، يقوم بدراسات الحفاظ على البيئة ، وذلك بالنسبة له هو شغله الشاغل ، وكذلك الحال بالنسبة للممثلة وأختى المسكينة ، كان ثلاثتهم يلتقون فى هذا الأمر ، ولهم الحق فى ذلك رغم أن نبرة حديثهم فيها شىء من الوعظ والتبشير ، لكن إذا ما تحدثوا جميعًا فى وقت واحد - سواء كانوا على حق أم لا - فقد كانت لدىّ القدرة على معارضتهم فى الرأى .

كانت تحدث مشادات قبل أن ينتقلوا إلى أبيليس، حيث كانت الختام لزيارة أختى ، تبدأ بعبارات عنيفة وكلمات مُعبرة عن الأسى ، وتُختتم بحوار ودىّ حول ضرورة الحفاظ على المناطق الخضراء فى الكرة الأرضية ، لكننى كنت الأقل تعبيراً عن الود ، ولم يكن ذلك لكونى على خلاف عميق معهم ، بل لأننى أشعر بغيظ إزاء هذا التحول وهذه المصالحة المفاجئة القائمة على فكرة عامة وإنسانية تربطهم بعد أن تصايحوا وبكوا (أليثيا وروسانا تبكيان وكأنهما فى مسابقة) وتبادلوا السِّباب ولعن بعضهم بعضًا لدرجة أن الأمور الظاهرية تقول بأن لاشىء أصبح يربطهم ، حسن ها هو ذلك الذى يربطهم : قلقهم المحموم إزاء تصاعد الدمار الذى يتهدد الطبيعة الأم ، ورغم أننا نعرف جميعًا أن هناك فرقًا بين الأفكار والمشاعر ، فقد كانت الحيرة تتملكنى ، والسخط يستبد بى خوفًا من أن يحدث هذا التغير المطلق بينهما ، لدرجة أننى

كنت أفكر أحيانًا فيِ أنهما يكذبان إذ لا يمكن أن يكون الاختلاف جذريًا إلى ذلك الحد ، فإما أنهما يكرهان بعضهما إلى هذا الحد ، أو أن القضايا المتعلقة بالحفاظ على البيئة لا تهمهما إلى ذلك الحد ، لابد أن هناك خللا ما ، وها هو هناك لا أستطيع رؤيته ، كان على هذه الحالة المتمثلة فى التعايش المثالى ، مثلما كنت أجدهما عندما أتلقى مكالمة إرنستو التى تعبر عن فقدان الأمل ، وكنت أذهب لآخذ أليثيا ، ولا أتوقف عن التفكير وأنا أشعر بالقلق والرعب حيث كان على فى تلك المناسبة أن أحضر الصيحات والدموع والمشاهد العنيفة التى قصّها علىّ إرنستو بالتليفون ، لكن لم يكن الأمر هكذا ، ورغم أننى يمكن أن ألاحظ فى وجهيهما آثار ذلك الانفجار المشحون - فقد كانت عيون أليثيا وروسانا مُحمّرة ، كما أن الماكياج على وجهيهما فى حالة مضطربة ، كانتا كأنهما خارجتان من معركة - فإن ثلاثتهم يجلسون فى هدوء حول المائدة المنخفضة الارتفاع ، والموجودة فى غرفة المعيشة ، وكل واحد يحمل فى يده مشروبًا ، وعلى وجوههم يخيم القلق، نظرًا لأهمية الموضوع المطروح للنقاش .

حتى إرنستو نفسه ، الذى تحدثت معه قبل ذلك بنصف ساعة، وطلب أثناء ذلك أن آتى لمساعدته فى إخراج أختى من منزله ، لم تكن تبدو عليه أية رغبة فى وضع حد لهذا الاجتماع ، يقدم لى كأسًا ويجلس على الكنبة ويتأملنا راضيًا ، ويعرض نظرياته وهو سعيد بأنه بين جمهور نسائى رائع ، فهناك ثلاث نساء ينظرن إليه باهتمام ، قد حانت ساعة الاعتراف ، كان إرنستو رجلاً يروق لثلاثتنا ، وكنت أنا التى قدمته لأختى وهى من جانبها - ربما ارتكبت خطأ أكبر - قدمته إلى روسانا وثلاثتنا على قناعة كاملة - رغمًا عنا - بأن إرنستو يستحق منا هذا

الاهتمام ، كانت عيناه تبرقان وهو ينظر إلينا ، ويمكن القول بأنه كانت لديه – رغبة دائمة – ربما كانت على غير وعى – فى غزو قلوبنا.

وفى نهاية المطاف، أى عندما كنت أنا وأليثيا ننزل في المصعد ، وهى أكثر ثمالة منى ، تصرّح لى بأنها لا يهمها كثيراً أى شىء مما حدث ، فالشىء الوحيد الذى تحتاجه لتواصل العيش ، هو أن ترى إرنستو والتفكير فى أنه ما زال يشعر بشىء نحوها، كما كنت أفهمها وأعذرها ، رغم أننى لم أبُح لها بذلك ، وهذا لأننى كنت أشعر بشىء من هذا القبيل ، نعم ولكن بدرجة أخف يمكن السيطرة عليها، كما أعرف مثلما تعرف هى أن إرنستو كان جذاباً ، وأنه مــا زال يلعب معنا، دون أن تكون هناك الرغبة فى استبعاد أى احتمال للقاء جديد أو المصالحة ، حتى ولو كانت عابرة أو تسببت لنا فى آلام شديدة ، كنت أنا أكثر حرصًا من أليثيا ، فقد كنت أكبر منها سنًا وخبرة ، وبهذا استطعت السيطرة على بادرة الأمل تلك دون عناء كبير ، لكن أختى المسكينة تظل حبيسة تلك الآمال ومرهونة بها ، وتستعد منذ تلك اللحظة للمشادة القادمة ، كانت تنظر فى مرآة المصعد ، ومما لا شك فيه أنها تعطى موعداً لصورتها فى المرآة ، ورغم أنه لم يكن محدداً بدقة إلا أنه يؤكد مكانه ، سوف نلتقى .

لم أكن على قناعة كافية بالأسس التى تبنى عليها أحلامها، ولم تكن تريد أن ترجع إلى منزلها بمفردها ، فتطلب منى أن تنام فى منزلى حتى ولو على الكنبة وذلك للحيلولة دون التفكير في إرنستو ، حتى تكون محاطة بالناس ، ولا تفكر فى مشوار حياتها تفكيراً سيئًا ، لم تكن تعنى بالنظام والعادات التى أنا عليها فى منزلى ، تنسى كل شىء ثم تأخذ حمامًا وتتنقل فى أرجاء المنزل ، وهى تدندن وقد غطت جسدها بأحد

"البرانص" وأخذت تداعب أبنائى وزوجى ، وحينئذ يبدو أن انفعالاتها العاطفية قد زالت عنها تماماً، هكذا كانت أليثيا ، ولم يكن ذلك غريباً علىّ ، لكن ما لم أتمكن منه هو إقناع زوجى بأن حالتها حرجة ، فهو لا يصدق أبداً أن أليثيا يمكن أن تتصرف تصرفات عنيفة ، كما أننى أيضاً كنت أنتهى إلى خلاصة مفادها أن كل ذلك الذى حدث ليست له أهمية ، وأن علىّ أن أترك أختى وزوجها السابق لحل مشاكلهما وحدهما ، وألا ينتابنى الفزع عندما يتصل بى إرنستو ويحدثنى بتلك اللهجة والنبرة التراجيدية ، أخرج بهذه النتيجة عندما أرى أليثيا وهى تودعنا فى اليوم التالى وقد أحسنت العناية بهندامها ووضعت العطر ، وأخذت طريقها إلى مكتبها ، عندما كان إرنستو يتصل بى ينتابنى الفزع ، وأفكر أن أليثيا فقدت رشدها وأقول لنفسى وأنا متوجهة إلى منزله بأنه قد آن الأوان لاستشارة طبيب .

كثيراً ما حدث ذلك الموقف، وكثيراً ما انتزعته من رأسى ، واعتقدت أننى أصبحت محصّنة بعض الشىء ، ورغم ذلك أعترف بأن قرار إرنستو الانتقال للعيش فى الشمال خفف عن نفسى ، فعلى الأقل لم تفكر أليثيا كثيراً فى الذهاب إلى منزله وإذا ما فعلته فلن يخطر على بال أرنستو أن يتصل بى لمساعدته، فالمدينة التى يعيش فيها بعيدة لدرجة أن طلباً مثل هذا يدخل دائرة المبالغة .

كانت أليثيا هى التى أبلغتنى بالأمر، وأدركت أنه بالرغم من شكواها فإنها تقر ما فعله إرنستو ، فالمسافة الفاصلة بين فردين لم يتوصلا إلى الانسجام العاطفى فيما بينهما هى نوع من العلاج ، وربما كانت مرهقة من كثرة المعاناة والبكاء والصياح والمصالحة والحديث فى نهاية المطاف عن الحفاظ على الطبيعة ، والمجىء بعد ذلك إلى المنزل

لتداعب أبنائى وكأن شيئًا لم يحدث، وكأنها الخالة التى لم تتزوج، الحنونة على طريقة القصص الوردية ، بدت لها هذه المشادات متماثلة مع بعضها البعض، ولابد أنها تركت لديها الانطباع بأنها تكرار لا معقول وقد يكون مملاً ، ومما لا شك فيه أنها هى الأخرى تقبل بذلك الإجراء الذى لم تكن لتجرؤ على اتخاذه، ورغم ذلك كان مفيداً لها ، ها هى الآن تبدأ مرحلة الانفصال الحقيقى ، وها هى تجد نفسها مجبرة على التأقلم على حياتها الجديدة واتخاذ التدابير اللازمة حتى لا تغرق ، لقد أصبح إرنستو بعيداً عن متناولها .

كانت أليثيا هى التى أبلغتنى بالخبر ، ولم يتوفّر حسن التصرف لدى إرنستو حتى يتصل بى ويودعنى ، فقد كانت اتصالاته من أجل الطوارئ والتعبير عن فقدان الأمل ، وعندما ذهبت بشكل فيه نوع من الهروب بدا لنا أنه منطقى ، لم ير أن من الضرورى إبلاغى بما ينوى فعله .

لم أكن واعية لفترة السلام تلك ، فمن الصعب معرفة قيمة الهدوء عندما يكون متوفراً لدى المرء وهو الذى يُفتقد لحظة ذهابه ، وفى هذه اللحظة يبدو أنه أجمل شىء يمكن أن يحصل عليه الإنسان على وجه الأرض ، فى هذه اللحظات لا يتطرق التفكير إلى الهدوء ذلك أنها هى هديته ، فالتحليل لا يمكن أن يكون فى إطار الهدوء الحقيقى ، غير أنى أخشى أننى ربما أتحدث عن شىء آخر ، أتحدث عن نفسى .

لم أدر كم مضى من الوقت حتى عدت لسماع صوت إرنستو ، وأول شىء أثار استغرابى هو أن ذلك الرنين المعروف لم يكن يدق

بشغف ، أى لم يكن صرخة ، أو اتصالاً عاجلاً ، كانت نبرات الصوت بطيئة تعبر عن الإرهاق .

– هل تعرفين أين هى أليثيا – سألنى بعد أن سأل عنى وعن أحوالى بشكل مقتضب .

– أتصور أنها فى منزلها – قلت وقد أدركت على الفور أنه حاول الاتصال بها هناك .

– ليست هناك – أكّد – إننى أبحث عنها منذ عدة أيام ، فلم تذهب للعمل منذ أربعة أيام ، ولا أحد يأخذ التليفون فى المنزل ، لهذا أتصل بك .

– ربما كانت مسافرة .

– لا يعرف أحد شيئًا عنها فى المكتب، فقد طلبت إجازة لعدة أيام، لكن لا أحد يعرف أين هى ،

– ظننت أن الثقة بينكما كبيرة – أخذت نبرات صوته يعلوها السخط والتأنيب .

– أليثيا إنسانة بالغة عاقلة بما فيه الكفاية، وهى غير معتادة على أن تحدثنى عن شئون حياتها – قلت مدافعة عن نفسى – ودائمًا تفعل ما يحلو لها، وهذا ما تعرفه أنت أيضاً.

كان من بين ما فعلت أنها انتزعت منى خطيبى وتزوجته دون أن تبدى أى ندم على ما فعلت، وخمنت أن إرنستو يعرف ما أنوّه عنه .

فسألنى :

– هل تعتقدين أن بإمكانها ارتكاب بعض الحماقات؟

– ماذا تريد أن تقول؟

– لقد كان آخر نقاش جرى بيننا حاداً ، ولقد قلت لها أشياء لا تعبر عن مشاعري ، وأنت تعرفين كيف تنتهي مثل تلك المشاجرات إذ ينتهي الأمر بالمرء إلى قول أسوأ ما لديه ولا يفعل هذا إلا لإغاظة الآخر وإلحاق الأذى به ، وفجأة يتحول كل شيء إلى مسألة الشرف وحب الذات ويصبح الانتصار وإذلال الآخر هو أهم شيء ، وأعتقد أنني تجاوزت الحد المعقول .

– متى كان ذلك ؟

– يوم الجمعة الماضي .

– هل سافرت أليثيا إلى أبيليس ؟

– نعم ، وقد استغربت لذلك، فلم أفكر أبداً أنها يمكن أن تصل إلى هنا، فقد جاءت تحمل حقيبتها وقالت إنها ستبقى في منزلي حتى تتيقن تماماً من أنه لا شيء بيننا ، كما أنها في حاجة إلى هذه التجربة قبل أن تحسم أمرها وتنساني .. يا إلهي ، أشعر أحياناً أنها مجنونة – تنهّد – ولهذا فأنا أشعر بالقلق ، وأخيراً ظهر هذا السلوك – أشعر بالقلق في الحوار.

– كم من الوقت مكثت ؟

– فترة قصيرة جداً، كنت وحدي ، أما روسانا فكانت في مدريد، تقوم بإجراء بعض التجارب، وأظن أن ذلك كان وراء سببٍ لها ، فقد فكرت أن إليثيا على علم بغياب روسانا وأنها كانت تتجسس علينا وهي

في مدريد ، ملأني الغيظ فوجهت لها السباب وطردتها من المنزل ، ووضعت لها حقيبتها خارج الباب ، وأخذتها من ذراعها ، ودفعت بها إلى بسطة السلم، ثم أغلقت الباب ، ولم أفتح لها رغم أنها واصلت قرع الجرس، وفي النهاية ضغطت على الزر الخاص بالمصعد وذهبت، وبعد قليل دق جرس التليفون لكنني لم آخذ السماعة ، هذا هو كل ما أعرفه - عاد ليتنهد من جديد ، عادت روسانا يوم الأحد وجعلتني أتصل بأليثيا ، في واقع الأمر أعتقد أن روسانا تشعر نحوها باستلطاف فلم توافقني على أنني عاملتها هكذا ، لكن لم نستطع العثور عليها ، إننا نبحث عنها منذ يوم الاثنين ، أين يمكن أن تكون الآن في اعتقادك ؟

أخذت أقاوم القلق ، كما لم أشعر بأي حاجة لطمأنة إرنستو الذي لم تكن مكالماته مثيرة للاطمئنان أبدًا.

قلت:

- سوف أحاول العثور عليها.

غير أنني عندما وضعت السماعة أدركت أنني لا أعرف كيفية البحث عنها ، فلم أكن أعرف الكثير عن حياة أختي ، كما لم أشأ إقلاق والديّ ، فربما هما الوحيدان اللذان تتوافر لديهما بعض المعلومات عن صداقاتها الحالية ، وقد تصرفت بحيث تمكنت من الحصول على اسمين منهما دون أن أثير أية شكوك ، لكنني عدت إلى نفس النقطة الميتة ، فلا أحد يعرف شيئًا.

عاد إرنستو للاتصال بي وسألني :

- أتعتقدين أنه يجب إبلاغ البوليس ؟

فقلت :

– أتصـوّر ذلك – قم بذلك أنت من فـضلك ، فـذلك أمـر يؤثر فـيّ كثيراً .

اتصل بى عندما انتهى البوليس من التحريات اللازمة، فلم يعثر لها على أثر سواء فى أقسام الشرطة أو المستشفيات ، وكان ذلك هو أقصى ما يمكن فعله ، وإذا ما توافرت أنباء أخرى عنها فسوف يبلغوننا بها.

لكن رجال البوليس لم يتصلوا بنا .

ظهرت أليثيا يوم الاثنين من الأسبوع التالى وعرفنا ذلك بعد الاتصال بها فى المكتب ، وعندما تحدثت معها كانت قد انتهت لتوها من الحديث مع إرنستو .

– لست أدرى لماذا قلقتم علىّ هكذا – قالت – لقد سافرت ثم عدت.

– لكنك لم تقولى ذلك لأحد.

– إننى بالغة بما فيه الكفاية – ألا تظنين ذلك؟

لقد قلت شيئًا يشبه تلك العبارة لإرنستو منذ عدة أيام.

– هل سافرت وحدك؟

ضحكت .

– أما وأنت تطرحـين هذا السؤال فـإننى أقـول لك إننى ذهبت برفقة فتى .

بدا أنها سعيدة جداً ، وسعدت أنا أيضًا لذلك، فربما توصلت لطريقة فيها سلوى لها.

أعقب ذلك فترة هدوء أخرى دون أن أبذل من وقتي الكثير لحل المشاكل العاطفية لأختي ، وذات مساء من أمسيات الشتاء دق جرس باب منزلي ، كان الرنين ملحًا ، إنه إرنستو ، لم يرد الدخول ، وكل ما طلبه هو أن أرافقه إلى أحد البارات لأنه يريد الحديث معي على انفراد .

- هنا لا، قال - لا أريد مضايقة أحد، وأنتم كيان أسرة .

كان يرتعش ولم يحلق ذقنه، كان يحدّق فيّ بنظراته من خلال خصلة شعر مبللة تغطي جبهته وجزءًا من عينيه ، لم أتدبر كثيرًا في الأمر وسرت إلى هناك ، كنا نمشي تحت المطر البارد، كنت أمسك بمظلة المطر الخاصة بي حتى لا تأخذها الرياح، أما إرنستو فلم يكن يفعل شيئًا ليحمي نفسه - حتى عثرنا على أحد البارات الذى كان يمكن أن يروق له ، هذا البار لا ، ففيه ضوء كثير، أما هنا فالمكان مليء بالزبائن ، وهذا فظيع .. وفي ختام المطاف قرر دخول أحدها كنوع من الاستسلام ، دخلنا وجلسنا وطلبنا مشروبًا، كنت أراقبه وأنا في انتظار أن يبدأ في الكلام ، ماذا يمكن أن تسأله ؟

شرب ، مرر كفه على وجهه ، ونظر إلى السطح الأملس للترابيزة .

- لقد تركتني - قال - لقد ذهبت بلا رجعة .

- من ؟

ردّ عليّ بنظرات فيها استغراب وخاوية، وكأنه لا يفهمني .

- أليثيا - قال هامسًا .

- اعتقدت أنه هو أنت الذى تركها.

نفى ما أقول بهز رأسه وعاد لدعك رأسه المبللة .

– ياللسماء أنا لم أكن أعرف، أؤكد لك ذلك، لم أدرك حقيقة الأمر ، إنها المرأة الوحيدة التى أحببتها ، ولا أتحمل فقدانها، إنها لا تريد أن ترانى ، وتقول من المستحيل أن يرى بعضنا الآخر ثانية .

أجهش باكيًا وأخرج منديلاً ليجفف وجهه .

– إن كل ما يحدث أمر غريب جداً .

– كنت بحاجة إلى أن تتركك أليثيا حتى تدرك أنك تحبها – قلت له – وأتصور أن هذه العبارة كانت نوعًا من التأنيب من أجل أليثيا وربما من أجلى فلم أكن لأتركه .

– أعرف أننى أحمق – قال – لكننى إنسان فاقد الأمل، فلن أراها إلى جانبى أبداً.

– لماذا كنت تريد رؤيتى ؟ لا يمكن أن أفعل شيئًا من أجلك .

عاد ليرمقنى بنظرة حيرة .

– لست أدرى – تلعثم – وجدت نفسى فجأة أمام منزلك ، وأتصور أنك الإنسانة الوحيدة التى يمكن أن أقول لها هذا الكلام .

– تأتى إلىّ دائمًا – قلت بنبرة تحمل غيظى القديم – فعندما كانت أليثيا تضايقك وتريد أن تخرج من منزلك تتصل بى لآتى لآخذها إلى منزلى ، أما الآن فلا أريد أن أراك ثانية ، إنك تتصل بى لتبكى على كتفى ، ألا تظن أن ذلك أمر مريح للغاية ؟ فأنا هنا دومًا لمساعدتك ، أخرجك من المشاكل وأواسيك ، من المفروض أن تسأل نفسك لماذا أفعل ذلك ، وربما لم أشأ فعله وربما تعبت من مد يد المساعدة لك.

تحـول الفـراغ الذى أراه فى نظراته إلى رعب فـشـعـرت بالشـفـقـة لأجله رغمًا عنى ، لم أستطع مسـاعدته لكن مـا زال يؤثر فىّ ، وتذكرت أليـثـيـا وهـى تنظر فى مـرآة المصـعـد الخـاص بمنزل إرنسـتـو وتقـول لنفسها إنه يحبها ، وأنها لا يمكن أن ترفض ذلك الحب ، تقول هذا بعد مشادات عنيفة يعقبها تصالح ، فها هو قد ظهر الدليل على أنها كانت على حق .

– أنا متأسف – غمغم – لكن لا تذهبى ، لا يمكن لك أن تخذلينى .

قـرّر تجـاوز مـخـاوفـه وأخـذ يضـحـك ، وفـى هذه اللحظة أدركت أنه سكران بالفعل .

– هيا – قلت له – إننى أفضل السير تحت المطر.

عندمـا نهض من مكانه دفـع بالمائدة فسـقـط الكوب الخـاص به على الأرض ، اعـتـذرت للنادل ، وأخـذت إرنـسـتـو من ذراعه وخـرجت به إلى الشـارع ، على الجانب الآخر من الزجاج انـحنى النادل ليجمع زجاجات الكوب المكسور.

سرنا مـسافة طويلة ونحن متلاصقين تحت مظلتى وقد لفّنا ضـجيج المطر وكل منا يتـحـدث دون أن يسـمـعـه الآخـر بشكل جيـد ، كنا نقص شيئًا من أحداث الحياة والآمال وكل منا يمسك بالآخر.

– كيف سينتهى هذا الأمر؟ سأل إرنستو .

كنت أقـول بين الحين والآخـر أن ذلك سـوف يفـقـد مـغزاه مـع مـرور الأيام وسوف يتحول إلى شىء غير معروف وبعيد ومُخَلِّص، وإجابة .

***

J. MARIAS

خابيير ماریاس

ولد فى مدريد عام ١٩٥١ ، ألّف عدة روايات منها "أملاك الذئب" (١٩٧١) ملك الزمن (١٩٧٨)، الرجل العاطفى (١٩٨٦) بالإضافة إلى مجموعة قصصية "بينما هن نائمات" (١٩٩٠).

***

رحلة شهر العسل

شعرت زوجتى بالإرهاق ، فعدنا إلى حجرتنا فى الفندق ، ولزمت هى السرير ، بها أعراض الغثيان وبعض الارتفاع فى درجة الحرارة والرعشة ، لم نشأ أن نتصل بالطبيب أملاً فى أن تزول هذه الأعراض سريعًا ، كما أننا كنا فى شهر العسل ، وهى فترة لا نريد لأى غريب التدخل أثناءها رغم أن ذلك قد يكون مجرد فحص طبى ، ربما كان ما تعانى منه هو بعض فقدان التوازن ، أو بعض المغص ، أو أى شىء من هذا القبيل ، كنا فى أشبيلية ، فى أحد الفنادق التى بعدت عن جلبة حركة المرور ؛ فقد كان أمامه ما يشبه الميدان الذى يباعده عن الشارع الرئيسى ، وبينما كانت زوجتى نائمة (بدا أنها استغرقت فى النوم عندما ذهبت بها إلى السرير وألحفتها) قررتُ التزام الصمت ، والحلّ الأمثل

للقيام بذلك وعدم إحداث أى جلبة أو الحديث إليها ، للخروج من الملل ، هو أن أطل من الشرفة وأرى الناس – أهل أشبيلية – وهم يسيرون فى الشارع وكيف يفعلون ذلك ، وكيف يرتدون ملابسهم ويتحدثون ، ورغم ذلك لم يصل إلى أذنىّ إلا همهمات نظراً للبعد النسبى للشارع والضوضاء المرورية ، جال بصرى دون أن أحدّق فى شىء معين ، مثل تلك النظرة الأولى التى يلقيها من ذهب إلى حفلة ويعرف مسبقًا أن الشخص الوحيد الذى يهمه لن يكون هناك، لأنها بقيت فى المنزل مع زوجها، هذا الشخص الوحيد كان معى وخلف ظهرى وأسهر على راحتها ، كنت أنظر إلى الخارج وأفكر فى من فى الداخل، لكنى سرعان ما اخترت شخصية معينة ، بغض النظر عن باقى المارة فهى خلافًا لهم بقيت ثابتة فى مكانها بلا حراك ، كانت امرأة تبدو من بعيد وكأنها قد بلغت الثلاثين من العمر، كانت ترتدى بلوزة زرقاء لا يكاد يكون لها أكمام ، بالإضافة إلى تنورة وحذاء كعب عالى لونه أبيض ، كانت تنتظر أحداً ، فوضعها هكذا لا يمكن تفسيره بغير ذلك ، فهى تخطو عدة خطوات إلى اليمين وأخرى إلى اليسار كل هنيهة ، وتجرجر الكعب فى الخطوة الأخيرة سواء بهذه القدم أو بتلك تعبيراً عن نفاد صبرها ، كانت تعلّق فى ذراعها شنطة حريمى كبيرة مثل تلك الشنط التى كانت تحملها الأمهات أيام صباى ، هى شنطة كبيرة سوداء اللون ومعلقة على الذراع بطريقة تقليدية ومعهودة ، أى أنها لا تحملها على كتفها كما تفعل النساء اليوم ، كانت ساقاها ممتلئتين بعض الشىء ترسلان الشعور بالقوة على الأرض فى كل مرة تتوقف فيها المرأة عن سير تلك الخطوات الثلاث ثم العودة إلى نفس النقطة ، وجرّ الكعب فى الخطوة الأخيرة ، وبلغ الأمر بهذا الامتلاء إلى أنهما يصرفان النظر عن الكعبين العاليين بحيث يتخيل

المرء أنهما تطأن الأرض وكأنهما سكين يضرب فى خشب مبتل بالمياه ، أحيانًا ما تثنى إحدى ساقيها لتنظر إلى الخلف وتصلح من هندام التنورة وكأنها تخشى أى نوع من التجاعيد يشوّه العجز ، أو ربما كانت تقوم بضبط الملابس الداخلية المتمردة من خلال الملبس الذى ترتديه فوقها .

كان ضوء النهار ينسحب رويداً، وكلما قل الضوء ، رأيتها أكثر عزلة ووحدة ، وربما ستظل فى الانتظار بلا أمل ، فلن يأتى إليها أحد فى الموعد الذى اتفق عليه ، ظلت وسط الشارع ، لم تكن تستند إلى الحائط كما يفعل ذلك عادة من ينتظرون موعداً فى الشارع ، حتى لا يضايقوا المارة ، ولذلك واجهت بعض المشاكل حتى لا تتعثر بالمارة ، وقد وجه إليها أحدهم عبارة ما ، فأجابته بغيظ وهددته بضربه بالشنطة الكبيرة .

رفعت ناظريها فجأة نحو الطابق الثالث الذى أقيم فيه، وبدا لى أنها تحملق فىّ لأول مرة ، تفحصت بناظريها وكأنها شخص يعانى من قصر النظر أو يضع عدسات متسخة ، ورمشت بعينيها قليلاً حتى ترى بشكل أفضل وبدا لى أنها تنظر إلىّ ، لكننى لم أكن أعرف أحداً فى أشبيلية ، والأكثر من ذلك فهذه أول مرة أزور فيها تلك المدينة فى رحلة شهر العسل هذه ترافقنى الإنسانة التى عقدت قرانى عليها منذ قليل ، وهى التى ترقد مريضة خلفى ، ليت الأمور تعود إلى سابق عهدها ، سمعت همهمة صادرة من السرير لكننى لم أُدِرْ رأسى ذلك أنها كانت نوعًا من الأنين أثناء النوم ، والمرء سرعان ما يتعلم تمييز صوت النائم الذى أصبح شريك حياته ، كانت المرأة قد خطت بضع خطوات فى اتجاهى ، كانت تعبر الشارع ، وتتفادى السيارات دون أن تعبر من

المنطقة المخصصة للمشاة وكأنها تريد بذلك الاقتراب بسرعة للتأكد ولتراني جيداً وأنا أطلّ من شرفتي ، ومع ذلك كانت تسير ببطء وببعض الصعوبات ، وكأنها غير معتادة على الكعب العالي أو كأن سيقانها الملفتة للانتباه لم تكونا مهيأتين لذلك ، أو أن الشنطة كانت تفقدها توازنها ، أو أنها كانت تشعر بشيء من فقدان التوازن ، كانت تسير مثلما سارت زوجتي عندما شعرت بالإرهاق ودخلت الحجرة ، قمتُ بمساعدتها في خلع ملابسها والخلود إلى السرير وتغطيتها .

عبرت المرأة الشارع وأصبحت الآن أكثر قرباً ، لكن كانت هناك مسافة، وكانت بمبعد عن الفندق مسافة الميدان الذي يباعده عن جلبة المرور، تسير وناظريها مرفوعان ، تحدّق نحوي أو على المستوى الذي أنا فيه ، وعندئذ صدرت عنها حركة بذراعها ، لم تكن حركة تحية أو اقتراب ، أي اقتراب من أحد الغرباء ، بل كانت حركة تنم عن التعرف كما لو كنت أنا الشخص الذي تنتظره ، وكأنها بحركة ذراعها التي يتوجها حركة التفاف سريعة من أصابعها تريد الإمساك بي وتقول : "تعال إلى هنا" أو "أنت ملكي" ، كما صدرت عنها عبارة قالتها بصوت عال لكنني لم أستطع سماعها، ورغم ذلك فهمت أول لفظة من حركة شفتيها "هه" قالتها ساخطة مثل باقي العبارة التي لم أسمعها ، وواصلت تقدمها ، أصلحت الآن من وضع تنورتها ، وكأن هناك من يتأملها ليحكم على بنيتها الجسدية وأن تنورتها على وشك السقوط عنها ، في هذه اللحظة استطعت الاستماع لذلك الذي تقوله : هه ! لكن ماذا تفعل هنا ؟ كانت الصيحة مسموعة جداً ، واستطعت رؤية السيدة بشكل أفضل ، ربما زاد عمرها على ثلاثين عامًا ، ورغم أن عينيها ترمشان فقد بدتا واضحتين رماديتين أو بلون البرقوق ، أما الشفتان فهما ممتلئتان

والأنف عريض بعض الشيء وفتحتاه منتفختان بسبب ما عليه هي من غضب ، لابد وأنها تنتظر منذ مدة طويلة ، أي أطول من تلك المدة التي انقضت منذ أن وقع نظري عليها ، كانت تسير في تمايل ثم تعثرت وسقطت على أرض الميدان ، واتّسخت تنورتها البيضاء في الحال وانخلعت منها فردة حذاء، استجمعت قواها بشيء من الجهد لكن دون أن تحاول لمس الأرض برجلها الحافية وكأنها تخشى أن يتسخ بطن رجلها خصوصًا وأن من واعدها قد جاء فربما شاء الرجل أن يراها نظيفة القدمين ، استطاعت انتعال فردة الحذاء دون أن تسند رجلها على الأرض ، نفضت تنورتها وصاحت : "لكن ماذا تفعل هناك ! لماذا لم تقل لي بأنك صعدت ؟ ألا ترى أنني أنتظرك منذ ساعة ؟" وفي الوقت الذي كانت تنطق فيه بهذه العبارات عادت لتصدر عنها نفس حركة اليد السابقة ، أي أنها ضربت بذراعها في الهواء مع التفاف سريع من أصابعها ، كانت كأنها تقول لي "أنت ملكي" وإلا "قتلتك" ، أو أنها بحركتها يمكن أن تمسك بي وتجذبني بمخلبها ، صاحت كثيراً هذه المرة ، وكنت أنا بالقرب منها لدرجة خشيت معها أن توقظ زوجتي النائمة في السرير .

– قالت زوجتي بصوت واهن : ماذا يحدث ؟

نظرت إلى الوراء فوجدتها جالسة في السرير وتبدو علامات الفزع على عينيها ، وكأنها مريضة تستيقظ، لكنها لا ترى شيئًا ولا تعرف أين هي ، أو لماذا تشعر بهذه البلبلة ، كان نور الحجرة مطفأ ، وبدت في هذه اللحظة كواحدة من المرضى .

– فأجبت : لا شيء نامي وارتاحي .

لكن لم أقترب منها لمداعبتها وتهدئتها مثلما يمكن أن أفعل ذلك فى ظرف آخر، ذلك أننى لم أتمكن من مغادرة الشرفة ، كما لا أكاد أباعد نظرى عن تلك المرأة ، التى كانت على يقين بأننى كنت على موعد معها ، ها هى الآن ترانى بشكل جيد ، كان مؤكداً أننى هو الشخص الذى اتفقت معه على الموعد ، أى الشخص الذى كان السبب فى معاناة الانتظار، وأنا الشخص الذى أغضبتها بتأخرى كثيراً ، "ألم ترنى وأنا أنتظرك هناك منذ ساعة ، لماذا لم تقل لى شيئًا؟" كانت تصيح غاضبة فى هذه اللحظة وقد توقفت أمام الفندق تحت الشرفة التى أطل منها "سوف تسمعنى جيداً ! سوف أقتلك !" قالت ذلك بصوت عال ثم صدرت عنها حركة الذراع ، تلك الحركة التى تمسك بى .

عادت امرأتى للسؤال وهى منزعجة بينما هى فى السرير – ماذا يحدث ؟ وفى هذه اللحظة رجعت إلى الوراء وواربتُ باب الشرفة ، لكننى قبل أن أفعل ذلك أمكن لى أن أرى أن المرأة التى فى الشارع بما تحمله من شنطة على الموضة القديمة وحذائها ذى الكعب العالى الرفيع وساقيها الممتلئتين وخطواتها المتعثرة وهى تختفى من حقل الرؤية عندى ذلك أنها دخلت الفندق وتهيأت للصعود بحثًا عنىّ ، وأن يكون للموعد المتفق عليه مكان ، شعرت بفراغ عندما فكرت فيما يمكن أن أقوله لامرأتى المريضة لأفسّر لها هذا التدخل الذى كان على وشك الحدوث ، كنا فى رحلة شهر العسل ، وفى هذه الرحلة لا يريد أحد تدخلاً من الغرباء ، ورغم أننى لم أكن غريبًا ، على ما أعتقد ، فى نظر من كانت تصعد السلالم، شعرت بفراغ ، وأغلقت باب الشرفة وأعددت نفسى لفتح الباب .

***

J. G. SANCHEZ

خابيير جارثيا سانشيث

ولد فى برشلونة عام ١٩٥٥ ، نشر عدة مجموعات قصصية من بينها "نظرية الخلود" (١٩٨٤) ونقد العقل غير المحض (١٩٩٢) هذا بالإضافة إلى عدة روايات منها "القصة المحزنة" (١٩٩١) التى حصل بها على إحدى الجوائز القصصية .

***

العالم بالفراسة

لم يكد يُعيرنى انتباهًا عندما عرفته ، كان إنسانًا متفتحًا ومتقلبًا ، من ذلك النوع من الناس الذين يستأثرون باهتمام الآخرين بثرثرته وبعباراته المفخمة، التى يلجأ إليها البعض عندما يريد الحديث عن أمر ما .

أقول ، لم يوجّه إلىّ إلا القليل من كلمات فيها نوع من الابتذال ، للخلاص من الموقف الذى وُضع فيه ، لا أتذكر ماذا كانت ، لكن أصبحنا صديقين حميمين مع مرور الأيام ، وكما أشرت قبل ذلك فإن مَلْحَمَة الرئيس هو ما عليه من موهبة طبيعية تتمثل فى اجتذاب الناس إليه أيًا كانت مشاريعهم ، ومن المحتمل أن يكون عمره خمسة وثلاثين عامًا ، له لحية وشعره قصير ، أنفه معقوف وعيناه سوداوان وعميقتان ، يقوم

بالترجمة من الإنجليزية على أساس أنها المصدر المعتاد لدخله، ورغم أنه لا يحمل بطاقة الصحفى فقد كان يكتب مقالات فى المجلات المتخصصة فى عالم السينما ، كان الكثيرون يشعرون بالمفاجأة، لذاكرته بشأن ذلك الموضوع ، فقد كان عبارة عن أرشيف حقيقى متنقل يغصّ بالبيانات ، لكن من الصعب أن يزهو بذلك الوضع، رغم أنه يقف به فى وضع مميز عن الآخرين ، وخاصة عندما يدور نقاش حول السينما ، ظُرفه يسير جنبًا إلى جنب مع هذه القدرة الكبيرة .

حكى لى البعض أشياء أخرى عنه، مثل بعض الطرائف والمواقف ، وهى أشياء غير ذات أهمية ليس هناك مجال لذكرها ، ومع ذلك أقول بأن الجانب الذى استحوذ علىّ فى هذا النمط غير الشائع مع الرجال هو شىء كنت أريد التأكد منه بعينى رأسى رغم أننى أعرف بعض الأمور عنه ، ألا وهو التحقق فيما إذا كانوا مبالغين أم أنه فى الحقيقة عالم بالفراسة عن جدارة .

لم أجرؤ فى البداية على سؤاله عن ذلك بطريقة مباشرة، كُنا نتحدث كثيراً – هو بصفة خاصة ، وعندئذ ظننت أنه من المناسب تركه ليعبر عن نفسه ، أتذكر أنه أخذ إحدى المجلات وأشار إلىّ كى أنظر إلى صورة لرجل ضخم الجثة قوى البنيان يضرب بسيفه فى الهواء ، كانت لقطة من فيلم .

فقال :

– أترى ذلك الوجه ؟ فأجبت بنعم بإيماءة من رأسى .

فأضاف مبتسماً :

خمّن من هو؟

لم يكن أمامى إلا الاستسلام أمام تلك البديهة ، والاعتراف بأنه رغم ما بذلت من جهد لم أتمكن من الإدلاء بالدلالات التى كان يريدها ؟

فقال مزهواً :

– إن ذلك القوى الهُمام هو الذى يظهر على غلاف اسطوانة تضم مختارات من موسيقى الروك التى تعود إلى الستينيات، وأخذ يتذكره الآن، رغم التغيير البديهى الذى طرأ على شكل الشعر والهيئة والحالة السيئة لصورة الغلاف.

استطعت أن أشجع فيه – بشكل لا إرادى تقريبًا – هذا الشغف الدفين بالبحث عن وجود شبه بين الأفراد ، كان الأمر بمثابة لعبة بالنسبة لي ، وكان من السهل استثارته وتحدى خصوبة خياله ، وانتهى الأمر بتحوّل ذلك إلى هوس ظاهر للعيان وبدرجة تزيد عما كنت أريد ، واذكر على سبيل المثال أننا أحيانًا نشاهد التليفزيون وعندئذ لا يستطيع أن يكبح جماح نفسه من إصدار تعليقات مثل : "هذه المذيعة تشبه رئيس ذلك البلد" أو يقول أثناء نقل إحدى المباريات "تأمل جيداً وجه ذلك الحكم، انظر إليه جيدا : يبدو أنه أخ توأم لزوجة الخبّاز" ، وعادة ما كان مصيبًا فى أحكامه الأمر الذى كان مثار مفاجأة لي وتسليتى أيضًا ، هو الفائز الوحيد فى هذه المعضلة الصعبة الخاصة بالخطوط العامة والملامح .

سافرنا إلى نيويورك بعد ذلك ببعض الوقت، يرافقنا عدد من الأصدقاء ، وهناك بلغت مهارته كعالم بالفراسة أقصى مدى لها ، كنا نتمشى فى أحد الشوارع الكبرى فى وسط المدينة ، وفجأة أخذ يؤكد أنه رأى إحدى زوجات ميكى رونى Mickey Rooney داخل التاكسيات رغم

مرور السنين وما عليها من شيخوخة ورغم النظارة السوداء التي تضعها على عينيها ، لم يشك أحد فى ذلك، كذلك وثقنا بما قاله عندما قال، بلهجة جادة، عندما كنا نسير فى الطريق الخامس:

– أيها السادة لقد مررتم الآن بابنة جارى كوبر Gary Cooper واضحة الملامح ولا تخطئها العين .

لم يكن يستطيع مداراة زهوه عندما قمنا مرة أخرى بالاطلاع على الموسوعة السينمائية للتحقق من نجاحه الجديد.

تعرضت صداقتنا – كما هى العادة – لصعود وهبوط إلا أن مردّ ذلك هو مشاكل جانبية، ناجمة عن ظروف خارجة عن إرادة كلينا ، وعندما كنت فى منزله ذات مساء أخذنا نتحدث عن أشياء بشىء من الهزل رغم أنه يعتبرها جادة مثل الإيمان والوجود والحياة ، أتذكر أننى كنت الذى ينتهز اللحظة المعينة لأبتعد عن الحديث فى تلك الموضوعات ، عندما أرى تقطيب جبينه وهو يراقبنى ، كان يشع من عينيه وميض غريب ، ويصل إلى عينىّ بطريقة قوية وحادة لدرجة أننى ارتبكت ، كانت يداه تنضحان عرقًا ثم أخذ يهم بالنهوض من مقعده ، فى الوقت الذى بدأت ملامح الامتقاع ترى على وجنتيه ،.اصفرّ وجهه حتى أصبح بلون الشمع ، انفرجت شفتاه بعض الشىء وكأنه يريد أن يقول شيئًا لكنه لم يفعل إلا نطقه كلمة "أنت ؟" بصوت واهن ، وكان يكررها كثيرًا فى الوقت الذى يتراجع فيه إلى الخلف .

قلت له :

– كيف تأخرت كثيرًا فى إدراك ذلك ؟ وأنا أحاول أن أكون هادئًا بأقصى ما أستطيع .

لكنه لم يكن يسمعنى ، حاولت تهدئته قائلاً له بألا يقلق ومقللاً من شأن ما تركته له على الحاجز دون أن أتلفظ بكلمة.

قلت :

– لا عليك سوف ترى أنه لن يحدث أى شئ .

وأخذته .

***

AGUSTIN CEREZALES

أغسطين ثيريثالس

ولد أغسطين ثيريثالس فى مدريد عام ١٩٥٧ ، ترجم العديد من الكتب ، ونشر الكثير من المقالات ، أضف إلى ذلك تأليف بعض الأعمال منها : "كلاب خضراء" (مجموعة قصصية ١٩٨٩) "سلالم على الأعراف" (١٩٩١) "قناع من الظلال".

***

ملف تحت الدراسة

باسيلى أفانيسيف

وصل باسيلى إيليش أفانيسيف إلى بلدة "مدينة دل كامبو" **Medina del compo** فى يوم شديد الحرارة من أيام شهر أغسطس ، وأضحت الحقول القليلة وكأنها مجرد سراب يرتعد على الجانب الآخر من النافذة الصغيرة ، وعندما نزل من القطار، ودلف بين تلك المنازل التى لا طعم لها ولا لون والتي تتناهض نظراته القصيرة الخائفة ، وعندما وطئت قدماه الأسفلت الذى لان تحت وقع خطوات ذلك الزائر الذى يحترم المكان الذى نزل فيه ، شعر بأن روحه ما هى إلا أنين عميق لا نهاية له وأنها جياشة لرؤية الحقول المزهرة فى مسقط رأسه " أوكرانيا".

لم تداعب خيال باسيلي إيليش فكرة الخروج من بلده رغم أن ذلك قد يبدو غريبًا، كما أنه ، خلافًا لما هو عليه الكثير من مواطنيه ، لم تخطر على باله فكرة زيارة موسكو أو لينينجراد ، وبذلك فإن سلواه في هذه اللحظات هي الأمل في أنه سرعان ما سيعود إلى منزله .

في الحقيقة ليس هناك في شخصه أو دراسته أو قدراته أية ميزات تجعله جديراً بالمهمة التي أوفد من أجلها، فهو لا يعرف شيئًا عن الأغنام أو عن طرق تربيتها أو عن "جزّها" أو عن صوفها أو عن تقنيات وجَودَة المنتج في موطن إنتاجه ، وإذا ما كان هناك شيء يفهمه هو المنتج المعدّ للتوزيع خصوصًا وأنه آخر جيل في أسرة كانت تدير، على مدى أعوام طويلة، أفضل محل لبيع الخردوات في المدينة وهو محل نجا بأعجوبة من القوانين الثورية ، ويمكن للزبون الجيد أن يعثر فيه على بضاعة جيدة ، ورغم أنه تابع للدولة الآن، إلا أن أحداً لم يفكر في أن ينتزع من على الحائط اليافطة التي تذكر بأن القيصرة ألكسندرا قد مرت بهذا المكان منذ قرن مضى ، وذلك عندما كانت في إحدى رحلاتها الصيفية إذ أمرت بأن يتوقف الركب أمام المحل ثم نزلت ودخلته وذلك لتطلب كوبًا من الليمونادة وشراء بكرة من الخيط الذهبي وقد تصوّر البعض أنها سوف ترتق بها أحد جواربها.

تربّى باسيلي في ظل تلك اليافطة تحيط به الخيوط والإبر والأشرطة والكريتون وبنس الشعر والجوارب الحريمي وقطع القماش وأقماع الخيّاطين والقماش القطن أورجاندي **Organdi** والكنارات والأزرار ، كان كل شيء معداً في مكانه داخل صناديق من الكرتون ، وملفوفًا في ورق حريري لا رائحة له ، اللهم إلا النظام والدقة التي تعكس الحب الشديد الذي يكنه للمكان العم جريجوريو الذي ورثه عن الجد فيدور

الذى حافظ عليه واعتنى به عناية شديدة فقد كان رجلاً فصيح اللسان سريع البديهة استطاع أن يتحول دون مشاكل من مالك إلى مجرد موظف حكومى .

بدت له "مدينة دل كامبو" مكانًا تعسًا منذ أول لحظة نزل بها لدرجة أنه بعد فترة قصيرة أخذ يفكر فى أنها مكان تخيلى أكثر منه حقيقى ، وكأن ذلك نوع من الدفاع البديهى ، وبالتالى فالصورة التى ارتسمت ما هى إلا محصلة كابوس يعيشه أو أنها نوع من التصدع اللامنطقى فى بنية الكون : هذه الفكرة ، هى التى ستؤكد ذاتها مع مرور الزمن ، كما أنها لم تتعرض للشك، أو تتخلى عن رأسه اللهم إلا على سبيل المجاز .

كان يشعر بفظاعة رائحة الأغنام وثغائها وصيحات الرعاة الذين يتاجرون فيها، هذا الشعور لم يتزحزح قيد أنملة عندما كان يذهب إلى السوق ، بصفة مراقب إذ كان فى انتظار وصول المترجم الذى سوف يمد له يد العون عندما يقوم بالخطوات الأولى ، وربما يتولّى تعريفه بالمهمة التى أوفد من أجلها ، فى البداية كان يرى أن الأغنام الأسبانية تفوح منها رائحة أكثر كراهة من الأغنام التى تُربّى فى بلده وأن السوق شىء فظيع وأن اللغة المستخدمة تتسم بالفظاظة وأن المدينة ما هى إلا سجن كبير، وقد أدخل كل هذا فى مقارنة مع المعاملة الطيبة التى يتلقاها سواء من أهل بلده أو الأشياء المحيطة به تحت السماء الصافية الزرقاء لجمهوريته .

قضى السيد باسى (هذا هو الاسم الذى أخذت تناديه به السيدة / لوكريثيا صاحبة البنسيون) أو من تديره – لا أحد يدرى –

خلال الشهور الأولى فى مدينة "دل كامبو"، وقد أصابه ضجر فلسفى إذ كان ينتظر المترجم الذى لم ولن يظهر أبداً ، كان يقضى وقته بالتجوال فى الشوارع ويطل على المخزن القذر لـ ثابارديل Zapardiel ، كما كان يستنفد جزءاً من وقته فى كتابة رسائل لحبيبته ناستاسيا فيدروفنا ، كانت تلك الرسائل موجزة فى البداية، كما كانت مفعمة بالرقة والعشق وكأنها جزازات اقتنصت من الروح فى لحظة شفافية تمرق بسرعة فيقوم بتجفيفها تخليداً لذكراها ، إلا أن تلك الرسائل سرعان ما تحولت إلى طلبات مطولة ، فناتاشا هى الفتاة التى تواعدت معه على الزواج، وهى آخر من بقى له من جذوة طيبة ، وهى أيضاً الفتاة التى دبّرت ونظّمت ، أو باختصار شديد هى المسئولة عن هذه الرحلة إلى دولة من دول المعسكر الرأسمالى .

تمثل المشروع فى أنه عند عودته – ومن خلال المساعى الحميدة لوالد ناستاسيا الزعيم المحلى للحزب – سوف يتم تصعيده – باسيلى – إلى منصب المسئول عن التموين، أو أن يشغل منصب المسئول عن المخازن المحلية ، ورغم أن هذا المنصب الأخير يتسم بالتواضع إلا أن الصداع يدور حوله لأسباب لا يتسع المقام لذكرها ، ولم يجد دفاعه ولم تنفع حججه لتفسير قلة طموحه الذى كان يتمثل فى البقاء فى محل الخردوات، كما لم يُجد تضرّعه لناتاشا فى أن تحدد موعد الفرح ، وألا تسوّف مرة أخرى ، أما هى فقد أبدت صرامة فى عدم تزحزحها عن رأيها، وفى يوم من الأيام – يوم طيب أو يوم نحس – جاءته الأوامر بأن يقدم نفسه إلى الإدارة المركزية حيث سلّموه تذكرة قطار وكوبونات وبدلات وجواز سفر وتعليمات محددة .

كانت إجابات حبيبته تتسم بالوله وتتسق مع خطاباته : فهى شاعرية عندما كان هو كذلك ، وهى فظة عندما طرأ عليه تحول مماثل ، كما أنها تكرر نفس الشيء بالنسبة لعودته، إذ كان عليه أن يزيد من رصيد قدراته وينتظر ، ولم تكن هى اللحظة المواتية حتى يغامر بضياع كل شيء وخاصة عندما تم الحصول على أصعب شيء ، كان ابن عمه إيفان يرد عليه بكلمات مشابهة ، إلا أن هذا الأخير كانت لديه أسبابه التى تجعله لا يرغب فى عودته، فقد حل محله فى العمل أثناء غيابه.

وعندما رأى باسيلى أن الرد عليه هو مزيد من فقدان الأمل لم يجد أمامه إلا تفريغ شحنات فى رسائله وكأنه يفضفض عن متاعبه ، ورغم ذلك لم يقبل بالهزيمة وقرر تنفيذ خطته التى تُشرّفه بأنه مقدام وتنزع عنه صفة الجبن التى ألصقت به، وقد بدأ بنفسه فى كل صباح، فعندما كان يطل فى المرآة يغمض عينيه ويحاول أن ينسى ملامحه، ورغم ذلك كان لا مناص من عودتهما من جديد فى اللحظة التى كان يفتحهما فيها، رغم أنه أحيانًا ما كان يشعر، ولو للحظة ، بالاستغراب الذى يصبو إليه.

فى هذه الأثناء أخذ السيد/ باسى يصوغ لنفسه فى "مدينة" حياة منتظمة وعادية بأن أقام بعض العلاقات وأخذ مستواه يتحسن بعض الشيء فى اللغة الإسبانية ، كان يعيش فى بنسيون "دوس موندوس" Dos Mundos الذى تديره السيدة / لوكريثيا ، كما لا يعرف أحد بشكل واضح، المغزى من وراء اسم البنسيون الذى يوجد فى قلب إقليم قشتالة ، فربما لم يكن الاسم يشير إلى النظام الذى يطبق بصرامة فى

البنسيون ، والخاص بالفصل بين الجنسين وهو نظام أقرته السيدة لوكريثيا أو أحد أجدادها.

المبنى القديم يتوزع فعليًا بين عالمين: فالجناح الشمالى يقيم فيه المسافرون أو أصحاب المعاشات من الجنس الآخر ، أما الجناح الجنوبى فهو المكان الذى تقيم فيه السيدات ، لم تكن السيدة لوكريثيا تسمح بإقامة الأزواج أو أى نوع من الثنائيات التى تجمع بين الذكر والأنثى ، ولا يكاد يوجد بين العالمين شىء مشترك بما فى ذلك الصحن الرئيسى للدار الذى تفتح فيه الممرات الخاصة بكل واحد من الجناحين ، ورغم كل شىء ، ورغم المصاعب ، من الممكن أن يكون هناك اتصال أكثر بين العالمين ، حتى ولو كان مجرد رؤية كل واحد للآخر ، فى حالة عدم وجود طريق آخر للانتقال من مكان إلى مكان فى الداخل، كما كان عليه الحال قبل ذلك بوجود طريق للاتصال بقطاع السيدات الذى يعفيهن من تعريض أنفسهن للطباع الجافة لأهل الهضبة (كل ذلك فى حالة وجود ذلك النوع من المقيمين ، إذ كان السيد / باسى يشك فى ذلك – وهو يشعر بشىء من المتعة – حتى ظهرت بطريقة مفاجئة وسيلة للاتصال بين العالمين وأزاحت عن نفسه بعض الشك والحيرة) .

لقد أقام فى ذلك البنسيون لأنه يوجد فى مواجهة محل صغير لبيع المناديل وهداه حَدْسه إلى أنه مناسب وفيه نوع من الخلاص (كان ذلك هو حال الأمور التى يعيش فى خضمها بعد أن وصل بقليل، وهذا ما ظل عليه حتى النهاية) ، وقرر البقاء فى البنسيون لسعته ورحابة حجراته وجوّها البارد، وقد فكّر ذات مرة فى أن هذه السعة هى نفس حجم ما يعيش فيه من عزلة

لا يهم كثيراً التفكير فى أهمية تلك القرارات، فهو - على أى الأحوال - يولى تصرفاته نوعًا من القيمة النسبية ، مثل تلك النسبية التي ينظر بها إلى واقع وجوده فى هذا المكان الجديد التعس الذى هو مرحلة "مدينة - دل كامبو" لكن ذلك لا يعنى أن تلك التصرفات لم تعد منسجمة مع بعضها البعض، فهناك منطقية فى حلقات الأسباب والمحصلة : كان للسيد باسى سلوكياته وأخلاقه التي يتمسك بها حتى فى أحلامه .

صدق حَدْسه بالنسبة لمحل بيع المناديل، فالسيد/ إيرموخينيس بيلايو Hermogenes Pelayo - فى الاتحاد السوفيتي - كان سيتقاعد منذ سنوات مضت طبقًا للقانون المعمول به ، ولم يكن هناك مناص إلا تسليم المنصب إلى من هو أقرب منه ، أو إلى أى شخص لا يعرفه مثلما كان العم جريجورى على استعداد للقيام بنفس الخطوة ، ومن الواضح أن ذلك الأخير لم يكن ليترك المحل لتقاعده ، إذ إن هناك أكثر من وجه للشبه بينهما ، فإيرموخينيس كان صغير الحجم لكن له أذنان كبيرتان ، أما جريجورى فكان طويلاً ومتين البنيان ، وليس هناك انسجام بين هيئته والبضاعة الصغيرة الحجم التي يبيعها ، كان إيرموخينيس كثير الكلام ، أما جريجورى فالاقتضاب من طبيعته غير أن كليهما له نفس السّنطة فى الأنف وهذه تجعل باسيلي يشعر بالحنان الذى يريح القلب ، لدرجة أنه فكر ذات يوم لو أن من الممكن أن تكون له نفس تلك السّنطة وربما انتهى به الأمر عندئذ إلى حبّه لنفسه.

ونظرًا لطباع السيد/باسى كان من الممكن أن يفضل لو أن علاقته بمالك محل " Elegante" مجرد شيء طارئ يطيب له أن يفضي ببعض أسراره ولكن إلى حد معين ، وبنفس الطريقة التى كان معتاداً عليها

بالذهاب لتناول طعامه كل يوم فى مطعم إيديال Ideal (وهو المطعم الأرخص تكلفة ، ولم يكن يفعل هذا للادخار رغم أنه قد يدخر بالفعل) ولم يخطر بباله أبداً أن يحتج على أى تغيير سواء فى التعامل أو نوعية الطعام – وذلك فداء للاستمرار والراحة المتبادلة – بهذه الطريقة بدأ فى التردد على محل السيد/ إيرموخينيس، وأخذ يجمع سلسلة من المناديل (فهذا من الحرير ، وذاك الآخر من الكتان ، أما الثالث فهو من قماش الباتيستا ، أو القطن، وهذا له حاشية ، وذلك الآخر بدونها ، وهذه التطبيقة على شكل مثلث ، أما تلك فعلى شكل مربع ، هناك بعضها للمناسبات الهامة ، وبعضها الآخر لمجرد أداء الواجب) وكل هذا يفعله كنوع من الاستجابة الغريزية المتمثلة فى تنفس الجو العام ، لكن دون أمل فى أن يقوم صاحب المحل بجعله يدخل إلى المخزن الملحق، لكنه فعلها فى يوم حسن الطالع، حيث دعاه أو دفع به لتناول كأس من الفودكا الصافية والممتازة – لكنها لم تكن إلا عصير عنب (على أية حال لم تكن الفودكا تروق للسيد باسى) ، كما جعله يدرك، رغم الصعوبات اللغوية – من خلال الثغاء وإيماءات بالرأس وتبييض عينيه واللجوء إلى استخدام كلمات بالإيطالية والتقليد الصوتى لحركة القطار وكلها حركات كان يمكن أن تضحك أى إنسان ما عدا الأوكرانى رابط الجأش – جعله يدرك أنه يعرف المهمة التى من أجلها قَدِم – وهو يعرفها بشكل أفضل منه بكثير – ويعرف السبب فى إقامته الغريبة فى "مدينة دل كامبو" كما يعرف جنسيته السوداوية.

أعرب السيد باسى عن شكره العميق لكل هذه الحفاوة ونطق ببعض عبارات الاعتذار بالإنجليزية (كان يفترض دائمًا أن الأسبان

جميعهم يتحدثون الإنجليزية ولكن بشكل غير جيد، كما أنه قد لا يتعود أبداً على السيد / إيرموخينيس الذى كان ينصت بغير كبير استغراب إلى عبارات التعجب الروسية التى ينطقها لكنه أكثر استغراباً فيما يتعلق بتلك التى من أصل أنجلو ساكسونى ، ولما شعر بالفزع من الانهيار الجليدى كان يرفض معرفة أن الجميع على علم بوضعه ، أخذ على نفسه عهداً ألا يعود ، وانسحب إلى البنسيون حيث ظل حبيساً فيه لبضعة أيام وقد صمم على الإبقاء على عزلته وأخذ يفكر فى خطة تساعد على عودته إلى داره .

خلال الصيف كان بنسيون "دوس موندوس" كأنه إناء ماء بارد تفقد فيه الأفكار أى صفة من صفات الجاذبية الأرضية، كما كان يظل على هذه الحال ، لكن الماء يتحول إلى ثلج حيث تتبلور الأفكار وتظل جامدة لا حراك فيها .

نادى السيد / باسى بأنه يتم تزويد الدُش بمياه ساخنة، فاحتجت السيدة لوكريثيا ، وانقضت عدة أيام دون أن يتم التوصل إلى حل للموضوع ، وبعد ذلك تحدّت السيدة لوكريثيا السيد باسيليو بأن يتولى هو إصلاح الغلاية الألمانية القديمة – إذا ما استطاع – وهى الجهاز الذى يزود الحمامات بالمياه الساخنة ، فقد تعطلت منذ سنوات طويلة مضت عندما تحت إقالة آخر العمال ، كان ذلك بعد وفاة زوج السيدة لوكريثيا ، ومنذ ذلك التاريخ تدهور حال المنزل ، ولم يكن السبب الرئيسى هو عدم وجود المياه الساخنة فى الحمامات ، فلم يطالب أحد بذلك حتى تلك الآونة ، وإنما لأن السيدة لوكريثيا لديها عقدة غامضة تقول بأن من المناسب لوضعها كأرملة أن تكون واجهة الدار فيها بعض التقادم والمسكنة البدائية ، بدلاً من الازدهار التجارى الذى كان من

الممكن أن يكون عليه المنزل ، ولو اقتصر الأمر على العدد الكبير من تجار المواشى الذين كانوا يأتون للسوق .

استطاع السيد/ باسى الانتصار على نفسه وأصلح الغلاية التى لم تكن بها أية مشاكل اللهم إلا جثة قط محشورة فى إحدى المواسير وقد احترقت من السخونة ، وبمجرد تنظيف الماسورة عادت الغلاية القديمة ماركة Krupp لتعمل من جديد كأول يوم تم فيه تركيبها ، ولم تكد تظهر حاجة إلى لحام أية مواسير تسربت منها بعض المياه من وقع المفاجأة .

كان السيد باسى على وشك الولوج إلى "العالم الآخر" بفضل جهده فى إصلاح الغلاية ، لكن لم يكن الحظ حليفه، ولم يكن هناك مخرج إلا الرضا بالمرور عدة مرات أمام باب موارب تصدر منه رائحة مختلفة ، ولما عادت الغلاية تعمل من جديد فقد ظهرت للسيدة لوكريثيا مشكلة مثل القيام بإشعالها مسبقاً – ساعة – إذا ما كان السيد باسى يريد مياهاً ساخنة ، وقبل ذلك بعدة ساعات إذا ما كان جميع من فى المبنى فى حاجة للمياه الساخنة ، ولما لم تكن على استعداد للتعاقد مع أحد الصبيان أو أن تكلف إحدى عاملات المطعم (فإلى جانب تواجد السيدة لوكريثيا فى المنزل ، كان هناك عدد من العاملات الطاعنات فى السن يتولين تنظيف الأرضيات وإعداد الأسرة ، لكن السيد باسى لم يستطع أبداً معرفة عددهن أو أسمائهن) فقد توصلت معه إلى اتفاق يقضى بأن يقوم الساكن بالنزول وإشعال الغلاية كل صباح وأن يدفع ثمن الخشب والفحم المستخدم فى التسخين دون إضافة أية مبالغ أخرى على استخدام الدش أو استهلاك المياه ، كان ذلك يعنى البقاء ساعة كاملة لاستشراف الأشعة الأولى للصباح ، ولما لم يكن باسى يسهم كثيراً،

لم يفعل ذلك أبداً من قبل (لم يكن يفكر فى ذلك أبداً وخاصة فى مكان يوحى كل شيء فيه بالالتزام والرؤية الفعلية فى وضح النهار) أدرك طبيعة ا! كلة وقرر الإفادة من تلك الساعة الصافية فى تحليل الموقف .

كان يستيقظ كل صباح قبل أن يصحو أحد، ويخرج إلى الردهة الشديدة البرودة وهو ملتحف ببطانية وينزل على عدة درجات سلم تئن تحت قدميه ، ثم يعبر الصحن، وينزل على سلالم أخرى - من الحجارة - ويبحث فى الظلام عن قاطع للتيار الكهربائى اعترى البلى أسلاكه ، التى أصبحت خطراً دائماً ، فيشعل النور ، وتنتابه الرعشة من منظر حوائط البدروم فهى رطبة كأنها كهف ، ويسير جرياً حتى آخر المَقْمَرَة ، ويقوم بجمع قطع الخشب وباقى المواد القابلة للاشتعال ، ويستغرق فى ذلك ربع ساعة حتى يتأكد من اشتعال النار ، وبعد ذلك يقضى بعض الوقت يستدفئ ثم يعود أدراجه ، كأنه راهب يعود من نزهته اليومية إلى الجحيم ، وقد تدثّر بالبطّانية واحمرت عيناه من الدخان والتصق الشبشب بقدميه ، وهو على هذه الحال يختلف كثيراً عن الصورة المثالية التى رسمها لما يجب أن يكون عليها الموظف ، لكنه عندما يعود إلى حجرته ويصلح هندامه بأن يمشط شعره بعناية ويرتدى الحلة الرمادية وينتعل الحذاء الأسود ويصلح من رابطة عنقه والياقة وأساور القميص، وبعد ذلك يختار المنديل المناسب: طوال مدة إقامته فى مدينة "دل كامبو" لم يلاحظ عليه أحد أبداً أنه تهاون فى أى شيء من تلك التفاصيل التى تتعلق بصورته العامة .

وبعد ذلك تحين ساعة الاستحمام فى الدش الكائن فى آخر الممر القاحل ، وهو عبارة عن حجرة كبيرة جداً ليس بها مرايا، وبالتالى لم تمتلئ أبداً بالبخار .

كان مصب الدش عبارة عن كتلة معدنية مفرغة على شكل خرشوفة تنطلق منها المياه كأنها مطر عندما تمتلئ عن آخرها ، مع ما يسبق ذلك من أزيز وصفير كإعلان عن قرب وصول الموجات ، أى أنها عبارة عن أرغن هيدروليكى ، تتساقط المياه طوال عشر دقائق وهى محتفظة بدرجة حرارة ثابتة، وبعد ذلك تقل المياه ، ولم يكن على باسيلى ، الذى قضى عشر دقائق من المتعة التى انتقل فيها إلى أوكرانيا مسقط رأسه وقد أغمض عينيه وداعبت المياه المتساقطة ابتسامته، إلا الإسراع فى تدليك جسده بالصابون ثم المسارعة بشطف الصابون قبل أن ينقطع نزول المياه الساخنة ، إذ كان يصدر نوع من التجشؤ يعقبه نزول المياه الباردة .

وبفضل الدش الذى يتكرر كل يوم ، والذى يحرص عليه باسيلى بدقة شديدة كان هناك عنصر إيجابى آخر مبعث غبطة له، وطريقة للخروج به من هذه الدائرة الجهنمية ليجعل من الزمن المدّجّن حركة تنوه بلحظة متعة ، وإيقاع مشابه لكن الغاية والميكانيكية تماثلان ما عليه حركة الساقية .

تغير كل شيء فى يوم حسن الطالع ، كان الصباح مثل باقى الأيام حيث كان المياه تتساقط كالعادة لكن لم تكد تمضى خمس دقائق حتى تغيرت درجة حرارة المياه وضعفت الكمية وأمكن الاستماع إلى صفارة قادمة من العمق وكأن هناك أحد أكواع المواسير يهتز ويضرب طبقة

الجص التى على الحائط ، مما لا شك فيه أنهم يسرقون منه المياه الساخنة ، فربما هناك من يأخذ حمامًا فى الوقت الذى يستحم هو فيه ، أغلق الحنفية فتوقف الصفير: أخذت المياه تنزل الآن دون فقاعات هوائية لكن من خلال مواسير أخرى ، كان الصوت واضحًا فقام بالمرور على الغلاية وعندئذ تأكدت له هواجسه : هناك أحد ما يستخدم المياه الساخنة لكن هذا الفرد ، أيًا كان اسمه، يفعل ذلك من "العالم الآخر".

لم يكن السيد باسى من هؤلاء الرجال الذين ينتابهم الغضب لهذه الصغائر ، فرغم أنه فكر فى البداية فى التعبير عن احتجاجه أمام السيدة لوكريثيا ، قرر أن الأمر لا يعدو مجرد صدفة ، كما أنه كان مستغرقًا فى الاستراتيجية التى يعدها للعودة إلى أوكرانيا ، وبالتالى نسى ما حدث .

لكن لم يكن الأمر صدفة ، أو على الأفضل لم يكن الأمر عرضيًا ، فقد حدث نفس الشىء فى اليوم التالى ، وظل الأمر على هذه الحال لعدة أيام متوالية ، ورغم أن باسيلى كان مشغولاً بأفكاره لم يترك الأمر يمر هكذا ، إذ كان يروق له الوصول إلى جذور هذا التدخل الماكر الذى يحاول الدخول إلى حياتنا ويتحول إلى أمر طبيعى دون أن ندرى .

طافت برأسه أيضًا فكرة أن السيدة لوكريثيا هى التى تقوم بذلك فهى تعرف السر، إلا أن تلك السيدة كانت نظيفة وحسنة الهندام غير أنه ليس من طبعها الاستيقاظ مبكرًا.

ولما ملأت الشكوك قلبه ، شعر بالصّغار فغضب من نفسه وخرج إلى الشارع على غير أوان ، وأخذ يقوم بتجوال سياحى بين الجسر

الرومـانى وحـتى قلعـة "مـوتا" Mota ، وعندمـا أخـذت قـدمـاه تؤلمانه عـاد أدراجه إلى البنسيون وهو أكثـر هدوءاً لكن دون أن ينزاح عنه الغضب بالكامل، كمـا أن الرائحـة الكريهـة التى كـانت تصـدر أصـبـحت مـروره الصامت الأعزل .

فى هذه الآونة تحققت توقعات السيد إيرموخنيس فـانصـاع باسيلى لبـوادر كـرمـه: فـرغم أنـه لم يكن يحـاول نـفـى بداهة أن هذا المكان - أيًا كـانت النظرة إليـه - غير جـديد بالمرة إلا أنه لم يشك أيضًـا فى القـرار الذى اتخذته اللجنة العليا لتوريدات الصـوف".

إنه منهج للتفكير يتسم بالالتواء لكنه يؤدى إلى مـحـصلة : كـان من الضرورى القبول بمكان فى المجتمع الذى يحيط به.

تُوفى بـاكو الجـالجـيـرو Paco el Galguero الرجل الـذى كـان يلعب الورق "الموش" مع السيد إيرموخنيس، وكان هذا الأخير يعتبر نفسه أحد أهـم اللاعبين لدرجة أنه قرر أن يدرب الـروسى على أسـرار هذه اللعبـة ، لم يشطح بخـيـاله بعـيـداً ليـتـصـور أن هـذا الروسى الأحـمـر الأصـيـل والسوفييتى والغبى سوف ينتهى به الحـال معه إلى الحصول على بطولة هذه اللعبة علـى مستوى إقليم "قشتالة القديمة" وهو مدى لم يكن ليحلم به مع رفيـقه الذى مـات،كان ذلك يعنـى بالنسبة له بلوغ تاج وصـولجان المعرفة.

لم يحدث ذلك - بالطبع - فى العام الأول، فقد تأخر باسيلى بعض الوقت فى معرفة كيفية المراوغة والإشارات وحالات الحمـاس التى تعتبر العنصـر الحاسم أثناء المباراة ، وعلى أى الأحوال فإنه لم يطل به الوقت فى هذا المجال مثلما حدث له فى تعلم اللغة الإسبانية التى لم يستطع

إتقانها إتقانًا كاملاً ، كان السيد إيرموخنيس من الصنف المتفائل ، فأخذ يسرى عنه ويؤكد له بقوله "إنك سوف تستيقظ ذات يوم وسوف تعي ذلك" ، أما السيد باسيليو فقد كان يفكر في أنه يروق له لو أصبح ذات يوم وقد نسى كل ذلك وأصبح بعيداً عن الكابوس الذى لا ينتهى ، كان تفاؤل السيد إيرموخنيس مبالغًا فيه ، وذلك هو الشيء الوحيد الذى لا يفضله باسيلى فى خصال الرجال أثناء المباريات ، كان الأمر يصل به إلى التأكيد ، دون أى مسحة من السخرية بأنه يشعر بطمأنينة لأنه لا ينوى الموت ، ويقول ذلك عندما يريد أن يبرر تمهله ، لكن باسيلى لم يكن يرى فى فكرة حياة أبدية فى "مدينة دل كامبو" أى طرافة غير أنه احتفظ برأيه لنفسه .

لم يفصح عن هذا الرأى لأسرته التى كان يكتب لها بين الحين والآخر، وذلك حتى لا يجد نفسه مضطرًا ليشرح لأحد – وأكثر من هذا لنفسه هو – أن الفارق الجوهرى بين معشوقته بلدة سوماسكايا Sumaskaia وبلدة "مدينة دل كامبو" – وهذا ما كان يؤلمه بشدة – يكمن أساسًا فى أنه ليست هناك أية فوارق ، بل إن الأمر بدا وكأنه على الجانب الآخر من المرآة ، وقد فقد صوته وسحنته ولغته ، ولم تعد له دلالة كاملة ، فأصبح شخصية ظاهرية قاحلة كأنها زجاج .

أعطت الخطة بعض ثمارها مع فصل الربيع إذ كان قد أخذ يرسل بتقارير منتظمة حسب الاتفاق ، وكانت التقارير تبالغ بشدة فى ذكر عدد رؤوس الأغنام والأسعار وأنواع الصوف .. الخ ، إلا أن التقارير لم تؤت بصدى وكأنها قطع حجارة أُلقيت فى بئر للإقرار ، وكان للرد الذى يصل إليه الآن صلة بمبادرة تتسم بالكثير من الجسارة ، إذ تم تخويله

الصلاحيات التى طلبها حتى يتولى بنفسه القيام بالمشتروات رغم أنه لم يتلق تعليمات محددة فى هذا الشأن – وهى تلك التى كان على المترجم أن ينقلها له – وقد أرفق مع تلك الصلاحيات المخولة له المبالغ اللازمة من خلال حساب مفتوح فى السفارة فى مدريد .

كان ذلك أقصى شىء يأمله ، الأمر يبدو وكأنه خطأ إدارى واضح، فربما كان مزحة من قبل سكرتير يشعر بالحنق على رئيسه فى العمل، لكنه يعطى له زمام الأمور فى يده ، آه ! وهو زمام تركته أو فقدته بسرعة، اليدان الزرقاوان والبيضاوان لناستاسيا فيدروفنا .

الهدف يكمن فى إحداث رد فعل قوى لدى الإدارة المركزية يتسبب فى إعادته فوراً إلى أوكرانيا ، وكان عليه – بالطبع – أن يدقق فى خطواته ليسد الطريق أمام أية تفسيرات غير مجدية سواء كانت ذات طبيعة سياسية أو نفسية أو جنائية ، وما يتوخاه باسيلى أفانسييف من هذه النزاهة الشيطانية هو النجاة بنفسه بحصوله على بطاقة "غبى لكنه برىء" .

هذه الحيلة المثالية هى التى أوعز له بها السيد إيرموخنيس رغم أنه كان يجهل المكان الذى ستُستخدم فيه (لو كان قد عرف ذلك مسبقًا فلربما رآه لا معقولاً ولم يعره أى انتباه) ، كان رفائيل الخيتانو (الغجرى) شخصاً رهيب الطلعة وشديد طيبة القلب: ولقد اعتمد السيد إيرموخنيس على طلعته الفظة والماكرة لتساعده فى عمليات الشد والجذب أثناء البيع والشراء فى السوق، ورغم ذلك فقد كان جميع من فى هذا المكان يعرفون الغجرى (هو فى حقيقة الأمر قشتالى قديم) وأسهمت معرفته فى أن كل شىء يطلبه السيد باسى باللسان تتم تلبيته ، فقد قرر

أن يرسل إلى بلدته سوماسكايا Sumaskaia الخراف الحية بدلاً من الصوف وبكميات ضخمة ، لكن الأسعار كانت زائدة عن الجد ، وبفضل رفائيل لم تكن هناك نعاج مسلولة أو جرباء أو عرجاء إلا وأرسل بها فى ذلك اليوم إلى الشرق .

كان كل ذلك يحدث قبل أن يفوز السيد باسيلى ببطولة "الموش" وما يمكن قوله هو أن تلك البطولة كانت أول أسس الشهرة التى عانى منها بعد ذلك ، لدرجة أن الإذاعة المحلية بعثت بمراسلها المحلى لتغطية هذه الأحداث المتعلقة بشحنة الخراف المتجهة إلى مدينة كييف Kiev .

كانت عملية الاستقصاء المتعلقة بتلك السيدة الغامضة التى كانت تستحم فى نفس اللحظة التى يستحم فيها تسير فى طريقها، قبل وبعد تلك الواقعة الشهيرة (إنها سيدة وبالتالى فالأمر الذى لا شك فيه هو أنها تنتسب إلى العالم الآخر).

كانت المعلومات المتنوعة والكثيرة التى استند إليها فى تحليلاته تأتيه من خلال خبرات بسيطة مثل انتظاره دون أن يفتح صنبور المياه ومراقبتها وهى تجهز على كل المياه الساخنة دون هوادة ، أو أن يتصرف عكس ذلك ويتأكد بعدها أنها تنتقم منه بأن تفتح الصنبور فى اليوم التالى قبل أن يذهب لإشعال النيران تحت الغلاية .

استنتج أخيراً أنه من المناسب أن يتركها تستحم أولاً ويبلغها، بعد خمس دقائق بالتحديد ، بما سيفعله وذلك من خلال قيامه بقطع المياه هنيهة (بأن يفتح صنبوره) وبذلك يحتفظ بما تبقى من المياه لنفسه ،

تأخرت السيدة بعض الوقت فى قبول التحدي، فقد كانت تصر على السير فى الطريق حتى النهاية، أما السيد باسى فقد تعكّر مزاجه لبعض الوقت لدرجة أنه لا يكاد ينطق حرف الـ R بوضوح عندما كان يلقى بتحية الصباح على السيدة لوكريثيا.

ربما كان المخرج المثالى مضاعفة كمية الخشب والفحم إذ هو على استعداد ليدفع ذلك عن طيب نفس ، لكنه يخشى شكوك صاحبة البنسيون ، ها هو قد تعود على ضرورة هذا الحوار الصباحى ولم يكن يريد القيام بأية خطوة يخاطر فيها بفقدانه ، لقد تمكنت منه هذه المتعة دون أن يدرى رغم أنه كان يتخذ موقفًا دفاعيًا: كانت تتضمن شيئًا ممنوعًا وسريًا وحميمًا وجنسيًا ، كما كان ذلك يتم بشكل يومى ، وهذا شيء هام للغاية وخاصة عندما يتعلق الأمر بممارسة وجود واقعى فى وسط غير واقعى مثل ذلك كان عليه أن يخوضه .

وإذا ما تركت المكان فجأة فى هذه اللحظة من النهار، فقد لا يستطيع باسيلى أن ينزل مرة أخرى إلى الغلاية بنفس الحماس أو ينام كل ليلة وهو قرير العين .

أخذت علاقاتهما تكتسب أبعادًا وتعقيدات جديدة، فإذا ما كان يتم تنفيذ القواعد بحذافيرها أثناء الشتاء، فإن الربيع يحمل مخالفات لذيذة ، إذ كان قطع المياه هنيهات كلها دعابة كافيًا للتعبير عن الظرف والمرح ، ويهيئ الموقف لعمليات انتقام ممتعة ، وضحكات فيها شيء من التعنيف ، وقد كان يتم التعبير عن كل شيء بطريقة ثرية .

تكسو حقول أوكرانيا زهور الأقحوان وشقائق النعمان ، وتأخذ السماوات شكلاً ملائكيًا وتمتد كأنها زنابق داعبتها المياه ، وكأن جسد

امرأة ونفسها وابتسامتها هو الذى يملأ عليه كيانه فى تلك اللحظات الرائعة ، كما سيطر على أفكاره : كان يميز بوضوح شديد صمتها الشكور، وهى على الجانب الآخر من الحائط، كما يدرك غضبها إذا ما قطعت عنها المياه قبل الوقت المحدد ، ثم ما يعقب ذلك من التخلى عن الغضب ورجاء العفو والتعليق الوَدُود إذا ما اقتضاه جمال الطقس .. أى أن ذلك يشمل كل موضوعات السعادة الإنسانية .

لم يتأخر كثيراً فى معرفتها جيداً وتعريفها بنفسه، هى امرأة أصغر منه سناً بعض الشىء ذات روح مقدامة، لكن الحياة وضعت فى طريقها الكثير من العراقيل التى لم تستطع تجاوزها وذلك بسبب طابعها النبيل ، لم تكن على استعداد لتطأ أحداً بقدميها، كما لم تكن مستعدة لبيع نفسها ، ورغم أنها أصبحت منبوذة، إلا أنها تحافظ على شعلة الأمل التى تضفى روح السعادة على عينيها ونبرات صوتها .. الكلمات والعيون والابتسامات هى تلك المرايا التى كان باسيلى يمكن له أن يرى فيها صورته، وهنا بدأ يكتشف فى نفسه جوانب لم يكن يعرفها حتى ذلك الحين: فهو شهم وجرىء ومقدام ويتمتع بروح الدعابة ، وهو بذلك الرجل الذى يمكن لامرأة أن تسافر معه إلى نهاية العالم دون خوف .

وبعد شهرين وصل الرد الرسمى على إرسال طلبية أغنام "المارينو"، وتمثلت البداية فى تلغراف أرسلت به "الأكاديمية المحلية للعلوم فى سوماسكايا" حيث تبلغه بقرارها تعيينه عضواً شرفياً فيها ، وبعد ذلك جاءت تهنئة شخصية من رئيس اللجنة العليا ، لقد أظهر باسيلى قدرة فائقة وبسالة وسرعة بديهة ، فقد أدّى قيامه بإرسال آلاف رؤوس

الأغنام إلى سد العجز الملحوظ الذى كانت تعيشه المنطقة ، ويمكن القول أنه بفضل تلك الخطوة التى قام بها أمكن إنقاذ صناعة الجوارب المحلية المخصصة للأغراض العسكرية من الضياع ، كما ساعد فى تزويد المنطقة بلحوم الأغنام للإفادة بها فى الاحتفالية السنوية "بيوم التعاونيات" (عيد القديس ميخائيل قبل ذلك) ، وتسير اللوحتان التذكاريتان لكل من "نقابة الخياطين" و"مكتب اللحوم" فى هذا الاتجاه ، كان "باسيلى" رغم صغر حجم اسمه على كل من اللوحتين بطلاً فى خدمة الثورة ، كما مُنِح ميدالية من الدرجة الخامسة، وتم تزويده بالتعليمات : أن يواصل فى مكانه متمتعًا بنفس الصلاحيات خلال الخطة الخمسية القادمة (وهذا أمر استثنائى لصالحه من الصعب الوصول إليه ، مثل صعوبة رفضه) .

تهاوى باسيلى ، لم يكن بوسعه أن يفعل شيئًا ، ولم يتبق أمامه إلا الانتقام المشبوه، وهو أن رفائيل الغجرى قد يظل مسيطراً على كل شىء ، لكن أيًا كان ما يحدث فلا أحد يقدر على الاقتراب من ملفّ من حصل على ميدالية من الدرجة الخامسة اللهم إلا إذا ارتكب خطأً جسيمًا أو اغتال أحداً ، وعلى أى الأحوال فأمامه متسع رهيب من الوقت ، عبارة عن خمس سنوات لا يستطيع أحد أن يمسه بشىء .

هلّت الأنفلونزا مع الخريف فاغتاظت السيدة لطول غيابه ، وعندما عاد وهو يشعر بالرضا إلى الدّش ليبلغها بما حدث أصيبت هى الأخرى بالمرض .

أدى مرض الصديقة إلى أن تنتاب السيد باسى الأفكار الشديدة السواد، فأصابه قلق هستيرى ، كان يود لو أنه ذهب إلى سريرها ليعودها ويرعاها، وربما نسى بانخراطه هذا آلامه وأحزانه، لكن المخاطرة كبيرة ، ورغم هذا قرر القيام بخطوته فنزل على السلم باحثًا عن السيدة لوكريثيا ليسأل عن نزيلة مريضة لكن أوقفته كلمة "لا" حازمة : كانت كلمة كأنها بالتوافق بين الطرفين ، وكأنها هى الأخرى أرسلت بها من مخدع الألم ، وقد أدى إحساسه بالنبرات الدافئة لصوتها الواثق والعذب ، إلى تأكيد قناعاته الحميمة بشأن الجميلة المجهولة ، كل هذا جعله يشعر بقوة ، وعندما رأته السيدة لوكريثيا جامداً فى وسط الصحن وهو ذاهل النظرات بين زقزقة العصافير ، لم تفكر فى شىء إلا فى أن السيد باسى ظهرت عليه علامات الشيخوخة ، كما أن المسئولين فى مطعم Ideal كانوا على حق فى ملاحظتهم أن السيد باسى لا يأكل إلا القليل فى الآونة الأخيرة .

هذه التجربة ، الأولى والأخيرة التى كانت لهما خارج إطار الدُش، لم تكن فى الحقيقة إلا الثمرة الواعية لما كان يحدث بينهما بشكل يومى ، ربما دون أن يعرفا ذلك معرفة كاملة ، أخذت الأمور تسير فى اتجاه آخر اعتباراً من هذه اللحظة فعندما شفيت هى من الأنفلونزا قاما معًا بعدة تجارب نهائية، وذلك باستخدام إشارة بسيطة : إذ كان يكفى أن يغلق صنبور المياه مرتين متتاليتين ليعنى ذلك "نعم" أما "لا" فتكفى مرة واحدة ، لكن هذا الرمز سرعان ما أصبح غير ضرورى ، ذلك أنهما كانا يسمعان بعضهما البعض بشكل واضح من خلال العقل، لكنهما احتفظا بها كوسيلة للاتصال والتأكيد على مقولة نعم وكأنهما يتحدثان تليفونياً .

يزداد أمد الحمّام الصباحي ، وسرعان ما ينقضي النهار بين العناية بالهندام ولعب "الموش"؛ وكان السيد باسي غارقًا في حبه، حالمًا، ويبدو عليه تباعده التدريجي عن عالم الواقع .

أحدث نبأ وفاة عمّه جريجوري بعد أن جاء هو إلى مدينة "دل كامبو" بسنوات قليلة ، وكذا زواج ابن عمه إيفان من ناستاسيا خطيبته السابقة بعد ذلك بقليل ، ردود فعل مختلفة لدى باسيلي ، لكن هناك جامع مشترك بينهما: لم يكن حزنه على وفاة عمه حقيقيًا بالكامل لما يمكن كذلك غضبه من خيانة إيفان وناستاسيا ، لقد كانت مشاعر باهتة مساوية لتلك التي قد تكون له على الجانب الآخر من المرآة في مكان داخل الكون ، لكنها مشاعر مفرغة من الداخل وناعمة كأنها زجاج ، لا ، لا يمكن اعتبارها حتى مفرغة ذلك أنها كانت تخلو من عمق أو بعد ، لم تكن إلا مجرد مظاهر، كما أن باسيلي الذي كان يراعي نفسه بعض الشيء لم يشعر بأي حزن إذ أخذ ينظر إلى الأمور ببرود محسوب .

وربما كان ذلك الانتقال من الحزن إلى اللامبالاة بشكل رقيق باستثناء الانفعالات الوقتية المرافقة لشراء الأغنام وبدء العلاقة الأفلاطونية .. الخ) هو المؤشر الوحيد على أن الزمن يحدث أثره على السيد باسي ، لكن لم يستطع أحد، ما عدا السيدة لوكريثيا ، أن يلاحظ علامات الهرِم تلك ، كان رقيقًا، فعاداته ومشاغله وآراؤه وصداقاته لم يطرأ عليها أي تغيير خلال السنوات التي قضاها في بنسيون "دوس موندوس"، وكأن مجرد الاتصال به اتسم باحتفاظ من يحيطونه به ، سواء كان السيد إيرموخنيس والسيد رفائيل، وسباستيان ودورانجو –

الثنائى المنافس فى لعبة الموش - والسيدة لوكريثيا والعاملات معها فى البنسيون، بحالتهم دون تغيير، وكأنهم أشخاص من عالم متخيل وسط مدينة تأخذ فى التحلل والبزوغ من جديد بشكل مستمر وتسقط وتنهض كأن بها حالة دُوار .

تعرضت العلاقة مع تلك "السيدة" لبعض المتاعب التى لم تصل لإفساد حلاوة روتينيتها، فقد كثرت فى الفترة الأولى الأزمات ، وسرعة الغضب والطيش والهجر مثلما حدث ، وأصرّ باسيليو على مفاجأتها عند باب الكنيسة الأمر الذى ولّد صراعًا مليئًا بالتوتر انتهى لصالح "دُورُوتيا"، وبعد تجاوز مشاعر الاندفاع فى اللحظات الأولى والتوصل إلى حل لذلك الخلاف أخذ الحب يعيش مراحل من عدم الثبات، ومرت عليهما بعض الأيام التى لم يتبادلا فيها أى كلمة - كطريقة للتعبير عما بينهما - بل وأكثر من هذا نسى بعضها الآخر.

وذات مرة تمكن باسيليو من تخمين - من الظاهر - السعادة التى هو عليها ، وذلك عندما نسى أن عليهما أن يحتفلا بالذكرى السنوية لأول لقاء لهما ، فكانت تلك غلطة لم تغفرها له بسهولة أبدًا ، هذه التواريخ (بما فى ذلك عيد الميلاد، أول مايو ، وعيد الميلاد المجيد) ، كانا يحتفلان بها بالاستحمام فى وقت واحد وسط توازن هش وصعب لتيار تدفق المياه ، لكن المتاعب المترتبة على مثل ذلك الموقف جسدياً كانت تغذى الروح فقد تآلفت أرواحهما أكثر من أى وقت مضى .

كان العقاب صارمًا، وربما يعود ذلك إلى أنه لم يتواضع ويعترف بخطئه بوضوح ، وتلا ذلك الانفصال: فأصبح يستحم وحده لمدة شهر كامل .

عندئذ جاءته الأخبار التى كان شغوفًا بسماعها طوال حياته ، يمكنه العودة إلى أوكرانيا، فقد انتهت السنوات الخمس الأخيرة بنتائج مرضية (فقد تحول السيد رفائيل مع الأيام إلى تاجر من المشهورين بنزاهتهم وحرصهم) وحصل على ميدالية من الدرجة الخامسة تقديرًا لجهوده ، وكان من حق باسيلي الترقى ، الأمر الذى لا يمكن لناستاسيا أو أبيها الحيلولة دونه ، لم يكن فى "مدينة دل كامبو" أى سلم للترقى ، وبالتالي فرضت العودة نفسها ، ومع هذا استطاع أحد ما التوصل إلى قرار يمنحه فرصة رفض الترقية والبقاء فى مكانه إذا ما أراد .

كان باسيلي يواجه لأول مرة عملية الاختيار ، إنه لم يتذكر مساحة من الحرية فى حياته مثل تلك المساحة، وأصبحت فرحة العودة بمثابة سوط جعله يفقد صوابه على الفور ، أخذ الوثيقة التى تتضمن ذلك القرار ووضعها فى جيبه وصعد مهرولاً إلى أعلى مكان فى المدينة ، وهناك استنشق كل العبق الذى أراد إقليم قشتالة أن يحتفل به معه ، كان يعشق الحياة ويعشق الأرض فأخذ قلبه يدق فى صدره بعنف لدرجة الألم ، أصبح الواقع ملكه من جديد وأصبحت "مدينة دل كامبو" التى كانت على وشك التحول إلى ذكرى ، واقعًا ملموسًا ومفاجئًا، وأصبحت لها روائحها المفعمة بالأشواق .

لكن الأمر الذى جعل باسيلي يتخلى عن مبتغاه الحميم، لم يتمثل فى هذه الرؤية الجديدة والعابرة لمدينة "دل كامبو" التى سرعان ما أخذت شكلاً حميمًا ، فهناك إيرموخنيس الذى لا يمكن الاستغناء عنه ، وهناك لوكريثيا المرأة المستقيمة التى لا تحيد عن استقامتها ، وهناك رفائيل ذو الطلعة المهيبة ، فالأمر الذى ملأ قلب السيد باسى بالغيوم السوداء أولاً ،

والأمطار المُرّة ثانيًا ، كان الشعور بالواجب ، فـ "الحبيبة المجهولة" – التى مازالت على خصام معه – كانت فى حاجة إليه ، ولما كان قد فكر فى لحظة ما أنه من المستحيل عليه العيش بدونها ، فمن الضرورى الإشارة إلى أن باسيلى كان عليه أن يفاخر بكرمه البطولى فى اتخاذ القرار.

فمن غيره يمكنه إشعال الغلاية كل صباح ؟ وماذا سيكون حالها عندما تفقد هذه السلوى اليومية دون الإعراب كل يوم عن احترامها؟ إن التخلى عن امرأة بعد مغازلتها مدة طويلة هى خطوة يقوم بها مُخادع ، وليس الشرفاء من الناس ، وليكن الموقف واضحًا: ألم تكن هى – على أية حال – زوجته الشرعية أيًا كانت غرابة العلاقة الزوجية هذه ؟

العودة إلى أوكرانيا تعنى تركها بمفردها معرضة لبرودة العالم الآخر، وقد صدر عليها حكم ظالم ، لم يطرأ بقلب باسى العديد من التساؤلات ولحظات التعجب مثل تلك التى عاشها يوم أن تخلّى عن ترقيته وظيفيًا ، وقد حصل بالطبع على المقابل، ففى صباح اليوم التالى كانت "السيدة" على الجانب الآخر من الدش : لقد تم رفع العقوبة واستأنفا دون إبطاء تعاملهما اللطيف، انتاب باسيليو الانفعال وتجاوز حدود العقلانية وأخذ يركض متجهًا إلى الغلاية ويلقى إليها بالفحم ، وكأنه سوف يستحم خمس مرات ، واعتباراً من هذه اللحظة تم إقرار "حفلة المصالحة" التى اختلفت عن غيرها ، إذ تمت مضاعفة كمية مياه الاستحمام ، لم يطرأ على حياته أمر بارز كهذا، كانت تمضى السنون (كل خمس سنوات) لكن بدا أن الزمن قد توقف عند فنون باسيلى طبقًا لما كان يحلم به وهو صغير السن ، إذ كان يخشى الهِرم ويلعب لعبة التقهقر وعدم النمو والبعد عن الرياح الساخنة التى تهب على السنابل وتتوعدها بالمنجل .

ربما بقى أن نشـــيـر إلى أن باسـيلى لم يشك مطلقًـا فى وجـود امـرأته ، أو أنه إذا مـا داخله شك ، فلم يكن شكًا عمـيقًـا مثلما يحدث لبعض الأزواج عندما يتأمل زوجته لبرهة فتعتريه لحظة توهـج ويدرك أن ذلك الشخص الذى أمامه ورآه أيامًا معدودات ، هو فى الحقيقة شخص آخر يجهله تمامًا: تكفى إيماءة للقضاء على الأمل .

وذات صبـاح لم يكن هناك أحـد على الجانب الآخـر من الدش ، أو على الجانب الآخر من التفكير ، أضـحت "مدينة دل كامبـو" خـاوية من جديد وكـأنها زجاج لا حـياة فيـه ، فبـعد الظهر خرج نعش أسـود من بنسيون "دوس موندوس" يتبعه عدد قليل من المشيّعات واتجه إلى منحدر يؤدى إلى المقابر.

كانت تهب على أوكرانيا رياح رمـادية تجف معـها شـقائق النعمـان وتَسْوَدّ زهور الأقحوان، كانت الرياح تهبط ببطء لكن بلا هوادة وكـأنها جليد من طين .

حضـر عدد قليل من الناس جنازة دوروتيا سـانشـيث، كمـا حضـر جنازة السيد باسيلى أفانسيف عدد أكبر منهم: إيرموخنيس، وباكيتا ودورانجو ورفـائيل .. لم يمر الشتاء على أحد منهم، كمـا اختفت السـيدة لوكريثيا صبـاح أحد الأيام ، وانتهى مآل الغلاية الألمانية إلى واحد من أعـضـاء المجلس المحلى العـارف بطبـائع الأمـور ، كـمـا أقيـم على أرض بنسـيون "دوس مـوندوس" مـحل **Elegante** ومـركـز تجارى حـديث كـان ، مفخرة المدينة الحالية ، ونسيانا للسابقة .

بعيداً عن كل ذلك كان هناك ملف موضوع فى حـافظة رمادية اللون يسير فى خطه المعتاد .

***

J.E. ZUNIGA

خوان إدواردو ثونييجا

ولد فى مدريد ودرس الفنون الجميلة والآداب ، متخصص فى الأدب السلافى وفى الأدب الإسبانى خلال القرن التاسع عشر ، له بعض المؤلفات السردية منها مجموعته القصصية : "نوفمبر طويل فى مدريد" (١٩٨٠)، ومجموعة أخرى منها "سوف تصبح الأرض فردوساً (١٩٨٩) ومجموعته "خفايا الليل والنهار" (١٩٩٢) .

***

آخر يوم فى العالم

بدا لى أنه ليس هناك أحد فى الحى ، النوافذ خاوية، والأبواب يحركها الهواء ، وتعبر الفئران الصالات الصامتة، وتتوه رائحة الغابة دون أن تصل إلى هؤلاء الناس الذين ينامون فى فترة القيلولة الحارة ، أثناء الليل ، لم يكن يسمع صوت طفل يبكى لأنه لم يداعب النوم جفونه ، أو اصطكاك الأطباق فى المطابخ ، لم يسمع فى الحدائق صوت النافورات ، بل صوت غصن جاف مكسور، وصوت بكرة إحدى الآبار تحركها الرياح ، وقط تركوه يموء مواءً غريبًا ، أما أشجار السنط

والياسمين ونبات إبرة الراعي والبنفسج فقد كانت كلها ساكنة ، وتظلل بضوئها الأخضر غير مبالية بدمارها في المستقبل ، أما الشاليهات ، التي كانت محط اهتمام شركات البناء منذ أعوام ، فقد غطّاها التراب : كان التراب يغطي السلالم ذات السيراميك الأحمر ، وكان في ثنيات الواجهات الفخمة وعلى الزجاج والسلالم المؤدية إلى البدرومات التي يخيم عليها الظلام وتملأها الرطوبة .

لقد ذهب الجميع بشكل أو بآخر، وهم الذين سكنوا هذه الشاليهات، وعاشوا السعادة ، وأمضوا أوقاتًا طيبة في الحدائق الصغيرة الهادئة ، وهم الذين احتفلوا بأعياد ميلادهم ، ورأوا كيف أن الشيخوخة تطول أبناءهم ، ووضعوا أيديهم المرتعشة للمرة الأخيرة على ملاءة السرير ، لقد ذهبوا جميعًا مذعنين لمتطلبات العصر الجديد ولم تعد هناك أسماء في حي الشاليهات أو حتى أصوات، وأصبح في مهب الريح، وتحوّل إلى قطع متساقطة من كرانيش المباني ، وأوراق جافة مكوّمة في أركان يوجد فيها قفاز ، أو زجاجة فارغة وأوراق ، ربما كانت جزءًا من رسائل .

لم تتوقف الهمهمة على الجانب الآخر من الحي ، وكان السولار يحرك ماكينات ثقيلة ، تقوم بهدم المنازل ، وتبليط الأرض بكتل الحجارة ، ووضع طبقة أسفلتية لبناء الطريق العريض المخصص للاستعراضات .

كان ذلك الحي بمثابة تتويج لحياة عائلية، وبعض أنواع الرفاهية المتواضعة ، وبعض الأهداف التي تم الوصول إليها بعد أعوام من العمل الدءوب ؛ لكنه عندما اعترض طريق الماكينات الدقاقة وخلاطات الأسمنت

كان مآله الاختفاء من الخريطة ، وأول شيء سيقومون به هو قطع الأشجار والشجيرات ، وبعد ذلك يخلعون المواسير والحواجز الحديدية والعواتق الخشبية التي تحمل السقف وبعد ذلك تبدأ عمليه الهدم السريع التي قد لا يشهدها أحد .

هناك رجل وامرأة يسيران في الشوارع التي تصطف أشجار السنط على جانبيها ، وهما آخر من كانوا يعيشون ، قررا البقاء وعدم مغادرة المكان الذي عاشا تحت سقفه سنوات عديدة ، حيث تنطق كل جنباته بحبهما له ، قررا عدم قبول الانتقال إلى البلوكات السكنية، حيث الجلبة وعدم الرصانة ستكونان سببًا للحيلولة دون العيش في راحة وهدوء دون تدخل أحد ، وعندما تصل الماكينات الدقاقة فسوف يكون من المناسب الموت مع الحي ، ومع ما كان يمثله من وحدة مبعدة ، والاحتكاك بالطبيعة البسيطة من خلال الحديقة والحياة الهادئة .

كان كل شيء مُعدًا لليوم الأخير، وكان قرب وقوعه مدعاة لأن تكون الكلمات فيّاضة ، ويكثر تبادل الآراء والمداعبات والابتسامات ، والأيام الباقية يجب أن تقضيها في سلام واثق ، وأن تكون مليئة ومفعمة بالذكريات الجميلة التي جعلتهما أكثر نضجًا، وأنه يجب أن تُنسى الحرب الضّروس التي قضت على الصناعات والمشروعات ، أدى قرب النهاية إلى ازدياد اللامبالاة عندهما ، وإلى تفهم الأخطاء الكثيرة التي عادة ما نجدها في حياة الجميع ، كانت لهما نجاحاتهما أيضًا وكذا ساعات عاشاها في هناءة .

يتجوّلان في أماكن معروفة وهما يعلقان على تفاصيل لا قيمة لها ، تتناول الوحدة والحدائق الغنّاء التي تظهر ملامحها من فوق الأسوار

الحديدية لكن دون أن تحول رؤية ما بالداخل ، وكانا ينصتان لزقزقة العصافير وهي على أغصان الشجر.

لكنهما استغربا نوعًا جديداً من الجلبة ، من الممكن أن تشبه صوت القدم عندما تطأ الأغصان الجافة ، وعندما اقتربا أكثر من المنزل الذى صدرت منه هذه الجلبة فاجأ رجلاً يجلس أمام نيران مشتعلة وسط اللهب الذى لا يكاد يُرى إذ كان الدخان يتصاعد بكثافة .

إنها كُتب : يريان الكتب ، وهى تشتعل ، وهما عند السياج الحديدى ، فكان الرجل يفتح الكتب ويمزقها ثم يلقى بها فى النار من خلال حركة بطيئة ، ثم يعاود الكرّة مرة أخرى ، إذ يحمل كتاباً آخر من صف إلى جواره ، بدا أنه مذعن للدمار بطريقة ميكانيكية .

دفع الرجل والمرأة باب الحديقة الذى صدرت عنه جلبة ، وعندئذ نظر إليهما الرجل وظل يحدّق فيهما بعض الوقت واتجه نحوهما بضع خطوات ، فالاستغراب الذى يخيم على الطرفين جعل كلا منهما يتأمل الآخر: كان رجلاً شاباً ، ربما تجاوز عمره الثلاثين عامًا ، وربما قارب الأربعين ، ملامحه جادة ، وهناك إحدى التجاعيد بين عينيه ، من جراء محاولة فهم ما يرى ، أما شعره ، فكانت مسدلة بعض خصلاته على جبهته ، أما من كانا ينظران إليه فهما زوجان قد يكونان فى نفس المرحلة العُمرية أو ربما أكثر منه ؛ قليلاً ، ملامحهما جادة ويقظة ، وعلى استعداد لاستخلاص النتائج من خلال إشارة تعبر عن خيبة الأمل .

تأخرا فى الحوار، لكن عندما عبر الزوجان بصوت مرتفع عما يفكران فيه ، واستغرابهما لوجود أحد فى هذا المكان ، وخصوصًا

النيران المشتعلة ، شرح لهما الرجل بأن ذلك المكان كان بيته ، أما الكتب فهو ليس بحاجة إليها ، تحدث إليهما من مسافة معينة وهو غير واثق ، لكن عندما رد عليه الزوجان بأنهما كانا يعيشان في الحي وأنهما لم يرياه أبداً ، اقترب منهما وسألهما عن السبب، فالحي أصبح خاوياً على عروشه ، وذهب الجميع منه، وعندما رأى أنهما يهزّان أكتافهما ، ابتسم وقال لهما بأن تلك كانت حركته فهو لم يكن على استعداد لطاعة الأوامر ، ثم عاد إلى المكان الذى عاش فيه قبل ذلك بسنوات، كما أنه سوف يحضر نهاية المنزل الذى ولد فيه .

اقتربا من النار وتناولا بعض الكتب وقرآ بعض العناوين وأسماء المؤلفين المحبوبين وأعربا عن ألمهما لأنه يحرقها ، لم يكن يدرى ماذا يفعل بهذه الكتب ، فلا أحد – حسب ظنه – يهتم بذلك النوع من القراءات مثلما هو الحال فى ميدان الأثاث القديم وبعض الذكريات الأخرى التى ما زال يحتفظ بها ، قال ذلك وهو يشير إلى داخل المنزل ، وعندما دخل ثلاثتهم وجدوا كل ما يمكن أن يُعد من زينة المنزل ويساعد على العيش المريح ، إنها الفوضى التى تسهم فى إثارة الفضول لوجود أشياء متعددة مثل اللوحات والملابس والنجف والمرايا الكبيرة والصناديق القديمة .. كما أن التجول وسط تلك الأشياء كان مثار تعليقات ، تعرّف كل طرف على آراء الطرف الآخر وميوله ، وعند العودة إلى الحديقة كانت النار قد انطفأت ، فاقترحا عليه أن يأكل معهما.

ومنذ أن اتخذ الزوجان قرارهما الأخير أخذا يعدان وجبات فاخرة ، ويتسليان بإعداد أطباق ممتازة ، ويقومان بشراء أفضل أنواع النبيذ ، ويبحثان عن كل ما هو طيب المذاق ، وأثناء تناول الطعام لأول مرة مع ذلك الرجل المجهول ، أدرك الزوجان أنه متفهّم لسبب ذلك

الاهتمام ، وأنه شارك ، عن حب ، فى هذه المناسبة ، وبذلك فهم ثلاثتهم أن بالإمكان أن يصبحوا أصدقاء وتشاركوا فى آخر لحظات السعادة التى يبتغونها ، وعندما سمع بوضوح كيف ستكون فحوى تلك السعادة اعترف لهما بأنه قد قرر الانتهاء من حياته عندما ينتهى كل شىء .

شعرا بالاستغراب لذلك اللقاء والتوافق فى كثير من الأفكار، فقد كان هو الآخر ممن تعرضوا للهزيمة فى الحرب ، وشعرا بالرضا لأنهما وجدا فرداً مثلهما فى موقف فريد ومماثل، وقد أدى كل ذلك إلى امتداد حوار الزوجين معه حتى حلول الظلام ، وفى اليوم التالى نادى عليهما وهو فى الشارع ، وعندما دخلا الحديقة، رأيا أنه أتى لهما بهدية عبارة عن جرامافون قديم ، فسارعا بتشغيله وذلك بأن وضعا الأسطوانة تلو الأخرى ، وأوضح ثلاثتهم أنهم من عُشاق الموسيقى ، فأحياناً يسمعون صوت Caruso أو فالس لشوبان ، ويبدو أن هذه الأصوات والموسيقى كانت توقظ أصداء فى الحدائق المجاورة ، وعندما يتوقف الجهاز عن الدوران كانوا يسمعون صمتاً كاملاً وبعيداً يتخلله صوت الماكينات التى تواصل زحفها كأنها الكارثة .

اقترح المجهول عليهما أن يذهبا للعيش معه: فسوف يكون المنزل كله تحت تصرفهما ، ويمكن أن يستغلا الفرصة ليعرفا محتوى تلك الحجرات التى يحتفظ فيها بذكرياته الخاصة بالأسرة ، لكن الزوجين أقنعاه بأنه من الأسهل أن يأتى هو معهما، وأن يأتى معه بكل ما يريد ، وسوف يعيشون سوياً طالما كان ذلك ممكناً .

بهذه الطريقة بدأوا حياة مشتركة لا يفعلون فيها شيئاً إلا ما يطيب

لهم ، وذلك بأن يقضوا النهار الطويل خلال فصل الصيف الحار في اللعب والحوار والصمت المتفهم ، ويستمتعون بالدقائق التى تمضى وهم غير مبالين بما سيأتى بعد ذلك ويحاولون نسيان المتاعب التى نجمت عن الهزيمة الأخيرة .

جمعوا الأموال التى بحوزتهم، وعندما كانت تنفذ يبيعون بعض المتعلقات ذات القيمة ، ويستفيدون بما حصلوا عليه من مال فى شراء كل ما يحتاجونه من السوق السوداء لمتعتهم ورفاهيتهم ، فى منتصف النهار، يعدون غداءً رائعًا، فالروائح الجميلة التى تخرج من المطبخ ، وتعطر الحديقة تجلب القطط الضالة التى تقف على مسافة أمتار وترى كيف أنه فى الظل الوارف لأشجار السنط توضع مائدة وعليها مفرش جميل وزهور ، وفوقها يتم إعداد الأطباق والكئوس لتناول طعام الغداء الذى كان يستمر لمدة ساعتين .

كان المجهول المبتسم، الذى أطلقا عليه اسم فالستاف **Falstaff** يأتى من منزله كل يوم بأشياء تثير الدهشة وذلك لتسلية الزوجين ، أما هما فكانا يعرضان أمامه مجموعة من اللوحات ، وكروت البوستال ، والفراشات ، التى قام جدّهما بجمعها، ويقصّان عليه حكايات صور لأقرباء فى كوبا ، ويضحكون من مواقفهم المتشددة التى عرضتهم لكل أنواع العوز فى ذلك العصر .

وبعد تناول الغداء يأكلون الحلوى ، ويشربون الكحوليات الغالية الثمن ، ويقرأون أحد المؤلفات – بصوت مرتفع – لكاتب يحظى باهتمام ثلاثتهم، ويقضون الساعات وهم يعلقون على تلك القراءات أو يجعلان فالستاف يلقى قصيدة ، يحفظانها فى ذاكرتهما، نظرًا لجمال صوته .

أمـا أثناء الليل فـالطقس يصـبح أقل حـرارة ، يقـومـون بعـزف الموسيقى على ضوء الشموع - فقد تم فصل التيار الكهربائى من الحى منذ فترة - التى كانت تضفى على الحجرات، وعلى وجوههم ، طابعًا جديدًا وغامضًا ، كان العَزف مرتجلاً والآلات هى تلك التى أزالوا عنها الأتربة، فقد استخدموا الكمنجة والجيتار و Xilofono هناك توافق بين أصواتهم وارتجال الأنغام الموسيقية غير المتوقعة ، غير أن الضحكات تكسر النغم ، كانوا يغنون بصوت واحد (كورس) أغانى معروفة ، أما ظلالهم القوية الناجمة عن ضوء الشموع، فهى حافز لهم لعمل ماكياج على نهج الممثلين الشرقيين ، وفى اليوم التالى وضعوا المساحيق على وجوههم، واختاروا الألوان المناسبة، وكرّسوا جهدهم لعمل مسـرحى دون جمهور ودون مسرح ، أو خلفية مسرحية ، اللهـم إلا أيّامهم الأخيرة ، شخصيات تعبّر بين نبات إبرة الراعى ونبات السرنجة الشائعة : ها هو ملك أشورى ، وأحد الغلمان على طراز العصور الوسطى ، وها هى حورية ملفوفة فى الأقمشة والتُّل ، كل ذلك يتم طبقًا لما يريدون تمثيله، ووفقًا لطُرُز الملابس التى اختارها كل واحد منهم وانتقاها من الصناديق المخصصة - منذ ستين أو ثمانين عامًا - لنساء أردن أن يكن مثار إعجاب الجميع ، فقمن بحفظ التنّورات الطويلة من القماش المخملى والبلوزات المتموجة الألوان والعباءات والقمصان الطويلة المليئة بالزخارف المطرزة ، كان سلم الحديقة هو خشبة المسرح المفضّلة حيث تسمع الخطب المطوّلة التى تتخللها الضحكات والتصفيق .

وذات مساء ، وأثناء العزف على آلة الكلارنيت على الدرابزين ، ظهرت سالومى أمام الباب الرئيسى وهى ترتدى ملبسًا متعدد الألوان

وتضع على وجهها قناعًا فضّى اللون، يخفى نصف وجهها ، صاحت، ونطقت بالكلمات التى تثير القلق "أنا مفتونة بجسدك يا جوكسان ، جسدك أبيض من زهور السوسن فى الحقول التى لم تمسسها الشرشرة ، جسدك ناصع البياض كالثلج على جبل يهوذا ، كما أن الورود التى توجد فى بستان ملكة الجزيرة العربية ليست على نفس نصاعة جسدك ، كما لا يَعدلها بياض أقدام الفجر، ولا القمر وهو يتلألأ فى البحر ، لا شىء فى هذا العالم يضارع بياض جسدك ، كانت الأذرع تمتد فتبدو نحافتها وتموجها وهى تتجه إلى جوكسان غير الموجود بينما نجد فالستاف بين زهور الياسمين المتسلق، وهو يرتدى "كلسونًا" قصيراً وبلوزة واسعة عليها تطريز دمشقى ووضع فوق رأسه قبعة ضخمة ثُبّت بها بعض الريش الأخضر اللون ، كان يصيح "لكنه يا سيدى قد أخذكم إلى البحر، أو إلى أعلى قمة فى هذا الجبل الذى يرتفع فوق الكتل الصخرية ، التى يصارعها الموج، وهناك يمكن أن تكون قد أخذت شكلاً آخر يتسم بالفظاعة مما يجعلكم غير قادرين على استخدام العقل .."

كانت أنغام الكلارنيت تتسم بالحدة ، أما فالستاف الذى جلس على السلم ، فقد غطى وجهه بكفّيه ، وأخذ يمثل الانتحاب : "نكون أو لا نكون، هذه هى القضية ، ما هو الطريق الأجدر للروح ؟ هل العيش ومعاناة ضربات القدر غير العادلة ؟ أو أن ندعك أيدينا ونقول لا لهذا السيل الجارف من التعاسة والخلاص منها من خلال المقاومة الجسورة ؟".

نزلت سالومى بضع درجات ، وفتحت عباءتها فظهر جسدها عاريًا ثم انحنت فوق فالستاف الذى تلقى قبلاتها ودعاباتها وشعر بوطأة

فخذيها على فخذيه وصلابة السلالم ، وعندئذ أخذا يتعرفان ببطء على جسديهما .

مضت فترة طويلة هبت أثناءها موجات من الهواء الساخن، كما استمرت الموسيقى فى رفقتهما، أما الملابس الزاهية فأخذت تنزل عنهما ، وطارت القبعة بعيداً عنهما بينما هما متلاصقان لبضع دقائق ، ثم يعودان للابتعاد كل منهما عن الآخر وأخذا أثناء تلك الفترة ينزلقان رويداً رويداً نحو الأرض الترابية وواصلا عليها ألعاب الحب، بينما أخذ ضوء النهار يُلملم خيوطه ، وفى النهاية علاهما الهدوء ، لكن أنفاسهما متلاصقة وعضلاتهما مسترخية ، يحدقان ببصرهما فى السماء من خلال أوراق الشجر الذى تصدر منه جلبة هى زقزقة العصافير.

توقفت آلة الكلارنيت عن العزف ، وكأن عازف الموسيقى قد استكان هو الآخر للثبات ، غير أنه عندما نهضا من على الأرض ، واتجها هرولة نحو النافورة الجافة وأخذا يستخدمان الخرطوم فى إلقاء الماء عليهما ، نزل العازف أيضًا وانتزع من على جسده الملابس القليلة التى كان يرتديها وأخذ ثلاثتهم يضحكون ويستحمون ويلقون الماء البارد على بعضهم البعض ، مما ساعدهم على أن يزيلوا عن أنفسهم الكسل والخمول الذى سببه الحر خلال فترة ما بعد الظهيرة .

وعندما قرروا الخلود للنوم فى منتصف الليل لم يذهب فالستاف إلى الحجرة التى كان ينام فيها ، بل قام بتوسعة مخدع الزوجين واستسلم ثلاثتهم للحب على ضوء الشموع ، وبعد ذلك ناموا متلاصقين وكأنهم جسد واحد.

في صباح اليوم التالي ، وعند الاستيقاظ من النوم ، نظر كل منهم إلى الآخر نظرة راحة ومودّة ، وبمرور الزمن أحسّوا باستقرار حميم هيأ لهم المزيد من حرية التعامل فيما بينهم، واللطف في السلوك ، وأدت الحيوية الشديدة إلى قيامهم بالمزيد من الألعاب في الحديقة ، وتبادلوا الحديث الذي يتسم بالصراحة الكاملة حول أفضل الخبرات التي مرّت بهم في الحياة ، لقد جمعوا حولهم كل نتاج العقل والابتكار مثل الفن والأشياء الطبيعية ، كانوا يتمتعون بكل ذلك بوعي كامل ، فلا يكادون يفرقون إلا ما ندر ، بين الملذات والسعادة، وربما النسيان أيضًا: كانوا يقومون بتصفح بعض الكتب من جديد ويتنسمون رائحة قديمة في علب مصنوعة من أخشاب غريبة ، وكانوا يتمددون ، وهم عرايا فوق الحرير والأطلس ، وكانوا يتزيّنون بالعقود والزهور ، لمزيد من الجاذبية ، وأن تكتسب أجسادهم التي يضمخونها بالزيوت والعطور صورة جديدة ، ومنذ تلك الليلة زادت الرغبة في الأكل وسرد الأحلام والابتعاد عن الذكريات الحزينة والتنكر في أشكال غريبة والمزيد من الجرأة ، وعند تناول طعام العشاء وبعد أن يضرم النبيذ وباقي الكحوليات الأخرى نيرانها في روح الأصدقاء الثلاثة، كانت هناك أقنعة غاية في الجمال ، تزيد من أبهة العُرى الجميل ، تبزغ من الظلام وكأنها هدية غير متوقعة تظهر على ضوء الشموع .

***

وذات يوم تأكدوا أن ليس هناك ماء في الحنفية ، فأدركوا أن الماكينات قريبة من المكان ، وبعد يوم أو يومين سوف يحضر

القائمون على هذه الأعمال وبالتالى لن يتمكنوا من مواصلة تسليم قيادهم للحرية .

خرجوا إلى الشارع وسمعوا وقع عمليات هدم الشاليهات القريبة وأصوات العمال الذين يقومون بتحميل الشاحنات الضخمة بالمواد غير النافعة والتى كانت مساكن قبل ذلك .

ها قد حانت ساعة النهاية واعترفوا بذلك بهدوء ، واتفقوا على أنه لا يمكنهم تأخير تنفيذ القرار الذى اتخذوه ، أكثر من ذلك ، أخذوا يهيمون فى الحديقة عدّة دقائق، ودخلوا بعد ذلك الحجرة ، التى كانت حجرة النوم المشتركة، وبها كل ما قد حكموا عليه بأنه شىء جميل وجدير برفقتهم ، أخرجوا الجرعات التى يحفظونها فى أحد الدواليب ، وبعناية بالغة قاموا بإذابتها فى ثلاثة أكواب من النبيذ وشربوها فى آن واحد دون أن يتبادلوا أية كلمة ، كانوا يعرفون أن الآثار سرعان ما سوف تظهر وتمددوا داخل المخدع ، وكنوع من التحية تعانقوا وتبادلوا القبلات وهم يعيشون مشاعر الوداع ، فى هذه اللحظة أخذت تظهر أولى الأعراض ، المغص والحرارة الخانقة ، وبعد ذلك فقدوا وعيهم وخلت أجسادهم من الحركة، ثم علاها التصلّب وهى فوق الملاءات التى كانت رفيقات لهم .

***

لم يعرفوا أبداً أنهم لم يكونوا السكّان الوحيدين فى الحى المهجور، وأن حفلاتهم وولائمهم وحفلاتهم التنكرية وحالات السكر من جراء تناول النبيذ الفاخر وممارسة الحب كان يحضرها ثلاثة فتيان يتلصصون

عليهم اليوم تلو الآخر، وذلك من خلال فتحات الحاجز الحديدى ، كانوا يشعرون نحوهم بالإعجاب وهم فاغرو الأفواه يتأملونهم وهم يتسلون ويقرأون بصوت مرتفع ويلعبون الكروكيت والكرة ، وكيف أن أصواتهم تتخللها الضحكات والأغاني .

كانوا ثلاثة: شابان وفتاة، أصدقاء، كانوا يشعرون بالملل خلال ذلك الصيف ، فأخذوا يهيمون فى أرجاء الحى الذى خلا من السكان واكتشفوا أحد الشاليهات حيث وجدوا به أفراداً يقومون بأشياء يحسدونهم عليها ، وعندما سمعوهم ورأوهم شعروا بالانجذاب نحوهم ، فكانوا يستغلون كل لحظة فى الذهاب إلى السياج الحديدى ويختبئون هناك ويتأملون بإعجاب كل ما ينفح به الخيال والعَفوية .

غير أنهم استغربوا كثيراً لغياب ثلاثتهم فى ذلك اليوم ، وتجرّأوا على دخول الحديقة خلال فترة ما بعد الظهيرة ، وصعدوا السلالم حتى وصلوا إلى عتبة الباب ، لم يكن يسمع أى صوت أو موسيقى أو أى جلبة ، تقدموا وهم يسيرون على أطراف أقدامهم ، وتجولّوا فى الحجرات حتى وصلوا إلى إحداها وتوقفوا عند الباب ، رأوهم هناك وهم ممددون فوق مخدع ضخم وقد خلت أجسادهم من الحياة ، وتطوف فوقهم سحابة ذباب ، وفى باقي مساحة الغرفة هناك أكوام من اللوحات والكتب والأثاث والزجاجات والنجف والتماثيل البرونزية ، وشهد الفتية الثلاثة خيالهم فى المرآة الضخمة ففزعوا، أدرك وعيهم الشاب حقيقة ما كانوا يكتشفونه ، فاستعدوا للفرار دون أن ينطقوا بكلمة ، لكن أوقفهم عن فعل ذلك فكرة مشتركة : هناك كنز فى متناول أيديهم .

تقدموا بضع خطوات حذرة داخل غرفة النوم وأخذوا يستولون على ما يروق لهم ، مثل القبعة وملبس سالومى وزجاجة خمر أصفر اللون وعقود وكتب وعلبة بنبون كبيرة وخوذة مرصّعة بالريش .. وعندما امتلأت أذرعهم بما يريدون خرجوا جريًا وعبروا الحديقة، وعندما وصلوا إلى السياج الحديدى نظروا إذا ما كان هناك أحد فى الشارع أم لا ، إلا أن الحىّ كان خاويًا على عروشه ، كما أن آخر بقايا الوجود ها هى قد اختفت وراء ظهورهم .

هرب الفتية متجهين نحو حىّ آخر، وربما كان ذلك الحى الآخر مهدداً بالتدمير بعد عدة أعوام، وقد يقومون هم الآخرون بمحاولة التشبث بجذوة من الجمال والحب والسعادة وهم ينتظرون أن يأتى آخر يوم فى العالم .

***

الفهرس

صفحة

صفحة

(الجزء الثانى)

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ – ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ – الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ – تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ – مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ – رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ – التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ – الرواية العربية	روجر ألن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	ت: عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣ – نقد استجابة القارئ	جين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومي
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت : محمود السيد علي
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقي	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥ – مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
٩٨ – الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١ – النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣ – قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرا متي	ت : أشرف علي دعدور
١٠٧ – صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاجنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ – چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنورد	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرْج علَوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	پول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو – أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى – سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ – ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فرديناند دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ – مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ – رايولا	خوليو كورتازار	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ – شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر – رابوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ – قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيميونوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ – الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ – ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ – الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروجان كازانچيان
٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٣	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ – مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ – روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ – مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ – فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ – الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ – الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ – الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ – السيدة بربارا	روميلو جالاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ – ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ – فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ – الچينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ – البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ – الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ – من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ – الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ – طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ – السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ – هرقل مجنوناً	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ – رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ – رحلة إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ – الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ – الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ – ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ – علم الترجمة واللغة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ – مقدمة للأدب العربي	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ – فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ – سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ – مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ – مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ – أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء جاهين
٣٠١ – أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ – فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ – بوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ – ماركس	ريوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ – الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطي للتاريخ	جان – فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ – الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ – علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ – الذهن والمخ	انجوس جيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ – يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ – مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ – روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ – أمثال فلسطينية	خابير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ – الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ – جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت : كاميليا صبحى
٣١٦ – محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ – بلا غد	شير لايموفا – زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ – الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ – صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ – لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ – تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ – التأريخ الغربى الفن الحديث	دبليوجين كلينباور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ – فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ – اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ – عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف
٣٢٦ – المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ – مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ – يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ – رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٦٩٨ / ٢٠٠٢

المجلس الأعلى للثقافة



هذه المختارات تضم أكثر من ثمـان وعشرين قصة قصيرة لنفس العدد من المبدعين ، وإذا ما شئنا النظر إليهم من خلال منظور نظرية الأجيال فقد قام المترجم بترتيبهم على أساس تاريخ الميلاد لكل منهم ، وبالتالى نجد أمامنا أربعة أو خمسة أجيال : جيل ما قبل الحرب أو جيل الحرب الأهلية (١٩٠٠ - ١٩١٥) ، وجيل الخمسينيات (١٩١٥ - ١٩٣٠) ثم جيل الستينيات (١٩٣٠ - ١٩٤٥)، أو ما يسمى بجيل عام ١٩٦٨ ، ثم جيل الأدباء الجدد ، وهم الذين ولدوا من عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٦٠ .. وأخذوا يدخلون إلى الساحة الأدبية اعتبارا من منتصف السبعينيات .

ومن أراد أن ينظر إلى هذه المختارات من خلال سيطرة اتجاه معين سواء الواقعية أو الواقعية النقدية أو الواقعية الاجتماعية أو تعدد التوجهات فى الرواية والقصة القصيرة خلال فترة زمنية معينة سواء الأربعينيات أو الخمسينيات أو الستينيات ... إلخ فسوف يجد مبتغاه، كما قام المترجم بتقسيم هذ المختارات إلى قسمين: يتناول الأول الفترة التى أطلق عليها فترة ما بعد الحرب الأهلية الإسبانية وحتى رحيل الجنرال فرانكو (١٩٧٥) . أما الجزء الثانى فهو يبدأ - نسبيا - بعد هذه الفترة ، وينتهى عند بداية العقد الأخير فى القرن العشرين